

دار الكتب www.dar-alkotob.com

دار الكتب www.dar-alkotob.com

النقائض في الشعر الجاهلي

تأليف

الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي

أستاذ الأدب العربي المساعد

كلية التربية - جامعة المنصورة

مكتبة الأواب

٤٢ ميدان الأوبرا. القاهرة. ت: ٣٩٠٠٨٦٨

البريد الإلكتروني: adabook@hotmail.com

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لقد خضع الشعر الجاهلي لمسلمات كثيرة نتوارثها ونرددتها^(١) جيلاً بعد جيل، وأعتقد أن هذه المسلمات نشأت منذ القدم ولم تكن وليدة العصر الحديث، ونضرب لذلك مثلاً وهو قول ابن سلام الجُمحي (١٣٩-٢٣١هـ) بأن امرأ القيس من الشعراء الذين يستبهرون بالفواحش ويتعشرون في شعرهم^(٢)، والمفترض لمن يقرأ قول ابن سلام أن يكلف نفسه عناء البحث في شعر امرئ القيس ليتحقق من صحة حكم ابن سلام عليه، لكن الأسهل من هذا هو اعتبار قول ابن سلام السابق حُجة غير قابلة للنقاش، يُسلمُ بصحتها، وعلى ذلك نرى جميع الدارسين في العصر الحديث يعتمدون على هذا الرأي مثل إيليا حاوي، والدكتور أحمد الحوفي، والدكتور طه حسين، والدكتور شوقي ضيف وغيرهم^(٣).

وأظن أن الذين تناولوا الشعر الجاهلي بالدرس والتحليل والتنظير إنما اعتمدوا على القصائد الطويلة المشهورة كالمعلقات والمجمهرات وغيرها، ومن ثم كانت هذه القصائد هي المعيار الذي يبنون أحكامهم عليه، فلا بد أن تبدأ القصيدة بمقدمة طلبية مثل هذه القصائد، وإن لم نجد مقدمة طلبية كان الجواب جاهزاً، فقد ضاعت وضلَّت طريقها إلينا ووصلت إلينا القصيدة مبتورة. ونسينا أو تناسينا

(١) انظر: امرؤ القيس حياته وشعره، الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٩٦.

(٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجُمحي، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، (د.ت) ص ٤٨٣.

(٣) انظر ذلك تفصيلاً في: العفة في غزل امرئ القيس، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، مجلة كلية دار العلوم، العدد ٢٨، ربيع الأول ١٤٢٢هـ، يونية ٢٠٠١م، ص ١٨٥.

أن القصائد الطويلة في الشعر الجاهلي تمثل نسبة ضئيلة إذا قورنت بالقصائد الأخرى، ويمكن للقصيدة الطويلة أن تكون بلا مقدمة طللية، أضف إلى ذلك أن هناك دواوين لشعراء كبار في العصر الجاهلي خلّت تمامًا من أية مقدمة طللية مثل ديوان عامر بن الطفيل، كما أن ديوان لبيد بن ربيعة لم ترد المقدمة الطللية فيه إلا في أربع قصائد فقط، وهي القصائد رقم (١١، ١٢، ١٥، ١٦) في ديوانه الذي حققه الدكتور إحسان عباس بينما بقية قصائد الديوان وعددها سبع قصائد قد خلّت من المقدمة الطللية فالحكم إذن بأن القصيدة الجاهلية لا بد وأن تبدأ بالطلل أمر يحتاج إلى إعادة نظر.

والنقائض في العصر الجاهلي شأنها شأن ما سبق، فهي تخضع لأحكام عامة تنقصها الدقة والبحث الهادئ، وأعتقد أن معظم الاتجاهات التي ظهرت في الشعر الأموي والعباسي لم تظهر من العدم أو الفراغ وإنما شُبت عن جذور عميقة في الحقبة الجاهلية.

وشعر النقائض أقرب إلى الحياة الجاهلية من أي عصر آخر وذلك لكثرة الحروب والمعارك والمنافرات التي ينشأ عنها عادة شعر النقائض الحقيقي لأنه يعبر عن حالة عداة حقيقي بين خصمين، أما النقائض الأموية والتي اعتبرها كثير من الباحثين اتجاهًا جديدًا لم يألّفه الشعر العربي قبل ذلك، فإنني أعتقد أنها نقائض فنية، أي تعبر عن صراع فني بين شاعرين ربما لا تكون بينهما خصومة وإنما هو صراع مهني إن جاز لنا التعبير.

أضف إلى ذلك فإن الذين درسوا نقائض العصر الأموي - في الغالب - ركّزوا على نقائض جرير، والأخطل، والفرزدق، وكأن العصر الأموي خلا من النقائض الحقيقية التي تنشأ نتيجة خصومة حقيقية وعداء بين طرفين، وشعر النقائض هذا أكثر من حيث الكم من شعر الشعراء الثلاثة المشهورين - جرير، والفرزدق،

والأخطل - وهو الامتداد الطبيعي لشعر النقائض في العصر الجاهلي . لأنه كما قلنا - سابقاً - كان نتاجاً لعداء حقيقي .

وعندما فكرت في دراسة نقائض العصر الجاهلي - لم يكن الأمر سهلاً، بل كان لزاماً عليّ أن أقرأ أشعار القبائل العربية والمصادر التي اهتمت بأخبار الحروب والصراعات بين هذه القبائل، وليس معنى هذا أننا أحصينا كل النقائض في العصر الجاهلي، وإنما أحصينا ما توصلنا إلى معرفته منه فقط، وربما غاب عنا قصيدة هنا أو هناك وهذا أمر طبيعي لأنه لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه قرأ الشعر الجاهلي كله ولم تفته شاردة أو واردة فهذا كلام يخالف الدقة العلمية لكن الصحيح هو القول بأننا قرأنا كل المُمّتاح منه، لذلك نأمل من زملائنا وأساتذتنا أن يمدونا بالعون والنصيحة إذا ما وجدوا قصيدة في مصدر لم يُنَجّ لنا الإطلاع عليه .

وبعد

فقد بذلت جهدي في هذا الكتاب آملاً أن أكون قد وضعت لبنة مهمة في دراسة الشعر الجاهلي والله تعالى من وراء القصد فهو نعم المولى ونعم النصير،،،

دكتور

عبدالرحمن محمد الوصيقي

القاهرة منيل الروضة

الثلاثاء في ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ

١٥ يوليو ٢٠٠٣ م

تمهيد

حول مفهوم النقائض

النَّقْضُ في اللغة هو: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، ونقض البناء، هدمه، وناقضه في الشيء مُناقضة ونقاضاً: خالفه، والمُنَاقِضَةُ في القول: أن يُتَكَلَّم بما يتناقض معناه. والنَّقِيضَةُ في الشعر: ما يُنْقَضُ به. وكذلك المناقضة في الشعر ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول^(١).

«أما الصورة الاصطلاحية التي انتهى إليها هذا الفن منذ الجاهلية فالأصل فيها أن يتجه شاعرٌ إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ملتزماً بالبحر والقافية والروي الذي اختاره الأول، ومعنى هذا أنه لا بد من وحدة الموضوع فخراً أو هجاءً أو سياسة أو رثاءً أو نسيباً أو جملة من هذه الفنون المعروفة.. ولا بد من وحدة البحر فهو الشكل الموسيقي الذي يجمع بين النقيضتين.. ولا بد من وحدة الروي وحركته»^(٢).

ويكون نقض المعاني محوراً أساسياً لهذا الفن لأنه مناط النقائض ومحورها الذي عليه تدور، لأن الشاعر الآخر همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاءً، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخراً كذبها فيها أو فسر لها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه^(٣).

والنقائض بهذا المفهوم تعدُّ مُبارزةً فنية وعقلية داخل إطار موضوعي وإيقاعي

(١) انظر: اللسان «نقض» (٢٦٢/١٤)، والقاموس المحيط «نقض» (٣٤٧/٢).

(٢) تاريخ النقائض - أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٥٤م، ص ٣.

(٣) انظر: السابق ص ٤.

مُحدد، لا تقل عن مبارزة السيف والرمح، فالغاية واحدة لأن الذي يبارز بالسيف أو الرمح في معركة يريد قتل مَنْ ينازله، وكذلك الذي يبارز بالقول يريد قتل مَنْ يبارزه معنويًا، وهي أشد وأنكى، لأنّها لا تنتهي بنهاية النزال في المعركة، بل تجعل المهزوم في المبارزة يعيش حياة مُحاطة بالعار، ربما يكون الموت أفضل منها، إذ يتناولها الركبان في أرجاء جزيرة العرب وتنتشر انتشارًا واسعًا بين القبائل، أضف الى ذلك أن لها صفة الخُلد على مر العصور.

والشاعر العربي القديم كان على وعي تام بهذا، ويدرك خطورة النزال القولي، لذا كان الشاعر الأول يبذل قصاري جهده في تصوير ما يقول محاولاً إثباته بحجج وبراهين وأدلة كي يُقنع الغير بها، وكان الشاعر الآخر عندما يرد عليه يبذل جهداً مُضاعفاً، لأنّ الأول فرض عليه أرض المعركة وطبيعتها - الموضوع والإيقاع - ومع ذلك يتحتم عليه تفنيد ما قاله الأول والرد عليه وإبطاله.

★ حول نشأة النقائض

عندما تُذكر «النقائض» يتبادر إلى الذهن نقائض العصر الأموي التي بلغت شُهرتها الآفاق، ونالت قصب السبق من الدرس والتحليل، وكان «هذا الفن الشعري حديث النشأة لم يعرفه الشعرُ العربي إلا في منتصف القرن الأول، وكان فضل اختراعه راجع إلى هذه المدرسة الأموية ورجالها المشهورين والمغمورين»^(١) ومن ثمّ نُظِرَ إلى النقائض الأموية على أنّها الصورة الأولى لهذا الفن. وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى وجود بذور قديمة للنقائض سبقت العصر الأموي، ويرى النقائض تطويراً لفن الهجاء الذي عرفه العرب في الجاهلية لكنه يؤكد في الوقت نفسه على عدم وجود علاقة بين الهجاء الجاهلي وفن النقائض في

(١) تاريخ النقائض - أحمد الشايب ص ١.

العصر الأموي الذي أصبح شيئاً آخر يُراد به اللهو لا الجد كما كان الشأن قديماً. ويضيف الدكتور شوقي ضيف أن الشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً، وليقطع له أوقات فراغه، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة، ولم يكن يحترف الهجاء على هذا النحو الذي نجده في عصر بني أمية، كما أن صور الهجاء التي سبقت العصر الأموي كانت في أكثرها صوراً بسيطة، فالشعراء لا يتقيدون دائماً بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألفاظ والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم^(١).

ويؤكد الدكتور صلاح الدين الهادي على أن النقائض كانت فناً شعرياً معروفاً - إلى حد ما - في العصر الجاهلي، لكنها في أول أمرها لم تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها وشرائطها الفنية وكانت تأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول المناقضة، ثم أخذت تتطور شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى صورتها الكاملة واستوفت كل القواعد والأصول الفنية اللازمة لفن المناقضة في نهاية العصر الجاهلي^(٢).

أما الأستاذ أحمد الشايب فهو - فيما أعلم - أول من قطع بوجود فن النقائض في الشعر الجاهلي، وأكد على أنه فن قديم نشأ مع النهضة الشعرية طفلاً ساذجاً ناقص الأركان ثم أخذ يستكمل، على الأيام، أركانه، وعناصره، معتمداً أكثر ما اعتمد على فني الفخر والهجاء حتى تمت أوضاعه وشرائطه. ويبرر الأستاذ الشايب رأيه السابق بأنه ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائض أول ما

(١) انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي - د. شوقي ضيف - ط ٨، دار المعارف ١٩٨٧م، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) انظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي - د. صلاح الدين الهادي - دار الثقافة العربية (د.ت)، ص ٢٧٥، ٢٧٢.

تطلع، كاملة الصورة تامة التقاليد والعناصر، متوافرة الشرائط والطرائق كما رأيناها عند جرير وصاحبيه، فلا بد أن تدرج طفلة ثم تيفع وتشب إلى أن تستوى ناضجة متجاوبة الموسيقا متقابلة المعاني^(١).

ويؤكد الدكتور صلاح رزق هو الآخر على وجود النقائض في الشعر الجاهلي ويرى أنها فن قديم قدم الفخر والهجاء في الشعر العربي، وقدم المنافسات القبلية والمنازعات العصبية التي سادت الحياة العربية قبل الإسلام بسنين طويلة^(٢) تلك هي أبرز الآراء التي قيلت عن النقائض ونشأتها^(٣).

ولعل الرأيين الأخيرين هما الأقرب للصواب - من وجهة نظرنا - إذ أقرنا بوجود فن النقائض في الشعر الجاهلي، وضربا أمثلة لذلك كل حسب اجتهاده، ولكننا لا نتفق معهما في بعض ما ذهبوا إليه، لأن النقائض الجاهلية لم تكن وفقًا على فني الهجاء والفخر، كما أنها لم تكن ساذجة ناقصة الأركان، وهذا يعود إلى نشأتها مع الشعر الجاهلي، ونحن لم نعثر على شعر جاهلي في مرحلة الطفولة إذ وصل إلينا شابًا يافعًا وكذلك النقائض، وإن كانت طبيعة الأشياء تحتم مرورها بمرحلة الطفولة، فهذه المرحلة لم تصل إلينا شأنها في ذلك شأن الشعر الجاهلي.

(١) انظر: تاريخ النقائض - أحمد الشاهب - ص ٥٢، ٤٥، ٤٤.

(٢) انظر: الأدب الأموي - د. صلاح رزق - مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٩٦.

(٣) هناك كتب أخرى أشارت إلى ذلك انظر على سبيل المثال:

- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبدالقادر القط - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م، ص ٣٥٨-٣٦١.

- تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢٥، (د.ت) ص ١٢٤-١٢٥.

- نقائض جرير والفرزدق، دراسة أدبية تاريخية - مطبعة دار المعرفة، بغداد، ط ١، ١٩٥٤م، (١/٢٠٠ وما بعدها).

الفصل الأول

عرض وتحليل النقائص

١- النقائض قبل حرب البسوس:

لم تكن الحرب ميداناً للقتال فحسب، بل كانت سبباً مباشراً لظهور فن النقائض الذي نما وترعرع في أجواء المعارك، فقبل كل حرب أو بعدها تكون المناقضة تهديداً ووعيداً أو فخراً.

ويُعد أول ظهور لفن النقائض في الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ما واكب الحروب التي اندلعت بين اليمنيين من جهة وبكر وتغلب من جهة أخرى لأن هذه الحروب كانت قبل حرب البسوس التي اندلعت في نهاية القرن الخامس الميلادي.

ويوم «أراط»^(١) هو أول هذه الأيام، وقد استمرت فيه الحرب سبعة أيام تباغاً حتى كثر القتل بين الفريقين، ولما كان اليوم السابع انهزم اليمنيون أمام بكر وتغلب، وولوا الأدبار، وعندما بلغت أخبار الهزيمة التبع اليماني قال مهدداً^(٢):

بأذ الكلام كأنني مؤزود	من دار خير فالفؤاد عميد
نادى معاهد من أبيت قعود	اقضاء عينك عادها أم عود
منع الرقاد فما أغمض ساعة	نبط بيثرب آمنين قعود
نبط أسارى ما ينام سميهم	لابد أن يسليهم مورود
لا تسقني بيديك إن لم تلقها	صررا كأن أسافها مجرود
بسيوف حير والمقاول وسطها	واخيّل تبدو ساعة وتعود
قلأ خضبن سبالهم بدماهم	ولتعفرن معاطس وخدود

(١) ويُقال: يوم أراطى، بألف مقصورة، وهو من أيام العرب، وأراط: ماء على ستة أميال من الهاشمية، شرق الحزمية من طريق الحاج. معجم البلدان «أراط» (١/١٣٤).

(٢) الشعر وأخبار هذا اليوم في كتاب بكر وتغلب، ص ٢٠، وما بعدها، والأبيات على وزن (الكامل).

ولقد نزلت على هَوَانٍ حَقِيبَةً أسرى أَقَاتِلُ سَاعَةً وَأَذُوذُ
ولقد شددتُ على يمامة شدةً ذَلْتُ وَهَدْتُ حصنها المشدود
ولقد حطمتُ حُصُونِ سَيْبِ بَعْسَكِرٍ وعلى حصونهم قَنُ ولبود
ولعلنا نلحظُ هنا أَنَّ التَّبِعَ قد فخر بقومه «حمير» وبقوتهم وبأسهم في القتال ثم
هددُ بهلاك بكر وتغلب.

ويأتي رد كليب مستخدماً البداية التي استخدمها التَّبِع «ياذا الكلام».
وإذا كان التَّبِع قد فخر بقومه «حمير» فإن كليباً هو الآخر يضع جدوده من بكر
وتغلب في المقابل، ويرد على فخره بالقوة بفخر مماثل، ويرد على تهديده بتهديد
مماثل أيضاً، فهو سينازل التَّبِع وقومه برجال أشداء من بكر وتغلب، ومن ثم
تكون النقيضة هنا قد استوفت شروطها، يقول كليب في رده ^(١) :

ياذا الكلام نسيتُ عقد جدودي فَلِمَ أَنْفَتِ وَأَنْتَ غَيْرَ حميدٍ ^(٢)
لم أسر بالغمرات ان لم ألقكم شهباء مثل صرائم الأخدود ^(٣)
حتى أنازل تُبْعًا بكتيبةٍ شهباء ليس ورودها كورودي
فرجالُ تغلب والأراقم وسطها والخيل بين مجنب ومقود ^(٤)
ورجالُ بكرٍ مُلْجَمُونَ خيولهم ما بين قِزْمٍ سيد ومسود ^(٥)
فلما بلغ هذا الشعر التَّبِع أمر بتجهيز الجيوش لتأديب كليب وقومه، والتقى

(١) الشعر في كتاب بكر وتغلب، ص ٢٢، ٢٣، والأبيات على وزن (الكامل).

(٢) عقد: عهد، أنفت: أبیت.

(٣) الغمرات: مفردا غمرة، والغمرة: جماعة الناس، وشهباء: قوية شديدة، وصرائم: جمع صريمة،
والصريمة من الرمل قطعة ضخمة تنصرم من سائر الرمال، والأخدود: شق في الأرض مستطيل.

(٤) الأراقم: حيٌّ من تغلب، ومجنب: مُقَاد إلى الجنب، ومقود: مسحوب من الأمام.

(٥) القِزْمُ من الرجال: السيد العظيم.

الجمعان في ثنية الجبلين^(١). وانتصر كليب وقومه على اليمنيين، وأسر الثمر بن عثمان سيد اليمن مع نسوة له، أسره كليب بن ربيعة، وعندما علم التبع بأخبار الهزيمة قال^(٢):

إن بيتي الذي بنى إلى قحطان	طويل العماد وصعب المراق
هو سهل عليّ حزن لغيري	مستظل منطلق بنطاق
ليس شين يرومه وله با	ب من العز مرصد بالوثاق
كل من رام فتحه أو رآه	خرجت نفسه من الإشفاق
ودونه عسكر تضيق به الأرض	عظيم مروق برواق
ذاك بيتي وأي بيت كبيتي	أو مذاق في الطعم مثل مذاق
سار شمر إلى الأفاصر من الأرض	بخيل تقاده في الأفاق
لست بالتبع اليماني إن لم	تصبح الخيل في سواد العراق ^(٣)
وعليها شباب صدق كرام	يحسنون الطعان يوم التلاق
إنما الثمر خيرنا وهو منا	إن فقد الكرام في القلب باق
سرقوه منا وأبأوه الشم	فعندى عقوبة السراقى
سوف أرميهم بشعث ومرد	فوق جرد مسومات عتاق
فإذا ما الحروب شابت فكانت	مهجات النفوس عند التراقى
واسدات وأظلمت وتظلت	لمتاح وقصت عن ساقى
ألقحوا نارها وشبوا لظاهها	برماح مسنونة الأرواقى

(١) الجبلان: ثنية الجبل، وإذا أطلق هذا اللفظ فإنما يُراد به جبلا طيء: أجاً وسلماً. انظر: معجم البلدان «جبلان» (١٠٢/٢) وبلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصفهاني بتحقيق حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٥٨.

(٢) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٢٣، ٢٢ والأبيات على وزن (الخفيف).

(٣) سواد العراق: المقصود بها ديار بكر وتغلب وهي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

ليس حيّ مفاخر لرجالي أو مجار لهم غداة السياق
وسباً في ملوك قحطان إلا عاش ما عاش في أشد وثاقى
ونلاحظ هنا أن التبع يفخر بقحطان، جد اليمنيين، ثم يشمل قوله عدة أمور
هي:

- الفخر بالملك، وقوته الكبيرة، واعتبار أسر النمر بن عثمان سرقة، وهو كونه
الملك سوف يعاقب اللصوص الذين سرقوه، ونتيجة لذلك سيدهمهم في عُقر
دارهم، سواد العراق بفرسانه الأبطال.

أما ردّ كليب فكان عملاً وقولاً، فإذا كان أسر النمر بن قاسط قد أغضب التبع
واعتبر من أسروه لصوفاً فقد قتله كليب على الفور واشتمل رد كليب نقض
المعاني التي عدّها التبع، فإذا كان التبع يعتبر أسر النمر عملية سرقة فهذا جهل
منه لأن الأمر لم يقف عند الأسر بل تعداه إلى القتل، أما ملكه وقوته، فهم
يملكون قوة أقوى منه وقادرون على سلب الملك عنه، أما التهديد بغزوه سواد
العراق فهذا أمر لا قبل له به. يقول كليب:

غضب التبع اليماني جهلاً	إذ ثوى النمر عندنا في الوثاق
برهة ثم صار بعد قتيلاً	ليس حيّ على المنون بياق
وضربنا مفارق الرأس منه	بحسام يهوي إلى الأعناق
أيها الموعّد الذي ليس يخشى	قد نهيناك عن سواد العراق
أبلغ التبع اليماني أنا	فوق جرد مسومات عتاق
نضرب الهام بالمهند ضرباً	وسنوم العدا وطول السياق
رُبّ ملكٍ متوجّ قد قتلنا	كان ذا عزة عظيم الرواق
فسلبناه ملكه واستبحنا	ملكه لا يقيه من ذاك واق

وقد أدى ذلك إلى اشتعال الموقف بين القائدين (التبع وكليب) ومن ثم أراد التبع القضاء نهائياً على قبائل نزار الشمالية، وفي الوقت نفسه أحست قبائل نزار بالخطر المحدق بها، فالتفت كلها حول راية كليب، والتقى الجمعان في «خزازی»^(١) في معركة فاصلة، انتصرت فيها قبائل نزار على اليمنيين، إذ كثر فيهم القتل والهلاك وأصاب أكابر اليمن وسادة الحيين، وشد كليب بتغلب على حمير وقد صابرت على الموت وكثر القتل فيها، وأسر كليب سبعة من أقبالها^(٢). وكان الأفوه الأودي أحد قادة هذه الحرب، فلما عاد سألته ابنته عن إخوتها فأخبرها بمقتلهم جميعاً، وسألته عن الملوك فأخبرها بقتلهم أيضاً، ثم سألته عن الأقبال من حمير فأجاب بأنهم وقعوا أسرى في يد كليب بن ربيعة وقد عبر عن ذلك شعراً بقوله^(٣):

لَمَّا رَأَتْ بَشْرَى تَغْيِرَ لَوْنَهَا وَمِنْ بَعْدِ بَهْجَتِهِ فَأَقْبَلَ أَحْمَرَا
الْوَتُ بِأَصْبَعِهَا وَقَالَتْ إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِمَّا قَدْ أَرَى مَا قَدَّرَا
إِنِّي ذَوَابَةٌ مَذْجَجٌ وَسَنَامُهَا وَأَنَا الْكَرِيمُ ذَرَى الْقَدِيمَةِ كَرَّرَا
قُولِي لِمَذْجَجٍ عَاوِدُوا لِدُخُولِكُمْ لَوْلَا يُجِيبُوا دَعْوَتِي حَلَبَ الصَّرَا^(٤)

(١) خزاز، بفتح أوله، ويزاي أخرى بعد الألف على وزن فَعَال، جبل لغني، وهو جبل أحمر وله هضبات حجر، وفي أصل خزاز ماء لغني في ناحية منيع، دون أمرة، وفوق عاقل على مسار طريق البصرة إلى المدينة، وقد ذكره عمرو بن كلثوم في قوله:

وَنَحْنُ غَدَاةٌ أَوْقِدَ فِي خَزَازٍ رَفَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرُّافِدِينَا

معجم ما استعجم «خزاز» (٤٩٦/٢).

(٢) القَيْلُ: الملك من ملوك حمير يُنْقَلُ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ يُشَبِّهُهُ، وجمعه أقبال وقيل. وقال ثعلب: الأقبال الملوك من غير أن يخص بها ملوك حمير. اللسان «قيل» (٣٧٦/١١).

(٣) الخمر والشعر في بكر وتغلب ص ٢٧، والأبيات على وزن البحر (الكامل).

(٤) مَذْجَج: ولد مالك بن أدد، وهو مَذْجَج. الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة (د.ت) ص ٣٩٧.

كان الفخار يمانياً متحفظاً وأراه أصبح شامياً مُنَزَّراً
ولعلنا نلاحظ أن الشاعر قد فخر بنفسه، فهو من دُوَاية «مَذْحِج» وسنامها،
لكنه يعترف بالهزيمة التي بدت على ملاحه أمام ابنته واعترف الشاعر بأن الفخر
لم يعد يمانياً قحطانياً بل أصبح شامياً نزارياً هذا هو المعنى الظاهر من المقطعة،
ومن ثم فهي ليست في حاجة إلى الرد من أحد، فالشاعر لم يفتخر بقومه وقوتهم -
كما هو سائد - كما أنه اعترف بذهاب الفخار عن قومه إلى أعدائهم. وبالنظر إلى
الآبيات نلمح إثارة الشاعر لحمية قومه عندما يلومهم على الهزيمة لعلهم يلتفون
حوله، فقد كان الأفوه يروم الرياسة والغزو بقومه لقبائل نزار وهذا ما جعل مرة
بن دُهل سيد بني شيبان آنذاك يرد عليه، ليؤكد له الهزيمة التي اعترف الأفوه
بها. ويذكر حال اليمنيين في وقعة «خزاز» فهم بين قتيل وأسير وأنهم لو عادوا مرة
أخرى إلى القتال فلن يكون حظهم أفضل من هذه الهزيمة، يقول مرة بن دُهل في
رده^(١):

شفت النفوس سيوفنا من مَذْحِجٍ والحَيَّ همدان وذروة حميرا
فالقوم بين مجدلٍ ومصفدٍ بالقَدِ يختارُ الثَّواري بالثَّرا
فغضبتكم لما قتلنا جمعكم وإذا قتلُتم غيركم فيه الزرا
ما انصفت أحكامكم فاستنصفت منها الأسنة والسيوفُ بلا افترا
فردُّ مرة بن دُهل إذن جاء تأكيداً لقول الأفوه الأودى وليس ناقضاً له في
المعنى الظاهر، لكن بالتأمل في المقطعتين لكلا الشاعرين نجد المناقضة مستترة،
فالأول - الأفوه - يريد إثارة الحمية في قومه لمعاودة القتال والثَّار، والآخر - مرة
بن دُهل - يؤكد أن ذلك أمر مُحال.
ومن النقائض الفريدة في هذه الحقبة نقيضة بين قاتل ومقتول، فالقاتلُ

(١) انظر: بكر وتغلب ص ٢٧، والشعر على وزن البحر (الكامل).

ينقض ما قاله القتييل قبيل موته، وذلك نراه عند لبيد بن عنيسة زوج الزهراء أخت كليب بن ربيعة، إذ لطمها وأهانها فقضت ذلك على أخيها كليب، فأمرها بالعودة إلى بيتها، وبينما هو خارج خباء لبيد بن عنيسة سمعه يقول^(١):

طال ليلى فما أحسُّ الهجوعاً أرغب النجم في المغاب عميداً
لحديث مراوحٍ قد أتاني من كليبٍ فزاد عيني سهوداً
نحنُ كُنّا الملوك من سالف الدهر وكُنْتُمْ لنا قديماً عبيداً
فاقبل اليوم ما أتاك به القيلُ وألا تهلكوا هلاك ثموداً
فلما سمع كليب هذا الشعر هتك على لبيد قبته وقتله، ومن ثم نجد ردّ كليب كان فعلاً بقتله لبيد لأن العبيد لا يقتلون الملوك وإنما يقتلهم الأحرار، وقولاً برده عليه فخره بالملك، فهم ملوك أيضاً بسيوفهم وقوتهم:

إن يكن قتلنا الملوك خطاءً أو صواباً فقد قتلنا لبيداً
وجعلنا مع الملوك ملوكاً بجيادٍ حُرْدٍ تقلُّ الحديداً
نشعر الحرب بالذي يحلف لنا س به قومكم ونذكي الوقوداً
أو تردوا لنا الإتاوة والفيحاء ولا نجعل الحروب وعيداً
إن تلمني عجائز من نزارٍ فأراني فيما فعلت مجيداً

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ١٦ وهي على وزن البحر (الخفيف)، ورد كليب أيضاً في شعراء النصرانية (١٥٢/٢).

٢- النقائض قبيل مقتل كليب ٤٩٤م^(١):

ونقصد بها النقائض التي قِيلَتْ قُبِيلَ مقتل كليب، وكلها كانت بين كليب بن ربيعة وجساس بن مرة عدا واحدة كانت بين المهلهل عدى بن ربيعة وأخيه كليب.

وتبدأ النقائض مع بروز الفتنة بين بكر وتغلب وإن شئت بين كُليب بن ربيعة الملك وصهره جساس بن مرة بسبب ناقة البسوس بنت مُنْقَذ التميمية، خالة جساس، إذ نزلت ضيفةً عليه وفي جواره ومعها ناقتها «سراب» التي أطلققتها للرعي مع إبل جساس، وكانت إبل جساس مختلطةً بإبل زوج أخته الجليلة بنت مرة، كُليب بن ربيعة، وخرج كليب ومعه جساس يوماً يتفقدان الإبل، فرأى كليب ناقة البسوس فأنكرها وقال لجساس: لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى، فقال جساس: لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها. فقال كليب: لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها! فقال جساس: لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رُحمي في ضلبيك ثم تفرقا^(٢).

وقد أثرنا ذكر هذه المقدمة النثرية لأنها - إن جاز لنا التعبير - نقيضة نثرية^(٣) دارت بين كُليب وجساس قبل النقائض الشعرية بينهما، فكليب يأمر بأن الناقة لا تعود إلى الحمى ثانية، وجساس يرد قوله بتصميمه على عودتها، فيصعد كليب من الموقف ويعلن أنه سيضع سهمه في ضرع الناقة حال عودتها إلى الحمى، فيقابل جساس هذا التصعيد بتصعيد أشد بأن الناقة في هذه الحالة تصبح مُعادلةً

(١) حدّد الأب لويس شيخو سنة مقتل كليب بأنها سنة ٤٩٤م، وهذا التاريخ وإن كان غير دقيق إلا أن مقتله لا يسبق ذلك أو يتأخر عليه كثيراً. انظر: شعر النصرانية (١٥١/٢).

(٢) شعراء النصرانية (١٥٤/٢) وأخبار المراقسة ص ٢٧٠.

(٣) انظر: تاريخ النقائض ص ٤٥.

لكليب نفسه، فإن أصابها كليبٌ بالسهم فسوف يدق جَسَّاسٌ ضَلْبَهُ بالرمح. وهنا ينتقل كليبٌ إلى التهديد بالشعر في أربع مقطعات كلها من بحر الرجز، وجساس يرد عليه في أربع مقطعات مماثلة من بحر الرجز أيضاً^(١)، وكلما استخدم كليب قافية يعينها رد عليه جساس بالقافية نفسها، وأولى هذه المقطعات هي قول كليب!

إُنْى وَرَبُّ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ
وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ذِي السَّتُورِ
لَتُنْ رَعَتْ فِي الْبَلَدِ الْمُحْجُورِ
وَأَفْزَعَتْ جَارِي مِنَ الطُّيُورِ
نَائِيَةً فِي وَكْرِهَا الْمُخْمُورِ
لَأَهْتَكِنَ الظُّرْعَ بِالْمَطْرُورِ

فكليب يقسم بأن الناقة لو عادت لتفزع الطيور التي في جواره ليقتلنها، وهنا يرد عليه جساسٌ بقسم مماثل ويتهديدُ مماثلٍ يقول جساس^(٢):

إُنْى وَرَبُّ الشَّاعِرِ الْغُرُورِ
وَبَاعِثِ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ
وَعَالِمِ الْمَكْنُونِ فِي الضُّمِيرِ
إِنْ رُمْتَ مِنْهَا مَغْفَرُ الْجُرُورِ
لَأَتْبِىنَ وَثْبَةً الْمَغِيرِ
الذَّيْبِ أَوْ ذِي اللَّبْدَةِ الْهَضُورِ
بِضَارِمِ ذِي فَنَنِ مَشْهُورِ

(١) انظر هذه المقطعات في: كتاب بكر وتغلب ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) بكر وتغلب ص ٣٢٠، ٣٢١، وشعراء النصرانية (٢٤٩/٣).

وهذا التهديد من جساس لا يُمكن لملك العرب كليب بن ربيعة أن يقبله، فهو الذي اجتمعت نزار كلُّها عليه، وولوه الملك، وأصبح يُضرب به المثل في العز والكبرياء^(١) ومن ثم نجده يردُّ عليه بقوة وحسم، فهو الذي يحمي الناس جميعاً ويجيرهم من الفردين حتى أقساس، وكل الناس تدين له بالولاء والطاعة، فهل يُحيط بجساس أسدٌ هصورٌ وهو لا يعرف:

لقد حُمِيتُ من جميع النَّاسِ
من بين أفراد إلى أقساس^(٢)
أمنعه فكيف من جساس
يُحيطه اللَّيْتُ أبى الفراسِ
جهنمُ المُحْيَا سابك الأضراسِ
قصاص أهبط في المراسِ

وإذا كان كليب يعتزُّ في قوله بقوته، فإن جساساً يقلب عليه المعنى، لأن هذه القوة التي يتشددُّ بها كليب إنما استمدّها من قبيلة بكر قوم جساس دون غيرهم من الناس فلا يحقُّ له الفخر بهذه القوة، فهي للجميع وليست له:

بنا حُمِيتُ جانبني أقساس
إلى أبانين إلى أوطاس
بَحْيٍ بَكْرٍ دُونِ باقى النَّاسِ
فإن تغدُ بنا إلى المراسِ
علِمْتُ أن العزُّ فوق الرّاسِ

(١) المثل جاء في مجمع الأمثال للميداني (٥٠/٢) وهو: أعزُّ من كليب وائل، وتفصيله هناك انظر، وكذلك في المستقصى (٢٤٦/١).

(٢) أقراد: جبال في ديار بني سليم بالحجاز. معجم البلدان «الفرد» (٢٤٧/٤)، وأقساس: قرية بالكوفة، معجم البلدان «أقساس» (٢٣٦/١).

وهنا يُعلنُ كليبٌ أنَّ وقتَ الكلام قد انتهى، وكثرةُ الأقوال تدل على الخطأ،
الذي لا يجب أن يتصف به، فبالعمل وحده يُكتَبُ العزُّ والشرف:

إنَّ الكلامَ فشل دُون العمل
وشرُّ سهمٍ طارَ في الكهفِ الفشل
والشيء ما أضمنه ما لم أقل
وشر ما قال امرؤ ما لم ينل
وكثرةُ الأقوال في الناس خطل

ويأخذ جَسَّاسٌ منه المعنى وينقضه عليه، فهو الذي إذا قال فعل وليس غيره،
ويريد جَسَّاس أن يؤكد أن صفات العزم والشدة وقوة البأس التي يعلنها كليبٌ
هي صفاته هو وكان كليبًا يتحدث عن صفات جَسَّاس وخصاله، لذا نجده
يستخدم قولَ كليبٍ في الرد عليه «وشر ما قال امرؤ ما لم ينل»:
فبلغ جَسَّاس قوله فأجابه:

أنا الذي فاعلم إذا قال فعل
وثمَّ حي يثبتُ القولُ العمل
لو لم يكن قولي وفعلي لم أقل
وشر ما قال امرؤ ما لم ينل

ويسفِّه كليبٌ كلامَ جَسَّاسٍ، فهو من سقط الكلام، وأن همَّته أقل من قوله،
لأنَّ الناس لا تعرف إلا الحقائق التي تشهد بها، وليس لجَسَّاسٍ سابق فضل في
نزال أو قتال:

قد قال والقول هذار زاهق
إلا الذي كانت له حقائق

ويقلبُ عليه جَسَّاسُ المعنى، ففي ساحة القتال عندما يشتد وطيسُ المعارك
يُعرفُ الكاذبُ من الصادق وتظهر الحقائقُ جليةً للناس:
عند الزحام يُحمدُ السوابق
وفي الوعيد تُعرفُ الحقائق
والناس بين كاذبٍ وصادق

ويستمرُّ كليبٌ في تهديد جَسَّاس، مُعتبراً القوة هي الرادع الوحيد له، فلا بد أن
يحافظ على المجد والسُودد، وأن الممالك تنهارُ عندما تخالف الرعيةُ ملوكها بسفه
وصلفٍ مثل جَسَّاس، ومن ثم فلا بد من الضرب بيد من حديد، يقول^(١):
سأركبُ قطفاً للقرين بما أتى واقطعُ عنه قُطْبَهَا فأذودُها
مخافةً قولي إن أخالفُ فغلّه وسنةً عزّاً أن يميلَ عمودُها
إذا ما الموالى خالفتُ من سفاهةٍ مواليتها تاهتُ وضلَّ حدودُها
ويردُّ جَسَّاسٌ على كُليبٍ، وينقضُ قوله، فهو يعترفُ بعزِّ كُليب وقوته ومنعته،
لكن كل هذه المفاخر إنما وصل إليها بمساندة بني بكر قوم جَسَّاس، ويؤكد
جَسَّاس على جهل كُليب بطبيعة بني بكر لأن الحلم والجود والعدل أنفع له من
القوة الغاشمة، يقول جَسَّاس:

بني لك أفضى العزِّ حتَّى تشرفْتَ بيوتك فيه واشمخرتُ عمودُها
فأصبحتُ ترميها بنبلٍ بنا استوى مغارسها فينا وجَدٌ جديدُها
تجرَّدتُ من جهلٍ ليكرٍ وإنما أخللتُ في دار الموالى جُدودُها
على غيرِ ما سوءٍ سوى أن تظنَّه فيأتيك فيها أيَّد لا يؤدُّها
فإن تباع الجود يعقبُ راحةً بترحة يوم ليسَ ينجو مريدُها
وعندما وصلتُ الأمور إلى هذا الحد بين جَسَّاس وكُليب، وأصبحتُ المواجهةُ

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٢٣، والأبيات من البحر الطويل.

أمرًا حتميًا، نجد المهلهل، أخا كليب، يحاول تضيق الشق بين الطرفين، فهو يذكر أخاه بقرابته بجساس بن مرة، فهو من أبناء عمومته وأحد رعاياه، والدخول معه في هذه التزهات وتطوراتها - حتى لو انتصر كليب - لا تعد انتصارًا لأن ذلك ليس من حميد السجايا وكرم الخلق الذي عرفته العرب وتغنّت به، كما أن قطع الرحم بين أبناء العمومة أمر خطير في بيئة بنيّت على التعصب القبلي، ويجذر المهلهل أخاه من أنه إذا ظل على بغيه وتسلبه وقطع رحمه فإن ذلك سيوجب عليه اللوم حتى آخر الدهر، ومن ثم يجب أن يكظم غيظه ويؤخر الشر بينه وبين صهره وابن عمه ولكن كليبًا غضب من أخيه وقال له: إنما أنت زير النساء، والله لئن قُتلت ما أخذت بدمي إلا اللبن، فقال المهلهل^(١):

أخ وحريم سيء إن قطعته وسنة عز هدمها لك هادم
وقفت على ثنتين أحدهما دم وحرب بها منا تجر الغلاصم
ومنقصة في هذه ومذلة وشر شمر بينكم متفاقم
فما أنت إلا بين هاتين غاوص وكلتا همتا بحر وذو الغي نادم
وكل حميم أو أخ ذي قرابة لك اليوم حتى آخر الدهر لائم
فأخز فإن الشر نخس أن أخزا وقدم فإن الحز للغيط كاظم
ويأتي رد كليب ناقضًا لمعنى الحلم وكظم الغيظ ومراعاة صلة القربى وكل ما طلبه منه أخوه، فهو ماضٍ فيما عزم عليه حتى لو شابّت الرؤوس وذلك حتى لا يهدم جساس بتجرؤه عليه عزه الذي بناه:

سأفضي له قدمًا ولو شاب في الذي أهم به فيما صنعت المقادم
مخافة قول أن يخالف فعله وأن يهدم العز المشيد هادم

(١) الأبيات والرد عليها في شعراء النصرانية (١٦١/٢)، وهي على وزن البحر الطويل.

٢- النقائض في مقتل كليب وحرب البسوس:

منذ اليوم الأول لمقتل كليب، نلمح النقائض في شعر الفريقين المتقابلين، بكر وتغلب، أو بين شاعرين من هذا الفريق أو ذاك، فبعد أن طعن جساس كليباً وعاد إلى الحمى مذعوراً، وسأله أبوه مرة: ما وراءك يا بُني؟ قال: طَعَنْتُ طَعْنَةً لَتَشْغَلَنَّ شَبِيخَ وَائِلَ رَقْصًا. قال: أَقْتَلْتَ كُليبًا. قال: إي وأنصاب وائل وأبي قتل. قال: إذن نسلمك بجريرتك، ونريق دمك في صلاح العشيرة، فلا أنا منك ولا أنت مني، فوالله لبئس ما فعلت - فَرَّقْتَ جماعتك، وقتلت سيدها ورئيسها في شاربٍ من الإبل، والله لا تجتمع وائلٌ بعدها أبداً ولا يقوم لها عماد في العرب^(١) وهنا يُخاطبُ جساسُ أباه، ويطلبُ منه المؤازرة والحماية ولا يليق به أن يتخلَّى عن ابنه، مهما كانت الأسبابُ وعليه الاستعداد للمعركة القادمة فليس هذا وقتُ اللوم والعتاب، فالمعركة قادمة لا محالة وسوف تكون حامية الوطيس، ثم يبرر جساس فعلته، فهي رد فعل لبغي كليب وظلمه، وأن قتلَه جزاءٌ طبيعيٌّ لما قدَّمَتْ يداه^(٢):

تَأْهَبُ عَنْكَ أَهْبَةٌ ذَى كَفَاحٍ	فَإِنَّ الْأَمْرَ جَلَّ عَنْ التَّلَاحِ
فَإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ حَرْبًا	يَغْصُ الشَّيْخُ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ
تَسْفُرُ نَارَهَا وَهَجًا وَجَاءَتْ	إِذَا خَمِدَتْ كَنِيرَانِ الْفُضَّاحِ
وَمَا تَنْفُكُ نَائِحَةً تُعْزَى	لَمَّا نَدَبَتْ وَتَعْلَنُ بِالنَّوَّاحِ
تَعَدَّتْ تَغْلِبُ ظُلُمًا عَلَيْنَا	بَلَا جُزْمٍ يُغْدُ وَلَا جُنَاحِ
سَوَى كُلِّ عَوَى فِي بَطْنِ قَاعٍ	لِيَمْنَعَ جَنِيَّةَ الْقَاعِ الْمُبَاحِ

(١) انظر: شعراء النصرانية (١٥٥/٢).

(٢) السابق (٢٤٧/٣) وبكر وتغلب ص ٣٩، ٣٨.

فلَمَّا أَنْ رَأَيْنَا اسْتَبْنَا عَقَابُ الْبَغْيِ رَافِعَةُ الْجَنَاحِ
 صرَفْتُ إِلَيْهِ نَحْسًا يَوْمَ سُوءٍ لَهُ كَأْسٌ مِنَ الْمَوْتِ الذَّبَاحِ
 تَنَكَّلْ دَانِيَاكَ الْبَغْيُ قَوْمًا وَتَدْعُو آخِرِينَ إِلَى الصَّلَاحِ
 ذَرِنِي قَدْ طَرَبْتُ وَحَانَ مَنِّي طَرَادُ الْخَيْلِ عَارِضَةُ الرِّمَاحِ
 وَلَا لِي هِمَّةٌ أَرْجُو حَسَاها سَوَى الْخَطْئِي وَالْفَرَسِ الْوَقَاحِ
 ويتدخل قادة البكرين ويطلبون من مُرَّة التوقف عن هذا الكلام، لأن بنى
 بكر عندما يسمعون ذلك سيخذلون جساسًا وأباه معًا، فأدرك مُرَّة ما هو فيه من
 مأزق، فأمسك عن الكلام وغمَسَ يَدَهُ مع ابنه في الحرب، وأخذ يردُّ على شعر
 جساس السابق الذي يؤكد فيه أنه جنى على أبيه هذه الحرب وأبوه مرة يعترف
 بذلك في رده، ويؤكد أنه ليس بالجبان الذى يفر من الحرب ولا يجمى ولده، فهو
 رجل حرب شديد البأس، وأن عليهم أن يعيشوا أعزَّة أو يموتوا، فحياة الذَّلِّ قد
 ولَّتْ عنهم إلى غير رجعة:

فَبِإِنْ تَلَّكَ يَا بُنَيَّ جَنِيَتْ حَرْبًا فَلَا وَكَلَّ وَلَا رُثُ السَّلَاحِ
 وَلَكِنِّي عَلَى الْعَلَاتِ أَجْرِي إِلَى الْمَوْتِ الْمَحِيطِ مَعَ الصُّبَاحِ
 وَإِنِّي حِينَ تَشْتَجِرُ الْعَوَالِي أُعِيدُ الرُّمَحَ فِي أَثَرِ الْجِرَاحِ
 شَدِيدُ الْبَاسِ لَيْسَ بِذِي عِيَاءٍ وَلَكِنِّي أَبْوؤُ إِلَى الْفَلَاحِ
 سَأَلْبَسُ ثَوْبَهَا وَأَذْبُ عَنْهَا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَالصُّفَاحِ
 فَمَا يَبْقَى لِعِزَّتِهِ ذَلِيلٌ فَيَمْنَعُهُ مِنَ الْقَدْرِ الْمُتَاحِ
 وَأَنْفَى الذَّلِّ عَنْ قَوْمٍ يَقُولُوا طَحَا نَوْنُ الْمَنِيَّةِ فِي الطَّوَاحِ
 وَأَجْزَى مِنْ حَيَاةِ الذَّلِّ مَوْتُ وَبَعْضُ الْعَارِ مَا يَمْحُوهُ مَاحِ
 ولعلنا نلاحظ هنا أن المقطعتين السابقتين تشتركان في البحر العروضي والقافية

لكن الظاهر من رد مرة لا ينقض قول جساس بل يؤكد، ولعل الموقف هنا هو الذى اقتضى ذلك، لأن مرة لو نقض مقولة ابنه لانقض البكريون من حولهما وتركوهما نهبا لسيوف تغلب، أو ربما - وهو الأرجح عندي - أن مرة ينقض معنى خفيا ورد في شعر جساس، وهو خوف مرة من الحرب ولقاء تغلب، صحيح أن جساسا لم يصرح بذلك مباشرة لكن المعنى وارد، ومن ثم كان على مرة أن ينقض هذا المعنى وينفى عن نفسه الجبن والضعف والخوف.

وتتحول النقائص بعد مقتل كليب إلى سجال متبادل بين قاتله جساس بن مرة وأخي كليب المهلهل الذى يطلب بثاره، وتبدأ هذه النقائص عندما وقف المهلهل يرثى كليباً بعد دفنه مباشرة فى قصيدة طويلة^(١) يبين فيها حزنه الجم، ودموعه الغزيرة على فقد أخيه، ويتساءل فى حسرة عن حال قبائل (نزار)، كلها بعد رحيل فارسها، ويؤكد المهلهل أنه لا يستطيع السيطرة على دموعه، ثم ينتقل إلى تهديد قاتل أخيه الذى فر من الديار جيباً وذعراً، ويتوعد قبيلة بكر كلها بالانتقام يقول^(٢):

أهـاج قـذاء عـيـني الإـذكـار	هـدوا، فالـدمـوع لها انـحدار
وصار اللـيل مشـتملاً عليـنا	كأن اللـيل ليس له نهـار
دعوتك يا كـليب فلم تجـبني	وكيف يجيبني البـلد القـفار
أجـبني يا كـليب خـلاك دم	لقد فـجعت بفارسـها نـزار
سقاك الغـيث إنك كـنت غـيثا	ويـسرا حين يـلتمس الـيسار
أبـت عيناى بـعدك أن تـكفأ	كأن قـنا القـناد لها شـفار

(١) انظر: القصيدة كاملة فى شعراء النصرانية (١٦٣/٢).

(٢) الشعر والرد عليه فى كتاب بكر وتغلب ص ٤١-٤٤، وشعر المهلهل فى شعراء النصرانية (١٦٣/٢، ١٦٤) والشعر والرد عليه على وزن البحر الوافر.

اتغدو يا كليب معى إذا ما جبان القوم أنجأه الفرار
 اتغدو يا كليب معى إذا ما فسيل القوم شط به المزار
 خذ العهد الأكيد على غمري بتركي كل ما حوت الديار
 وهجر الغانيات وشرب كأس ولئسى جبة لا تستعار
 ولست بخالغ درعي وسيفي إلى أن يخالع الليل النهار
 ولا أن تبسّد سرة بكر فلا يبقى لها أبداً آثار
 ويرد حساس عليه محاولاً نقض المعاني التي اشتملت عليها أبياته، فأما عن
 بكاء المهلهل على أخيه وحزنه عليه فإن حساساً هو الآخر يعترف بالخسارة
 الفادحة لمقتل كليب ويبكى عليه هو وقومه مثل بكاء المهلهل، فليس بين بنى
 بكر من ينكر مكانة كليب، لكنه بغى عليهم ولا بد أن تدور على الباغي الدوائر،
 وقتله كان جزاء تطاوله على أبناء عمومته بنى بكر، أما عن فرار حساس فيؤكد
 حساس أنه مع الموت دائماً ويؤمن أن الفرار لا يمكن أن يُنجي من الموت، أما عن
 تهديد المهلهل فهم مستعدون له:
 ألا أبلغ مهلهل ما لدينا فأذمّنا كأذمّمه غزار
 يميننا وإنل الباغي علينا وكلّ ليس منه به اضطبار
 وكلّ قد لقى ما قد لقينا وشرّ العيش ما فيه العيار
 ونحن مع المنايا كل يوم ولا يُنجى من الموت الفرار
 فاقسم إن بقيت لتكرهني إذا طارت عن العنس الشفار
 ويظلّ المهلهل يرثى أخاه، فالديار بعد رحيل كليب أصبحت قفراً وأنه لم يعد
 يستطيع تحمل هذه المصيبة، فلا خير في الدينا بعد رحيل كليب، فهو العز
 والكرم والحلم والجود، فليت السماء على من تحتها وقعت، أو جالت الأرض

بمن عليها من الناس، فحياة كليب - من وجهة نظر المهلهل - تساوى حياة من على الأرض جميعاً ومن ثم فإنه يستعد للحرب استعداد الفارس المقاتل، من تهيئة للخيول والرماح التي سوف تغوص في دماء بني بكر، وأن الحرب مستمرة والصلح محال^(١):

الدَّارُ قَفَرٌ عفاها بعد ساكنها	بالريح بعد ارتحال الحي بما فيها
وغالها الدهرُ إنَّ الدهرُ ذو غيلٍ	فأصبحت بلقفاً قفراً مغانيها
كليبُ لا خير في الدينا ومن فيها	إن أنت خلَّيتَها فيمن يُخلِّيها
كليبُ أَى فتى عزٍّ ومكرمةٍ	تحت الشَّفاسفِ إذ يعلوك سافيتها
نعى النَّعَاةُ كليباً لي فقلتُ لهم	مادتُ بنا الأرضُ أم مادتُ رواسيها
لئتُ السَّماءَ على من تحتها وقعتُ	وحالتُ الأرضُ فانجابتُ بمن فيها
والخيلُ قد أثبتتُ قومي حوافرها	واستوجبتُ بعد أنصالٍ دواميتها
نرمي الرماح بأيدينا فنوردها	بيضا ونصدرها خمرًا أعاليها
لا أصلح الله منّا من يُصالحكم	ما لاحت الشمسُ في أعلى مجاريها

ويأتى رد جناس ناقضاً المعنى الذى صاغه المهلهل، فإذا كان المهلهل يهدد بشن حرب ضروس على بني بكر لا تبقى ولا تزر فجناس يقلب عليه هذا التهديد لأنه قتل كليباً - وهو الملك القوى المهاب ومضرب المثل في العز والسؤدد - وجعله معادلاً لناقة جارته، وكأن لسان حال جناس يقول: قتلنا الملك بناقة فما بالكم عندما تقتلون رجلاً منّا:

بَلِّغْ مهلهل عن بكرٍ مُغلغلةً	مَنْتُكَ نفسُكَ من غيٍّ أمانيتها
تبيكي كليباً وقد شالت نعامته	حقاً وتضميرُ أشياء تُرجيها

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٤٤-٤٦، وشعر المهلهل في شعراء النصرانية (١٦٧/٢، ١٦٧) ورد جناس في شعراء النصرانية أيضاً (٢٥٠/٣)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر البسيط.

فاضِرْ لِبَكْرِ فَإِنْ الْحَرْبُ قَدْ لَقِحتُ وَعَزْ نَفْسَكَ عَمَّنْ لَا يُو إِلِهَا
فَقَدْ قَتَلْنَا كَلِيبًا لَمْ تُبَالِ بِهِ بَنَابِ جَارٍ وَدُونِ الْقَتْلِ يَكْفِيهَا
نَحْمِي الذَّمَّارَ وَنَحْمِي كُلَّ أَرْمَلَةٍ حَقًّا وَنَدْفَعُ عَنْهَا مِنْ يُعَادِيهَا
وَالْجَارُ نُؤْمِنُهُ إِنْ حُلَّ سَاحَتَنَا وَالْعَارُ تَمْنَعُهُ الْأَشْرَافُ وَالْيَهَا
وقريبٌ من هذا ما نلّمحه في قصيدة أخرى للمهلhel إذ نجده يذكر أخاه ويذكر
غدر بني شيبان، ويُعرض قومه على الحرب، وكانت هذه القصيدة تسميها العربُ
الداهية في الجاهلية^(١)، وقد أكد المهلهل في هذه القصيدة على عدة أمور، منها:
إن جساسًا ليس ندًا لكليب كي يقتله، وأنه كمن ركب البحر ولم يُعد له عُدتَه
ومن ثم يكون مصيره الغرق لا محالة، وأخذ المهلهل يعدد خصال أخيه وفضائله
لا سيما يوم خزازى الذى انتصر فيه كليب على جموع اليمن وعلى ذلك ليس أمام
البكرين إلا أن يردوا أخاه كليبًا حيًّا أو يموتوا مثله^(٢)؛

يَا أَيُّهَا الْجَانِي عَلَى قَوْمِهِ مَا لَمْ يَكُنْ كَانَ لَهُ بِالْخَلِيقِ
جَنَابَةً لَمْ يَدْرِ مَا كُنْهَهَا جَانٍ وَلَمْ يُضْبَحْ لَهَا بِالْمُطِيقِ
إِنْ رَكُوبَ الْبُخْرِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَا مَضْدَرٍ مِنْ تَهْلِكَاتِ الْغَرِيقِ
غَدًا نُسَاقِي فَاعْلَمُوا بَيْنَنَا أَرْمَاحَنَا مِنْ عَاتِكَ كَالرَّحِيقِ
لَيْسَ أَخَوَكُم تَارِكًا وَثَرَهُ وَلَيْسَ عَنْ تَطْلَافِكُم بِالْمُفِيقِ
ويرد جساس ويقلب تهديده عليه، إذ يؤكد له أن الذين قتلوا كليبًا فلأنهم
قادرون على قتل من هم دونه:

(١) انظر: بكر وتغلب ص ٥٢.

(٢) الأبيات مختارة من قصيدة في جبهة أشعار العرب، ص ١١٠، وكتاب بكر وتغلب، ص ٥٥، وشعراء
النصرانية (١٧٢/٢-١٧٤) وهي على وزن البحر السريع، ورد جساس على وزن البحر السريع أيضًا وهو في
كتاب بكر وتغلب ص ٥٥، وشعراء النصرانية (٢٥١-٢٥٠/٢).

إِنَّا عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَادِثٍ
 قَدْ جَزَيْتُ تَغْلِبُ أَرْمَاحِنَا
 لَمْ يَنْهَهُمْ ذَلِكَ عَنْ بَغْيِهِمْ
 وَأَسْغَرُوا لِلْحَرْبِ نِيرَانَهَا
 أَلَيْسَ مَنْ أَرَادَى كَلِيبًا لِمَنْ
 مِنْ شَرِّ الْعَدَوَانِ فِي وَائِلٍ
 قَدْ كَانَ مِنْكُمْ حَادِثٌ دُقْتُكُمْ
 بِدَائِكُمْ بِالظُّلْمِ فِي قَوْمِكُمْ
 وَالْحَوْضُ ظُلُمٌ لَيْسَ يُسْقَى بِهِ
 فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَارْكُبُوهَا بِمَا
 وَالْأَمْرُ نَفْسُهُ يَتَكَرَّرُ بَيْنَ الْمَهْلَلِ وَالْفَنْدِ الزَّمَانِي، إِذْ يَذْكُرُ الْمَهْلَلُ جَرِيمَةَ بَنِي
 ذُهْلَ بِقَتْلِهِمْ كَلِيبًا الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَتَّبِعُ الْمَهْلَلُ ذَلِكَ بِالْتِهَادِ
 وَالْوَعْدِ لِأَنَّهُ سَيَقْتُلُهُمْ جَمِيعًا وَلَنْ يَتْرَكَ مِنْهُمْ عَدُوًّا أَوْ صَدِيقًا^(١) :
 يَا بَنِي ذُهْلَ لَقَدْ هَيَّجْتُمُوا لِبَنِي بَكْرِ حُرُوبًا كَالْحَرِيقِ
 وَبَعَثْتُمْ غَارَةً فِي جَارِكُمْ ذَاتَ أَفْنَانٍ وَرِيحٍ وَحَرِيقِ
 مَلِكٌ يَقْدُمُهُ رَجْرَاجَةٌ مِثْلُ ذُرِّ الشَّمْسِ قُدَّامَ الشَّرُوقِ
 ثُمَّ لَا يُبْقَى عَلَى ذِي لَمَّةٍ بَعْدَهُ مِنْكُمْ عَدُوٌّ أَوْ صَدِيقِ
 وَيَأْتِي رَدَّ الْفَنْدِ الزَّمَانِي نَاقِضًا مَعَانِيَ الْمَهْلَلِ الَّتِي سَاقَهَا، فَالْمَلِكُ كَلِيبُ الَّذِي
 تَحْدُثُ عَنْهُ الْمَهْلَلُ قَدَّمَ أَسْبَابَ قَتْلِهِ حِينَ بَغَى وَتَجَبَّرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ الَّذِي وَضَعَ نَفْسَهُ
 مَوْضِعَ التَّهْلُكَةِ، وَلَمْ يَرَعْ حُرْمَةَ جَارٍ وَلَمْ يَرْحَمْ أَبْنَاءَ عَمُومَتِهِ الَّذِينَ سَوَّدُوهُ عَلَيْهِمْ،

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٥٦، ٥٥ وهما على وزن بحر الرمل.

ومن ثم يكون قتله حقًا، فجساس رفع عن أعناقهم غبار الذل الذي أذاقهم كليب إياد:

ليس يُغْنِي القولُ إلا لأمري صادق بالقول يومًا أو مُطيق
إن من أورد ضغبا نفسه هُوَّة ذات أزوارٍ ومضييق
لاحق تغلب في عدوانه باديا في الظلم فينا والفسوق
من رئيس لم يراقب إذ غدا حُرمة الجار ولا حق الرفيق
رفض القوم ولم يرحمهم ورمنا رمية المولى العثوق
وكان الحارث بن عباد قد اعتزل الحرب ولم يشهدها، واستعظم قتل كليب لسؤدده في ناقة من الإبل، ومن ثم نزع سنان رحمه، ووتر قوسه وقال لبني شيبان: لقد ظلمتم قومكم وقتلتم سيدكم وهدمتم عزكم وترعتم ملككم، فوالله لا نساعدكم^(١).

فلما قُتل جساس ظن الجميع أن المهلهل قد أدرك ثأره وأن الحرب قد انتهت إلا أن المهلهل قد أسرف في القتل، فأرسل الحارث بن عباد ابنه بُجيرا إلى المهلهل وكتب معه: إنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر، وقد أرسلت ابني إليك، فإما قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيين وإما أطلقته وأصلحت ذات البين فقد مضى من الحيين في هذه الحروب من كان بقاءه خيرا لنا ولكم. وعندما قرأ المهلهل الرسالة قتل بُجيرا ولم يستمع لنصيحة امرئ القيس بن أيان، وقال عند ما قتله، بؤ بشسع نعل كليب، وأرسل رأسه إلى قومه.

ولما بلغ الحارث بن عباد قتل بُجير قال: نعم الغلام أصلح بين ابني وائل وباء

(١) انظر: شعراء النصرانية (١٦٨، ١٦٩، ١٧٦).

بكلّيب، فقال له قومه إن مهلهلاً قال له: بؤ بشسع نعل كلّيب فغضب الحارث ونهض للقتال وركب فرسه النعامة.

وهنا يدخل الحارث بن عباد غمار المعارك والنقائض معاً، غير أنّ النقائض بين الحارث بن عباد والمهلهل تأخذ شكلاً آخر غير ما ألفنا، فقد كانت النقائض السابقة بين قاتل (جساس) ومعه قومه (بكر بن وائل) من جهة وبين المهلهل عدى بن ربيعة طالب الثأر من جهة أخرى أما الآن فالحارث بن عباد يطلب الثأر لابنه القتيل ظلماً ويرى أن يقتل به المهلهل وتغلباً شفاءً لنفسه، وعلى الطرف الآخر مازال المهلهل يتوعد بني بكر ثأراً لأخيه القتيل، فنحن أمام مؤتورين إذاً، لذلك نجد الحارث يرثى ولده الذي لا نظير له بين شباب العرب ويؤكد على أنه قُتِلَ ظُلْماً، فهو لم يُقتل في ساحة قتال ونزال ولم يُعطَ فرصة للدفاع عن نفسه، كما أنه كان مُعتزلاً الحرب مع أبيه الحارث ولم يقدم أسباباً تؤدي إلى قتله ومن ثم يحذر الحارث بأنه سوف يملأ الصحراء من رؤوس تغلب^(١):

يا بُجَيْرَ الخِيراتِ لا ضَلَحَ حَتَّى	نَمَلَأَ البَيْدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجالِ
وَتَقَرَّ العِيونُ بَعْدَ بُكاها	حِينَ تَسْقِي الدِّماءَ صُدُورَ العِوالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُناتِها عَليمُ الله	وَأَنْسى لِحُرِّها اليَومَ صالِ
قَدْ تَجَنَّبْتُ وائِلاً كَي يُفِيقُوا	فَأَبَتْ تَغْلِبُ عَلَيَّ اعْتِزالي
وَأَشابُوا ذُؤابتي بِبُجَيرِ	إِنَّ قَتْلَ الكَريمِ بالشُّسَعِ غالِ
يا بَنِي تَغْلِبِ خُذُوا الجِذْرَ إِنّا	قَدْ شَرِينا بِكَاسِ مَوْتِ زُلالِ
يا بَنِي تَغْلِبِ قَتَلْتُم قَتِيلاً	ما سَمَعنا بِمِثْلِهِ في الخِوالِ
ويأتي رد المهلهل محاولاً نقض المعاني التي ساقها الحارث، أما عن قتل بُجير	

(١) هذه الأبيات والرد عليها مختارة من قصيدتين كبيرتين للحارث بن عباد والمهلهل في كتاب بكر وتغلب ص ٦٨-٦٩، وهما في شعراء النصرانية (٢٧١/٣) وهما على وزن البحر الخفيف.

ظُلُمًا فالمهلهل يراه حقًا لأن بني بكر قتلوا كليبًا وأنه سيقتلُ بأخيه سادة بني بكر حتى ولو كانوا ملوكًا. أما أن يجيرًا قد قُتِلَ بشسع نعل كليب فكل أشرف بكر يعادلون شسع النعل:

يا كليب الخيرات لا ضلح حتى أسكن اللحد في الضريح المهال
كيف ضبري وقد قتلتم كليبًا وسعيتم بقتله في الخوالي
فلعمري لأقتلن بكليب كل قتل يسمى من الأقبال
فلعمري لأقتلن بكليب كل ذي ضولة بها صوال
صدق الحار^(١) إنا قد قتلنا بقبال النعال جمع الرجال

ثم ينتقل الحارث بن عباد في القصيدة نفسها إلى التهديد الفعلي وإعلان حالة الحرب، فيطلب من صاحبيه أن يقربا فرسه «النعامة» منه، ويكرر الطلب في أبيات متلاحقة وكأنه يذيع في الملاء نبأ مهمًا لا يصح أن يكون أحد في غفلة عنه «قربا مربوط النعامة منى» وهو يكرر هذا الشرط أكثر من أربعين مرة متتالية، وتوشك إشارة الحارث بن عباد أن تكون بقصرها وتكرارها بلاغًا حربيًا يعلن النفير العام - بلغتنا المعاصرة - فعلى كل من يسمعه من قومه أن يلبس جلد النمر فقد هاجت الحرب من جديد^(٢)، ثم يذكر الحارث في الشرط الثاني المتم ل «قربا مربوط النعامة منى» تبريرًا لإعلانه الحرب وإصراره عليها.

ويقابله في الطرف الآخر المهلهل عدى بن ربيعة الذي يكرر هو الآخر «قربا مربوط المشهر منى» مقابل تكرار ابن عباد فهو يعلن الحرب، ويضع المشهر فرسه

(١) الحار: الحارث بن عباد.

(٢) انظر: شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور/ وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٢٠٧) مارس ١٩٩٦م، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

مقابلاً لفرس بن عباد «النعام» ولننظر إلى هذه المقابلة بين الشاعرين فالخارث
بن عباد يرى أنه رجل أفعال لا أقوال مما يؤكد جدية تهديده:
قرباً مربط النعامه مني ليس قولي يُرادُ لكن فعالي
فيرد عليه المهلهل مؤكداً المعنى ولكن لنفسه فهو إن قال فعل، وفعله دائماً
يطابق قوله، أو بمعنى آخر إذا قال شيئاً فإن فعاله تؤكد أنه خصم عنيد:
قرباً مربط المشهر مني إن قولي مطابق لفعالي
ويؤكد الخارث بن عباد على شدة المعركة التي تجعل النساء تنوح على كثرة
القتلى:

قرباً مربط النعامه مني جد نوح النساء بالإعوال
فيقابلة المهلهل بالمعنى نفسه، وأن المعركة عندما يشتد وطيسها فسوف تخرج
النساء من الخدور لشدة الهول:
قرباً مربط المشهر مني سوف تبدون لنا ذوات الرجال
ويعود ابن عباد إلى ذكر ابنه بجير، باكية إياه حزيناً عليه:
قرباً مربط النعامه مني لكريم متوج بالجمال
قرباً مربط النعامه مني لبجير فداه عمى وخالي
فيرد المهلهل عليه المعنى، ويضع كليلاً مقابلاً لابنه:
قرباً مربط النعامه مني لكليب فداه عمى وخالي
ويؤكد ابن عباد على أن قتل بجير قد أشاب رأسه خزنًا عليه:
قرباً مربط النعامه مني شاب رأسي وأنكرتني القوالي
فيقابل المهلهل ذلك بموت كليب الذي أشاب شعره:
قرباً مربط المشهر مني لكليب الذي أشاب قذالي

ويرى ابن عباد أن ليل الحزن على ولده طويل، ويزداد طولاً عندما لم يدرك تأرد
بعد لذلك فهو يحلم بيوم اللقاء عندما يتقابل الجمعان:

قرباً مربط النعامه مني طال ليالي على الليالي الطوال
قرباً مربط النعامه مني لا عتناق الأبطال بالأبطال
فيقابل المهلهل هذا المعنى بإثباته لنفسه، فهو الذي ينتظر يوم اللقاء وهو الذي
طال ليله واسودت أيامه لفقد كليب:

قرباً مربط المشهر مني طال ليالي وأقصرت عذالي
قرباً مربط المشهر مني إن تلاقى رجالهم ورجالي
ويعود الحارث لذكر بؤجر فقتله هو السبب لإعلان الحرب:

قرباً مربط النعامه مني لبؤجر مفكك الأغلال
فيعود المهلهل لذكر المقابل له وهو أخوه كليب:

قرباً مربط المشهر مني لقتيل سفنة ريح الشمال
وبهذا نجد المهلهل قد نقض المعاني التي صاغها الحارث بن عباد أو على الأقل
أعطى المقابل لها.

ويلتقى الفريقان - بكر وتغلب - في «العويرض»، وهو أول يوم يُشارك فيه
الحارث بن عباد، وهو أيضاً أول يوم تنتصر فيه بكر على تغلب في حرب
البسوس، ونجد نمطاً جديداً من النقائص، يتكون من ثلاث قصائد لشاعرين
فقط، فالحارث بن عباد يقول شعراً بعد الواقعة، فيرد عليه المهلهل ناقضاً قوله
بقصيدة، فيرد الحارث ناقضاً قصيدة المهلهل بقصيدة أخرى، والقصائد الثلاث
من بحر الوافر والقافية واحدة فيهم أيضاً. فالحارث يفخر بالنصر الذي تحقق

لبكر، ويُعرَضُ بالمُهلهل، ويؤكد على أن كُليبا لو قام من قبره لعلم أن أخاه شر
 زير، وأنه لو قتل بني تغلب جميعاً بابنه بُجَيْرَ لكان ذلك أمراً يسيراً^(١) :
 فحَامُ مُهْلَهْلٍ لَمَّا التَقَيْنَا وَعَدَدُ حِينَ مَلَّ مِنَ الْهَدِيرِ
 فَلَوْ نَشَرَ الْمَقَابِرَ عَنْ كُلَيْبٍ لَخُبِرَ فِي الْحِفَاطِ بِشَرِّ زِيرِ
 وَلَوْ قُتِلُوا جَمِيعًا فِي بُجَيْرٍ لَكَانُوا فِيهِ كَالشَّيْءِ الْيَسِيرِ
 وَيَرُدُّ الْمُهْلَهْلُ نَاقِضًا قَصِيدَةَ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ، ويؤكد أن القبر لو نُشِرَ عن كُلَيْبٍ
 لعلم أنه الفارسُ الذي يُجندلُ الأبطال، وقرَّ عيناً بما يصنعه في ساحةِ الوغى، فقد
 قتل من الأعداء الكثير، وكل ذلك يدحض «شر زير» التي وصفه بها الحارث بن
 عُباد، يقول المهلهل^(٢) :

وَلَوْ نَشَرَ الْمَقَابِرَ عَنْ كُلَيْبٍ لِأَخْبِرَ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زِيرِ
 وَيَوْمَ الشَّعْثَمِينَ لَقَرَّ غَيْنَا وَكَيْفَ لِقَاءٍ مِنْ تَحْتَ الْقُبُورِ
 أَلَا إِنِّي تَرَكْتُ بَوَارِدَاتٍ يُجَيِّزًا فِي دَمٍ مِثْلِ الْعَبِيرِ
 وَهَمَامٍ بِنِ مَرَّةٍ قَدْ تَرَكْنَا عَلَيْهِ الْقَشْعَمَاتِ مِنَ النَّسُورِ
 هَتَكْتُ بِيُوتَ بَنِي عُبَادٍ وَبَعْضُ الْقَتْلِ أَشْفَى لِلصُّدُورِ
 عَلَى أَنْ لَيْسَ غَدلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا خَافَ الْمَغَارُ مِنَ الْمَغِيرِ
 ويبدو أن المهلهل قد نكأ جرحاً دامياً عند الحارث، إذ فخر بقتله لابنه بُجَيْرَ،
 وسادة من بكر، فجاء ردُّ الحارث فخراً بالنصر يوم «العويرض» وهو ما يعني
 تأكيد المعنى الذي قاله في القصيدة الأولى، أو إصلاح ما نقضه المهلهل^(٣) :

(١) الأبيات من قصيدة في كتاب بكر وتغلب ص ٧٠، ٦٩، وهي على وزن البحر الوافر.
 (٢) الأبيات من قصيدة في بكر وتغلب ص ٧٢، ٧٠، وشعراء النصرانية (١٧٠-١٦٨/٢)، وهي على وزن البحر
 الوافر.
 (٣) الأبيات من قصيدة في بكر وتغلب ص ٧٢، ٧٣.

تَرْكُنَا تَغْلِبًا كَذَهَابِ أَمْسٍ وَأَخْرَجْنَا الْحَسَانَ مِنَ الْخَنُودِ
فَلَوْ نَشَرَ الْمَقَابِرَ عَنْ كُلِّيبٍ لَأَيَّضَرَ بِالذَّنَائِبِ شَرَّ زَيْبٍ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ يُجِيرِ إِذَا اخْتَلَطَ الْقَبِيلُ مَعَ الدُّبَيْرِ
وَفِي يَوْمٍ «قُضَّةٌ» وَهُوَ يَوْمٌ تَحْلَقُ اللَّمَمُ يَتَقَابَلُ الْخَصْمَانِ، الْحَارِثُ بْنُ عُبَادٍ
وَالْمُهَلِّهِلُ عَدِي بْنُ رَبِيعَةَ، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَأْسِرُ الْحَارِثُ مُهَلِّهْلًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ،
وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى الْمُهَلِّهِلِ وَيَطْلُقُ سِرَاحَهُ مُقَابِلَ ذَلِكَ، فَيَخْدَعُهُ الْمُهَلِّهِلُ
وَيَطْلُبُ مِنْهُ عَهْدَ اللَّهِ بِذَلِكَ فَيُعْطِيهِ الْحَارِثُ الْعَهْدَ فَيُخْبِرُهُ أَنَّهُ هُوَ عَدِي، فَيَطْلُبُ
مِنْهُ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى شَرِيفٍ مِنْ قَوْمِهِ يَكُونُ كَفَنًا لِابْنِهِ يُجِيرُ فَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ امْرَأُ الْقَيْسِ
بْنِ أَبَانَ، فَيَجِزُ الْحَارِثُ نَاصِيَةَ الْمُهَلِّهِلِ وَيَتْرَكُهُ وَيَقْتُلُ بَابَنَهُ امْرَأَ الْقَيْسِ بْنَ أَبَانَ
وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ ^(١):

لَهْفُ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَغْدِ رَفْعَ عَدِيٍّ إِذْ أُمَكَّنْتَنِي الْيَدَانِ
فَارَسُ يَضْرِبُ الْكَتَيْبَةَ بِالشُّنْفِ فَ وَتَسْمُو أَمَامَهُ الْعَيْنَانِ
طُلٌّ مِنْ طُلٍّ فِي الْحُرُوبِ وَلَمْ يُطْ لَلْ قَتِيلِ أَبَاتِهِ بَنْ أَبَانَ
فَارَسُ قَدْ أَصَابَ مَثَا أَنَسَا كَانَ ثَاوَةً لَوْ أَنَّ عَلِمِي كَفَانِي
وَيَأْتِي رَدُّ الْمُهَلِّهِلِ مُرَاوَعًا، فَالْحَارِثُ يَذْكُرُ أَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ أُسْرُهُ لِلْمُهَلِّهِلِ وَجَزُّ
نَاصِيَتِهِ ثُمَّ إِطْلَاقَهُ، وَهَذَا لَا يَسْتَطِيعُ الْمُهَلِّهِلُ أَنْ يَنْكُرَهُ، لِأَنَّ الْأَثَرَ الْمَادِي - جَزُّ
النَّاصِيَةِ - وَاضِحٌ لِلْعَيَانِ، أَمَّا الْأَمْرُ الْآخَرُ وَهُوَ خَوْفُ الْمُهَلِّهِلِ وَجَزْعُهُ وَجُبْنُهُ
عِنْدَمَا أُسِرَ، وَخِيَانَتُهُ لَصَدِيقِهِ وَقَائِدِ مَيْمَنَةِ جَيْشِهِ فِي كُلِّ حُرُوبِهِ امْرَأُ الْقَيْسِ بْنَ

(١) الأبيات من قصيدة في كتاب بكر وتغلب ص ٨٨، وهي في شعراء النصرانية (٢٧٦/٢) وهي على وزن البحر الخفيف.

أبان فهذا يُمكن إنكاره، ومن ثم نرى المهلهل ينقض قول ابن عباد ويكذبه فيما قال ويؤكد على أن ما يقوله أضغاث أحلام رآها وهو سكران، ويُعطى المهلهل موقفه بأنه سوف ينتقم لامرئ القيس بن أبان^(١) :

قَدْ أَتَانِي مَا قُلْتَ غَيْرَ بَيَانٍ وَكَلَامٌ تَحْوُكُهُ بِاللِّسَانِ
نَرَى إِذْكَ فِي الْمَنَامِ وَأَنَا لَا نُبَالِي بِرُؤْيَا السُّكْرَانِ
كَمْ طَوِيلَ عَلَى الطُّوَالِ تَخْطَى فَقَضَرْنَا مِنْ خَطْوِهِ بِالسَّنَانِ
قَدْ كَذَبْتَ بَأَنِّي قُلْتَ قَوْلًا لَمْ أَقُلْهُ وَجُرْتُ فِي ابْنِ أَبَانَ
إِنْ بَقِينَا لَنَنْصُرَنَّ شَرِيفًا قَدْ مَثَلْتُمْ بِهِ رَفِيعَ الْمَكَانِ
سَتَرَى الْمَوْتَ إِنْ سَلِمْتَ عَيَانًا وَإِنْ أَهْلَكَ رَأَيْتَ غَيْرَ عَيَانَ
لَا يَبْدُنْ مِنْكُمْ كُلُّ شَخْصٍ ضَادِقٌ فِي فَعَالِهِ وَاللِّسَانِ
ويحاول المهلهل - قدر استطاعته - تحوُّ عار الأسر وجرَّ الناصية، لذلك نراه يفخر بما صنَّع ببني بكر من قبل، ونراه يُعدّد وقعاته في فروع بني بكر: لجُليم، تيم اللات، قيس، يَشْكُر، ثم يُعدّد بعد ذلك الرجال السادة الذين قهرهم مثل مرة بن ذهل وابنه همام وابن المسور وغيرهم. هذا عن الماضي قبل أسره وجرَّ ناصيته يوم تحلاق اللمم، ومن ثم نراه يتبع ذلك بالتهديد بفناء بكر جزاء ما فعلوا بأخيه كليب ليؤكد قدرته على استمرار الحرب وأنَّ عزمته لم تتأثر بهذه الواقعة^(٢) :

أَثْبَتُ مُرَّةَ وَالسُّيُوفُ شَوَاهِرُ وَضَرَفْتُ مَقْدَمَهَا إِلَى هُمَامٍ
وَبَنِي لَجِيمٍ قَدْ وَطَأْنَا وَطَاءَ بِالْخَيْلِ خَارِجَةً عَنِ الْأَوْهَامِ

(١) بكر وتغلب ص ٨٩، والأبيات على وزن البحر الخفيف.

(٢) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٧٢-٧٥، وأبيات المهلهل في شعراء النصرانية (١٧٥، ١٧٤/٢) أبيات الحارث التي رد بها في شعراء النصرانية أيضًا (٢٧٩، ٢٧٨/٣) والقصيدتان على وزن البحر الكامل.

وَسَقَيْتُ تَيْمَ اللَّاتِ كَأْسًا مُرَّةً
 وَبَيوتَ قَيْسٍ قَدْ وَطَأْنَا وَطَاةً
 وَلَقَدْ قَتَلْتُ الشَّعْثَمِينَ وَمَالِكًا
 وَلَقَدْ خَبَطْتُ بَيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً
 لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ لَهُمْ أَيَّامُهُمْ
 قَتَلُوا كُلِّيًّا ثُمَّ قَالُوا أَرْتَعُوا
 حَتَّى تَلْفَ كَتَيْبَةً بِكَتَيْبَةٍ
 وَتَقُومَ رَبَاتُ الْبَيْوتِ حَوَاسِرًا
 حَتَّى نَرَى غُرَزًا تَجْرُ وَجْهَةً
 حَتَّى يَعْضُ الشَّيْخُ مِنْ حَسَرَاتِهِ
 وَيَرُدُّ الْحَارِثُ بْنُ عُبَادٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَارَ الْأَسْرِ وَجْزَ النَّاصِيَةِ مَا زَالَ جُرْحًا نَازِفًا
 عِنْدَ خَصْمِهِ الْمُهَلَّهِلِ، لَذَا نَرَاهُ يَنْكَأُ بِقُوَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى. وَيَقَابِلُ فَخْرَ الْمُهَلَّهِلِ بِمَا
 صَنَعَ بَنِي بَكْرِ بِتَذْكِيرِهِ بِعَارِ الْأَسْرِ وَالذَّلِّ، وَأَنَّ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا أَسْرَهُ وَذَلَّهُ سَوْفَ
 يَقْدِرُونَ عَلَى قِتَالِهِ. وَيَقَابِلُ الْحَارِثُ تَهْدِيدَ الْمُهَلَّهِلِ بِفَنَاءِ بَكْرِ لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا أَخَاهُ كُلِّيًّا
 بِتَهْدِيدِ مُنَاطِلِ بَفَنَاءِ تَغْلِبَ لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا ابْنَهُ بُحَيْرًا؛

لَا تَحْسَبَنَّ إِذَا هَمَمْتَ بِحَزِينًا
 وَلَقَدْ عَلِمْتَ وَأَنْتَ فِينَا شَاهِدُ
 إِنَّا لَنَمْنَعُ بِالطُّعَانِ دِيَارَنَا
 وَلَقَدْ نَكَأْتُكَ نَكَأَةً مَشْهُورَةً
 وَلَقَدْ أَسْرْتُكَ ثُمَّ عُدْتَ بِنَغْمَةٍ
 ضَمِنْتَ لَنَا أَرْمَاحَنَا وَسَيُوفُنَا
 فَلَا تَرْكُنْ لِتَغْلِبَ ابْنَةِ وَالِي
 أَنَا لَدَى الْهَيْجَاءِ غَيْرُ كَرَامٍ
 وَسَيُوفُنَا تَفْرِي فُرُوعَ الْهَامِ
 وَالضَّرْبُ تَحْسَبُهُ شَهَابُ ضَرَامٍ
 تَرَكْتُكَ مُنْخَسِفًا لَدَى الْأَقْوَامِ
 لَوْ كُنْتَ تَشْكُرُ لِي بِهَا إِنْغَامِي
 بِهَلَاكِ تَغْلِبَ آخِرَ الْأَيَّامِ
 بَعْدَ الْكَرَى شُغْلًا بِغَيْرِ مَنَامٍ

أفبغد مقتلكم بجيرا غنوة تزجون ودا آخر الأيام؟
 كلا ورب الرقصات إلى منى كلا ورب الحل والإحرام
 حتى تقيدونا النفوس بقتله وتروم في الشحناء كل مرام
 وتحول ربات الخدور حواسرا يتيكن كل مغاور ضرغام
 ويظل الفخر والفخر المقابل سيد الموقف بين الشاعرين الفارسين، فكل منهما
 يفخر بنفسه ويقومه ويهدد خصمه، مؤكدا أن الأمس واليوم والغد له دون
 خصمه، ونرى المهلهل يرفع وتيرة الفخر مع علو نبرة التهديد مع ثبات الأسس
 التي يقاتل من أجلها وهي الثأر لأخيه القاتل ومن ثم يهدد بني بكر ويذكر
 وقعاته وتنكيله بفروعها المختلفة^(١) :

إننا بنو تغلب شمم معاطسنا بيض الوجوه إذا ما أفزع البلد
 فقد قتلنا بني بكر بربرهم حتى بكيت وما يتيكي لهم أحد
 ما زلت أقتلهم قتلا وآسرهم حتى اشتكت لهم الأحشاء والكبد
 أفسمت بالله لا أرضى بقتلهم حتى تبهرج بكر حيث ما وجدوا
 كم قد قتلنا بني بكر بسيدنا وليس يوفي كليبنا منكم أحد
 قد قرت العين من عجل بما قهروا ومن سراة بني شيبان إذ حصدوا
 ومن جميع بني قيس وقد شقيت ذهل بنا يوم لأقونا وما سعدوا
 ومن بني مالك والحارثين وما أغنوا بجمعهم في الحرب إذ قصدوا
 واليشكريون إذ جاءوا بجمعهم حتى لقونا قما قاموا ولا قعدوا
 هانت لجيئ غداة الزوع فاطردوا مثل اليعافير في الصحراء تطرد
 أبلغ حنيفة لا تعدد ديارهم لم ينجهم غدة منا ولا غدد

(١) الشعر والرد عليه أبيات مختارة من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص ٧٦٠-٧٨، وأبيات الحارث ضمن قصيدة له في شعراء النصرانية (٢٧٨، ٢٧٧/٣) والقصيدتان على وزن البحر البسيط.

ويقابل الحارث بن عباد فخر المهلهل ببني تغلب بفخره ببني بكر، أما عن بطون بكر التي فخر المهلهل بتمزيقها كل ممزق فإن الحارث يفخر ببطولة هذه البطون ونصرها على المهلهل وبني تغلب وبقوة بأسها عند النزال ومن ثم ينقض فخره عليهم، وفي مقابل ذلك يعدد الحارث فروع تغلب التي هزمها البكريون شر هزيمة:

سَلْ حَيَّ تَغْلِبَ عَنْ بَكْرِ وَوَقَعَتْهُمْ بِالْجَنُودِ إِذْ خَسِرُوا وَجَهَرُوا وَمَا رَشَدُوا
وَأَيَّقَنُوا أَنَّ شَيْبَانًا وَإِخْوَتَهُمْ قَنِيسًا وَذُهْلًا وَتَيْمَ اللَّاتِ قَدْ رَضَدُوا
وَيَشْكُرُ وَيُنُو عَجَلًا وَإِخْوَتَهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ لَا يُحْصَى لَهُمْ عَدَدُ
قَدْ قَرَّتِ الْعَيْنُ مِنْ عَمْرَانِ إِذْ قَتَلَتْ وَمِنْ عَدِيٍّ مَعَ الْقَمَقَامِ إِذْ جَهَدُوا
وَمِنْ زِيَادٍ وَمِنْ غَنَمٍ وَإِخْوَتِهَا وَمِنْ حَبِيبٍ أَصَابُوا الدَّلَّ فَأَنْفَرَدُوا
وَمِنْ بَنِي الْأَوْسِ إِذْ شَلَّتْ قَبِيلَتَهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَقَدْ ضَرُّوا وَلَا حَمْدُوا
فَرُّوا إِلَى الثَّمَرِ مَنَّا وَهُوَ عُمُتُهُمْ فَمَا وَفَى الثَّمَرُ إِذْ طَارُوا وَهُمْ مُرْدُ
نَحْنُ الْفَوَارِسُ نَغْشَى النَّاسَ كُلَّهُمْ وَنَقْتُلُ النَّاسَ حَتَّى يُوحِشَ الْبِلْدُ
وَالْخَيْلُ تَغْلَمُ أَيُّ مَنْ فَوَارِسُهَا يَوْمَ الطَّعَانِ وَقَلْبُ الْقَرْنِ يَزِيدُ
وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أَصَالِحُهُمْ مَا دَامَ مَنَّا وَمِنْهُمْ فِي الْمَلَا أَحَدُ
ويظلُّ المهلهل يذكر أخاه القتيل الذي أضج مضجعه وجعل ليله سرمدًا لا ينتهي، ويفجر تذكره غضبًا في داخله يصبه على بني بكر، ويستحضر الماضي بانتصاراته فخراً، ينير له الحاضر الذي يملكه بقوته وعزيمته ومن ثم يكون المستقبل ملكاً له لأنه لا ينام عن ثأر أخيه كليب الذي لا يعادله قتل يجير بن الحارث بن عباد أو قتل بني ذهل جميعاً^(١):

(١) الشعر والرد عليه من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص ٧٨-٨٢، وقصيدة المهلهل في شعراء النصرانية (١٨٧/٢)، وقصيدة الحارث في شعراء النصرانية أيضاً (٢٨٠/٣) والقصيدتان على وزن البحر الخفيف.

بات ليلي بالأنعمين طويلا
كيف نومي ولا يزال قتيلا
فاضل سيد حليم كريم
كيف أنساك يا كليب ولما
قُرّة العين من لجيم بن صعب
يا بني ذهل قد ذهبت بامر
قتلوا زبهم كليباً سفهاً
لم يكن قتلهم كليباً ينعمي
سيروغ الأنام قتل كليب
أرقب النجم ساهراً لن يزولا
ماجداً كان للضديق وضولا
كان بالمال للوفود بذولا
أفض بالوجد غيرة وعويلا
وبني ذهل نكلوا تنكيلا
إذ جهلتم وكان جهلاً جهولا
ثم قالوا ما إن تحاف الخيولا
كجبر ولا كذهل عقيلا
وتخاف الجبال أن تزولا

وإذا كان الحادث بن عباد قد تجنّب الحرب في أولها، واستعظم قتل كليب في ناقة، فإنه أمام فخر المهلهل بقتله ابنه بجير، قد غيّر رأيه في هذه المسألة، وأصبح يقابل فخر المهلهل بقتله بجير بفخر مائل لأن كليباً قتل على يد بني بكر، ولا يفتأ الحارث أن ينكأ جرح المهلهل، أو يضيف إلى جرحه المتمثل في مقتل كليب جرحاً آخر أشد إيلاماً على نفسه وهو وقوعه في الأسر، وكأن الحارث بن عباد يقول إن بني تغلب لا قيمة لهم، فملكهم قتلناه وسيدهم وقائد حريمهم في الثار للقتيل أسرناه ومنناً عليه وأطلقناه، ثم يُقابل وقعات المهلهل التي افتخر بها بوقعات مماثلة له في بني تغلب:

سفهت تغلب غداة تمثت
غير أنا قد احتوينا عليهم
أذكروا قتلنا الأراقم طراً
وقتلنا على الثنية عمراً
حزب بكر فقتلوا ثقبيلا
فتركنا لهم بقايا فلولا
يوم أضحى كليبها مقتولا
وجلبنا عديهم مغلولا

وَكَلَيْبًا تَبْكِي عَلَيْهِ الْبَوَاكِي وَحَبِيبٌ هُنَاكَ يَدْعُو الْعَوِيْلَا
 ويعودُ الحارثُ بنُ عُبادٍ إلى تأكيدِ ظُلْمِ بني تغلبٍ له عندما قتلوا ابنه بُجَيْرًا وهو
 في حماهم ، وأنَّ هلاكهم بدأ منذ ذلك اليوم ، ويفخر على تغلب بأنهم قتلوا كليب
 بن ربيعة وهو في حماه ^(١) :

بني تغلبٍ لمْ تَنْصَفُونَا بِقَتْلِكُمْ بُجَيْرًا وَلَمَّا تُقْتَلُوا فِي الْمَجَالِسِ
 وَحَتَّى تَبْدُ الْخَيْلُ فِي عَرْضَاتِكُمْ وَتَلْقَوْنَ أَيَّامًا شِدَادَ الْمَنَاجِسِ
 كَأَيَّامِ عَادٍ إِذْ بَغَوْا وَتَكَبَّرُوا فَأَضَحَّتْ قُرَاهُمُ كَالْقَفَارِ الْبَسَاسِ
 قَتَلْنَا الَّذِي نَجَمِي الْكَتِيبَةَ مِنْكُمْ وَغَوَدَ قَتْلُ جَعَّةٍ فِي الْكِنَانِسِ
 وَنَحْنُ قَتَلْنَا فِي حِمَاكُمْ كَلَيْبَكُمْ وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ قَدْ قَتَلْنَا وَبَائِسِ
 ولا يُثِيرُ الْمُهْلَهْلُ شَيْءٌ مِثْلَمَا يُثِيرُهُ الْفَخْرُ بِمَقْتَلِ كَلَيْبٍ لَذَا نَرَاهُ يَزَارُ كَاللَّيْثِ
 ويردُّ هذا الفخرُ نِقْمَةً على الحارث بن عُباد وعلى بني بكرٍ أجمعين لأنهم كتبوا على
 أنفسهم الفناء بعدما قتلوا كليبًا ، ثُمَّ يُقَابِلُ فَخْرَ الْحَارِثِ بِتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ مَسْبُوقٍ
 بِقَسَمٍ مُعْظَمٍ :

قُلْ لِحَارٍ وَأَشْيَاخٍ لَهُ حَضْرُوا سِيرُوا فَإِنَّكُمْ لَا بَدَّ فِي تَعْسِ
 يَا وَيْحَ بَكْرِ لَقَدْ أَبْقَى الزَّمَانُ لَهَا شَجْوًا بِقَتْلِ كَلَيْبِ الْبَاسِ وَالْمَرْسِ
 حَلَفْتُ بِاللَّهِ رَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ رَبُّ النَّهَارِ وَرَبُّ اللَّيْلِ وَالْغَلَسِ
 لِأَصْبِحَنَّكَ جَمْعًا أَنْتَ تَحْذَرُهُ يَقُودُهُ كَيْ لَيْثٍ بِأَسَلِ شَكْسِ
 أَبْلَغُ لَجْنِمَا وَذَهْلًا إِنْ لَقِيتَهُمْ قَدْ عِيلَ صَبْرِي وَحَانَ الْيَوْمُ مَفْتَرَسِ
 وَقُلْ لِحَارٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ كُلِّهِمْ إِرْكَبْ نَعَامَةً إِيَّيَ زَاكِبٍ فَرَسِي
 وفي زحامِ الْفَخْرِ لَا تَغِيبُ الْحِكْمَةُ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ عُبادٍ ، فهو من حكماء العرب

(١) الأبيات والرد عليها من قصيدتين في كتاب بكر وتغلب ص ٩٦، ٩٧، وهما على وزن البحر الطويل .

في الجاهلية، لذا نراه يوضح رأيه في تلك الحرب منذ بدايتها حتى قاربت على الانتهاء وقد قتل سيد بني بكر مرة بن همام بن مرة، فعندما أطلت الفتنة برأسها بين جساس وكليب نهى جساسا عن قتل كليب، لكن بغي كليب هو الذي ساقه لختفه على يد جساس، وقد نهى المهلهل أيضاً عن البغي وسفك دماء العشيرة لكنه أبى، ولهذا يرى الحارث في جساس بطلاً يُمثل إرادة قبيلته، إذ دفع الضيم عنها عندما قتل كليباً، ويراها مثالا للقوة والشجاعة عندما قتل بعد ذلك أبا نويرة التغلبي، وزاد الحسرات في قلب المهلهل لأنه غير قادر على إدراك تأثره^(١) :

ونَهَيْتُ جَسَّاسًا لِقَاءَ كَلَيْبِهِمْ	خَوْفَ الَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ حَدَثَانِ
وَلَقَدْ أَبَى وَالْبَغْيِ مُهْلِكُ أَهْلُهُ	إِلَّا مَنِئْتَهُ بِحَدِّ سِنَانِ
وَنَهَيْتُ بَعْدَ مُهْلَهْلٍ عَنْ حَرْبِنَا	وَزُخُوفِ أَقْرَانِ إِلَى أَقْرَانِ
فَأَبَى مُهْلَهْلٌ فَاشْتَبِيحَ قَرَارُهُ	فَسَرَا بِكُلِّ أَحْ بَقَى وَطَعَانِ
وَأَقْرَبَ الْفَتْيَانُ أَنْ فَتَى الْغَلَا	جَسَّاسٌ أَضْحَكَ رَغْلَةَ الضَّبْعَانِ
شَبِعَتْ نُسُورُ الْجَدِّ مِنْ قَتْلَاهُمْ	بِحُجُولِهَا وَحَوَاصِلِ الْغَزْيَانِ
فَتَرَى النُّسُورَ عَوَاكِفًا مِنْ حَوْلِهِمْ	تَنْهَشُنْهُمْ وَكَوَاوِيسَ الْعَقْبَانِ
قَتَلَ الثَّلَاثِينَ الذِّبْنَ تَعْدُهُمْ	وَأَظُنُّ قَدْ أَتْبَاكَهُ الرَّجُلَانِ
عَنْ كَرِّ جَسَّاسِ بْنِ مُرَّةٍ فِيكُمْ	وَقَدِيمُهُ أَبْصَرْتَهُ بَيَانِ
تَرَكَ النِّسَاءَ عَلَى كَلَيْبٍ حُسْرًا	بِالْأَمْسِ خَارِجَةً عَنِ الْأَوْطَانِ
فَإِذَا بَكَيْتَ عَلَى كَلَيْبٍ فَادْكُرْنِ	قَتَلَ الْكُهُولَ وَمَضَرَ الْفَتْيَانِ
وَأَبَا نُوَيْرَةَ لَا تَدْعُ تَذْكَارَهُ	فَلَنَغْمَ مَأْوَى الضَّيْفِ وَالْفَرْسَانِ

(١) الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ١٠٩-١١٠، والقصيدتان على وزن البحر الكامل.

إِنَّ كُنْتُ تُحْسِبُ أَنْ تُبَاشِرَ بِالْقَنَا فَأَبُو نُؤَيْرَةَ كَانَ غَيْرَ جَبَانٍ
 أَرْدَاهُ جَسَاسٌ بَطْغَنَةً مَخْطُفٍ فِي الْحَرْبِ يَرْعَشُ خَوْفُهُ الرِّكْبَانِ
 وَأَصَابَ جَسَاسٌ بِنُ مَرَّةٍ وَثَرَهُ فِي مَوْقِفٍ مُتَضَايِقِ الْأَرْكَانِ
 وَيَأْتِي رَدُّ الْمَهْلَهْلِ مُشَبَّعًا بِالْحِكْمَةِ أَيْضًا، فَاَلْمُوتُ قَدَرُ النَّاسِ جَمِيعًا لَا يَنْجُو مِنْهُ
 أَحَدٌ، وَلَيْسَ وَقْفًا عَلَى كُلِّبٍ وَحْدَهُ، فَاَلْمُوتُ أَدْرِكُ كُلِّبًا وَجَسَاسًا مَعًا وَسَوْفَ
 يَدْرِكُ كُلَّ حَيٍّ، فَلَا مَجَالَ لِلْفَرَحِ فِيْمَنْ مَاتَ، وَيَقَابِلُ تَهْدِيدَ الْحَارِثِ بِتَهْدِيدِ مُنَاثِلٍ،
 لِأَنَّهُ سَوْفَ يَشْنُ عَلَيْهِمْ حَرْبًا فَاصِلَةً لَهَا مَا بَعْدَهَا:

لَا تَفْرَحَنَّ بِكَثْرَةِ الْبَهْتَانِ فَاَلْمُوتُ مَقْدُورٌ بِكُلِّ مَكَانٍ
 إِنْ كَانَ جَسَاسٌ أَصَابَ مَعَاشِرًا وَأَصِيبُ يَوْمٍ تَجَالِدٍ وَطَغَانٍ
 فَكِلَاهُمَا ذَاقَ الْفَنَاءَ وَكِلَاهُمَا أَرْدَى وَتَلَسَّكَ مِصَارِعُ الْفَتَيَانِ
 وَكِلَاهُمَا ذَاقَ الْجَمَامَ وَكُلُّ مَنْ يَبْقَى وَجَدَكَ فِي الْبَرِيَّةِ فَإِنْ
 وَبِهِ أَصَابَتْ وَائِلٌ أَوْتَارَهَا يَوْمَ الْهَجُولِ وَكَانَ غَيْرَ جَبَانٍ
 لَيْسَ الْمَرِيحُ كَمُسْتَعِيبٍ فِي الْوَعْيِ وَالصَّدَقُ لَيْسَ كَمَنْطِقِ الْبَهْتَانِ
 إِنْ السَّيُوفُ بِكُورِهَا وَرَوَّاحُهَا تَرَكْتِكَ مَرَّةً خَاوِيِ الْأَرْكَانِ
 إِنْ لَمْ تَزِدْكُمْ خَيْلُنَا بَعْصَابَةً تَفْنَى بِيَوْمٍ لِقَائِهَا الثَّقَلَانِ
 فَحَزُّوا أَشْفَارَكُمْ وَحَزُّوا بَعْدَهَا مَنَا الْحُلُوقُ بِبَغْيَةِ كُلِّ مَكَانٍ

٤- النقائص في مقتل خالد بن جعفر

يُعدُّ خالد بن جعفر بن كلاب بطلاً من أبطال العرب، بعد قتلِه زُهَيْر بن جزيمة العبسي سيد غطفان، ولم يكن مقتل زُهَيْر حدثاً عادياً في صحراء نجد، فقد ترتَّب على ذلك الحدث تغيير ميزان القوى بين القبائل العربية، إذ التفتَّ العامريون حَوْلَ خالد بن جعفر، بل والتفتُّ هوازنُ كُلُّها حوله، وكان أول رجل يجتمعُ عليه هوازنُ كُلُّها في الجاهلية^(١)، ومن ثمَّ أصبحت هوازنُ تمارسُ دورَ السيادة في منطقة نجد، وكان الكلابيون موضع تقدير ومهابة من كُلِّ القبائل^(٢). لذلك كان مقتل خالد بن جعفر على يد الحارث بن ظالم المري فاجعة كبرى، وعندما يرثيه عبدالله بن جعدة يؤكد على جُبْنِ قاتله، لأنَّه قتله وهو نائم غدراً، فلم ينازله فارساً لفارس، ولو فعل لكان النصرُ حليف القتيل، لأنَّه بطلٌ يُحسنُ الطَّعنَ وتسديد الضربات للخصم، لا تطيش له ضربة، ولا ترتعش له يد، ولا ينسى الشاعر تهديدَ القاتل وقبيلته^(٣):

شَقْتُ عَلَيْكَ العامريَّةَ جَنِيهَا أَسَفًا وَمَا تَنَكِّي عَلَيْكَ ضَلَالًا
يَا حَارَّ، لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ لَا طَائِشًا رَعِشًا وَلَا مَغْزَالًا
وَاغْزُورَقْتُ عَيْنَيَّ لَمَّا أُخْبِرْتُ بِالْجَعْفَرِيِّ وَأَسْبَلْتُ إِسْبَالًا
فَلَنَقْتُلَنَّ بِخَالِدٍ سَرَوَاتِكُمْ وَلَنَجْعَلَنَّ لِلظَّالِمِينَ نَكَالًا

(١) انظر: المُحِبُّ لابن حبيب، محمد بن حبيب الهاشمي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د.ت) ص ٢٥٤، ٢٥٣.

(٢) انظر كتابنا: شعر بني عامر بن صعصعة من الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية جمع وتحقيق ودراسة، نادي المدينة المنورة الأدبي - السعودية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (١/٤٤).

(٣) الشعر والبرد عليه في: أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور عادل جاسم البياتي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧، ص ١٢٥، والشعر على وزن البحر الكامل.

ولا يملك الحارث بن ظالم إلا نفي الجبن عن نفسه، ويؤكد على بطولته وفتكه
بعده، وأنه نبيه خالداً قبل قتله لكنه كان ضعيفاً، رخو اليدين، ومن ثم تكون
شجاعة الحارث هي الفصيل:

بِاللهِ قَدْ نَبَّهْتُه فَوَجَدْتُهُ رَخَوِ الْيَدَيْنِ مُوَكَلاً عَشَقَالاً
فَعَلَوْتُهُ بِالسَّيْفِ أَضْرَبُ رَأْسَهُ حَتَّى أَضْلُ بِسِلْخِهِ الشَّرْبَالَ
وعندما يعلم قيس بن زهير بن جذيمة بقتل خالده الذي قتل من قبل أباه،
يرسل قصيدة شكر وامتنان لقاتله، لأنه أخذ بثأرهم الذي اشتعل في صدور بني
عبس طويلاً دون أن يدركوه^(١):

جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيلٍ شَفَى مِنْ ذِي تَبُولَتِهِ الْخَلِيلَا
أَزْحَتْ بِهَا جَوَى وَدَخِيلُ حَزْنٍ تَمَخَّخَ أَغْظَمِي زَمَنًا طَوِيلَا
كَسَوْتُ الْجُفُفَ رِيَّ أَبَا جَزِيٍّ وَلَمْ تَحْفَلْ بِهِ سَيْفًا ضَقِيلَا
أَبَاتُ بِهِ زُهَيْرُ بَنِي بَغِيضٍ وَكُنْتُ لِلْإِلْهَاءِ وَلَهَا حُمُولَا
كَشَفْتُ لَهُ الْقَنَاعَ وَكُنْتُ مِمَّنْ يَجْلَى الْعَارَ وَالْأَمْرَ الْجَلِيلَا
ويرد الحارث عليه قوله ويصفه بأنه كاذب لا يتفق قوله المُنَمَّقُ مع فعله، لأن
بني عبس رفضت أن تُجيرة وكان الأولى لها أن تكون له حرزاً يحميه لأنه ثار لهم،
بدلاً من طلبها منه أن يجاور غيرهم من قبائل العرب:

أَتَانِي عَنْ قَيْنِسِ بَنِي زُهَيْرٍ مَقَالَةً كَاذِبٍ ذَكَرَ التُّبُولَا
فَلَوْ كُنْتُمْ كَمَا قُلْتُمْ لَكُنْتُمْ لِقَاتِلِ ثَارِكُمْ حَزْرًا أَصِيلَا
وَلَكِنْ قُلْتُمْ جَاوَزَ سَوَانَا فَقَدْ جَلَلْتَنَا حَدَثًا جَلِيلَا

(١) الشعر والرد عليه في: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ط١، دار الكتب المصرية، (٩٨/١١)، وهي على وزن
البحر الوافر.

ولو كانوا هم قتلوا أخاكُم لما طردوا الذي قتل القتيلا
ويلحق الحارث بن ظالم بحاجب بن زُرارة فيجيره ويعدّه أن يمنعه من بني
عامر، ويعلم بنو عامر بمكانه في تميم، فيسيرون في جيشٍ عظيمٍ إليهم، ويعلم
بمقدمهم حاجب بن زُرارة فيخاف على نفسه وقبيلته ومن ثمّ يأمر الحارث أن
يتنحى عنه غير مَلُوم، فيغضب الحارث لأن حاجباً لم يف بوعده له، ولم يستطع
حمايته مثلما يفعل العربُ الأعزّة مثل بكر وتغلب أو مثل أهالي يثرب الذين ثبتوا
في وجه التّبع اليماني، ويذكر حاجباً بأن شوكة هوازن ليست أقوى من شوكة
تميم^(١)؛

لعمري لقد جاورت في حَيٍّ وائلٍ ومن وائلٍ جاورت في حَيٍّ تغلب
فأصبحت في حَيٍّ الأراقم لم يقلّ لي القومُ يا حار بن ظالم اذهب
وقد كان ظنّي إذ عقلت إليكم بنى غُدسٍ ظنّي بأصحاب يثرب
غداة أتاهم تبّع في جنوده فلم يسلموا المرين من حَيٍّ يخضب
فإن تك في عليا هوازن شوكة تخاف ففيكم حدّ نابٍ ومجلب
وإن يمنع المرء الزُراري جاره فأعجب بها من حاجبٍ ثم أعجب
ويحاول حاجب بن زُرارة نقض ما قاله الحارث، فيفخر بأنّه أَمِنَ جارا من
كليب بن ربيعة الذي يضربُ بعزّته وأنفته وكبريائه المثل، وتاريخ بني تميم يؤكد
ذلك، وأنّ بني عامر لو فكّرت في غزوهم فسوف تعضُّ على الأنامل ندماً، وذلك
لأن تميمًا هي الأقوى والأعزُّ والأمنع، ويُبرّر حاجبُ تخلّيه عن الحارث بأنّه لا
يدخلُ الحربَ ظالماً، فبنو عامر يطالبون ثارا عادلاً^(٢)؛

(١) الشعر والرد عليه في الأغاني (١٠٠/١١)، وهو على وزن البحر الطويل.

(٢) الأغاني (١٠٠/١١).

لَعْمُرُ أَبِيكَ الْخَيْرُ يَا حَارِثُ إِنِّي
وقد علم الحَيُّ الْعَدِيُّ أَنَّنَا
وَأَنَا إِذَا مَا خَافَ جَارُ ظَلَامَةٍ
وَأَنْ تَمِيمًا لَمْ تَحَارِبْ قَبِيلَةَ
وَلَوْ حَارِبْتَنَا عَامِرُ يَا بَنَ ظَالِمٍ
وَلَا سَتَيْفُنْتُ عَلَيَا هَوَازِنُ أَنَّنَا
وَلَكِنِّي لَا أُبْعَثُ الْحَرْبَ ظَالِمًا
وَيَلْتَقِي الْجَمْعَانِ - عَامِرُ وَتَمِيمُ - بِرَحْرَحَانِ، وَتَمْزُقُ عَامِرُ تَمِيمًا شَرُّ مُزْقٍ،
وَيُجْرَحُ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ سَيِّدُ تَمِيمٍ فِي الْمَعْرَكَةِ وَيَقَعُ أَخُوهُ مَعْبِدُ فِي الْأَسْرِ ثُمَّ
يُقْتَلُ، وَيَرُدُّ أَبُو بَرَاءُ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ عَلَى أَبِييَاتِ حَاجِبِ السَّابِقَةِ، يُوَكِّدُ فِيهَا عَلَى
أَنْ حَاجِبًا هُوَ خَيْرُ بَنِي تَمِيمٍ، لَكِنَّهُ رَغْمَ ذَلِكَ يَنْصَحُهُ أَلَّا يُقَارَنَ نَفْسُهُ بِأَبْنَاءِ
وَائِلِ (أَيِ كَلِيبِ بْنِ رَبِيعَةَ) وَمَنْ ثُمَّ يَنْقُضُ عَلَيْهِ فَخْرَهُ بِأَنَّهُ أَمْنَعُ جَارًا مِنْ
كَلِيبِ، ثُمَّ يَنْقُضُ عَلَيْهِ فَخْرَهُ بِقُوَّةِ تَمِيمٍ لِأَنْ فَرَسَانَ بَنِي عَامِرٍ لَا يُشَقُّ لَهُمْ غُبَارٌ،
وَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى النَّصْرِ حَتَّى لَوْ كَانَ عَدُوُّهُمْ قَبِيلَةً تَغْلِبُ، لِذَلِكَ فَإِنْ حَاجِبًا لَا
يَسْتَطِيعُ حِمَايَةَ الْحَارِثِ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ رَأَوْا يَوْمًا تَشْيِبُ لَهُ الْأَطْفَالُ^(١) :
أَلَكْنِي^(٢) إِلَى الْمَرْءِ الزُّرَّارِيِّ حَاجِبِ رَنَيْسِ تَمِيمٍ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

(١) القنابل: الجماعات من الخيل والناس.

(٢) الأغاني (١٠١/١١)، والأبيات على وزن البحر الخفيف.

(٣) أَلَكْنِي إِلَى فَلَانٍ أَيِ كُنْ رَسُولِي إِلَيْهِ، يُقَالُ: أَلَكْ بَيْنَ الْقَوْمِ أَلَا وَأَلُوكَا إِذَا تَرَسَلَا. وَالْأَسْمُ مِنْهُ الْأَلُوكُ وَالْأَلُوكَةُ وَالْمَأْلُوكَةُ وَالْمَأْلُوكُ (بِضْمِ اللَّامِ فِيهِمَا) بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ. فَإِذَا عَدِيَتْهُ بِالْهَمْزَةِ قُلْتُ أَلَكْتُهُ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ. وَالْأَصْلُ فِيهِ «أَلَكْتُهُ» بِهَمْزَتَيْنِ، فَأَخْرَجْتُ الْهَمْزَةَ بَعْدَ اللَّامِ وَخَفَفْتُ بِنَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى مَا قَبْلُهَا وَحَذَفْتُ. فَإِنْ أَمَرْتُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي بِالْهَمْزَةِ قُلْتُ أَلَكْنِي إِلَيْهَا بِرِسَالَةٍ. وَكَانَ مُقْتَضًى هَذَا اللَّفْظُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْهَا بِرِسَالَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ عَلَى الْقَلْبِ، إِذَا لَمَعَنِي: كُنْ رَسُولِي إِلَيْهَا بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ. (عَنْ لِسَانِ الْعَرَبِ فِي مَادَّةِ أَلَكْ).

وفارسها في كل يوم كريمة
لعمري لقد دافعت عن حي مالك
على كل جزء الشراة طمرة
نصحت له إذ قلت إن كنت لاحقاً
ولو أجاته (٤) غصبة تغليبة
ولو زمت أن تمنعوه رأيتم
لشاب وليد الحى قبل مشيبه
وقامت رجال منكم خندقية
وكان عمرو بن الإطنابة الخزرجي ملك الحجاز، ولما بلغه قتل الحارث بن ظالم
خالد بن جعفر، وكان خالد مصافياً له، غضب لذلك غضباً شديداً، وقال: والله
لو لقي الحارث خالداً وهو يقظان لما نظر إليه، ولكنه قتله نائماً، ولو أثنى
لعرف قدره، فالحارث جبان لا يواجه أي فارس بسلاحه إنما تظهر شجاعته على
النيام فقط وأنه لو نزل الحجاز فسوف يقتل بفعلته وسوف ينسى قتل الناس
غداً (٦)؛

غللاني وغللا صاجبياً وأسقياني من المروقي (٧) ريثاً

- (١) والشايب: جمع شؤبوب. وشؤبوب كل شيء: حده، أو الدفعة منه.
(٢) يقال: تلقت الناقة إذا شالت بذنبها لترى أنها لاحق وهي ليست كذلك. وحائل: غير حامل.
(٣) الأجرد من الخيل: القصير الشعر، والخيل تمدح بذلك. والسراة: الظهر. والطمرة: أنثى الطمر (ويقال فيه الطمرير والطمور) وهو الفرس الجواد، أو المشمر الخلق، أو المستفز الوثب والعدو، أو الطويل القوائم الخفيف. وفرس خوار العنان: سهل المعطف (أي إذا عطف كان لنا سهل الانقياد). والمناقل من الخيل: الذي يتقى في عدوه الحجارة وهو أن يضع يده ورجله على غير حجر لحسن نقله في الحجارة.
(٤) أجاته: عصمته.
(٥) القنابل: وهي الجماعات من الناس والخيل، الواحدة قنبلة.
(٦) الأغاني (١٢٢، ١٢١/١١)، والشعر والرد عليه على وزن البحر الخفيف.
(٧) المروقي من الشراب: المصفى.

إِنَّ فِينَا الْقِيَانِ يَغْرِفُنَ بِالْدُفِّ لِفَتْيَانِنَا وَعِيشَا رَخِيًّا^(١)
 يَتَبَارِزِينَ فِي النَّعِيمِ وَيَضْبِبُ— مِنْ خِلَالِ الْقُرُونِ مَشْكَا ذَكِيًّا
 إِنَّمَا هُمُ هُنَّ أَنْ يَتَحَلَّى— مِنْ سُمُوطٍ وَسُتَيْلَا فَارِسِيًّا
 مَنْ سُمُوطِ الْمَرْجَانِ فَضْلُ بِالْشُدِّ رَ فَأَحْسِنَ بِحُلِيِّهِنَّ حُلِيًّا
 وَفَتْنَى يَضْرِبُ الْكَتَيْبَةَ بِالشُّدِّ فِ إِذَا كَانَتْ السِّيَوفُ عَصِيًّا
 إِنَّنَا لَا نُسْرِبُ فِي غَيْرِ نَجْدٍ إِنَّ فِينَا بِهَا فَتْنَى خِرْزُجِيًّا
 يَدْفَعُ الضُّيْمَ وَالظَّلَامَةَ عَنْهَا فَتَجَافِي عَنْهُ لَنَا يَامَنِيًّا
 أَيْلُغُ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمِ الرُّعَى سَدِيدَ وَالنَّاذِرِ التُّذُورِ عَلِيًّا
 أَنْمَا يَقْتُلُ النَّيَامَ وَلَا يَقْدُ تَلْ يَقْظَانِ ذَا سِلَاحٍ كَمِيًّا^(٢)
 وَمَعَى شِكْتِي^(٣) مَعَابِلُ كَالْجَمِّ رَ وَأَعْدَدْتُ صَارِمًا مَشْرِفِيًّا
 لَوْ هَبَطَتِ الْبِلَادُ أَنْسَيْتُكَ الْقَتْلَ لَ كَمَا يُنْسِي النَّسِيَّ النَّسِيًّا
 فَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ شَعْرُهُ هَذَا ازْدَادَ حَنَقًا وَغَيْظًا، وَأَرَادَ نَقْضَ قَوْلِهِ فَعَلًا ثُمَّ قَوْلًا
 فَسَارَ حَتَّى أَتَى دِيَارَ بَنِي الْخَزَرْجِ، ثُمَّ دَنَا مِنْ قُبَّةِ عَمْرِو بْنِ الْإِطَنْابَةِ، ثُمَّ نَادَى:
 أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْنِنِي فَإِنِّي جَارٌ مَكْثُورٌ^(٤) وَخُذْ سِلَاحَكَ، فَأَجَابَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ. حَتَّى
 إِذَا بَرَزَ لَهُ عَطَفَ عَلَيْهِ الْحَارِثُ وَقَالَ: أَنَا أَبُو لَيْلَى! فَاعْتَرَكَا مَلِيًّا مِنَ اللَّيْلِ. وَخَشِيَ
 عَمْرُو أَنْ يَقْتُلَهُ الْحَارِثُ فَقَالَ لَهُ: يَا حَارِ، إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ وَإِنِّي تَعْتَرِينِي سِنَّةً، فَهَلْ
 لَكَ فِي تَأْخِيرِ هَذَا الْأَمْرِ إِلَى غَدٍ؟ فَقَالَ: هِيَاهُ! وَمَنْ لِي بِهِ فِي غَدٍ! فَتَجَاوَلَا سَاعَةً،

(١) العيش الرخي: الناعم.

(٢) الكمي: الشجاع المتكفي في سلاحه، لأنه كمي نفسه أي سترها بالدرع والبيضة، والجمع كماء، كأنهم جمعوا كاميا مثل قاض وقضاة.

(٣) السلاح، والمعابل: جمع معبلة (بكسر الميم) وهي نصل طويل عريض؟ والمشرقي من السيوف: المنسوب إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن، وقيل من بلاد العرب تدنو من الريف.

(٤) مكثور: كثر أعداؤه أي غلبوه بكثرة.

ثم ألقى عمرو الرُمح من يده وقال: يا حار! ألم أخبرك أن النعاس قد يغلبني! قد سقط رمحي فاكفُف، فكف. قال: أنظرني إلى غد. قال: لا أفعل. قال: فدعني آخذ رُمحي. قال: خذه. قال: أخشى أن تُعجلني عنه أو تفتك بي إذا أردت أخذه. قال: وذمة ظالم لا أعجلتك ولا قاتلتك ولا فتكت بك حتى تأخذه. قال: وذمة الإطنابة لا أخذه ولا أقاتلك. فانصرف الحارث إلى قومه وقال مجيباً له:
 إعرفنا لى بِلْدَة قَيْنْتِيَا قيل أن يَبْكِر المنونُ عَلَيَّا
 قبل أن يَبْكِر العواذلُ إِنِّي كنتُ قَدَمًا لأمْرَهْن عَصِيَا
 ما أبالي أراشدًا فاضِحاني حَسِبْتَنِي عواذِلِي أم غَوِيَا
 بعد ألا أَصِرَّ لله إِنَّمَا في حياتِي ولا أخونَ صَفِيَا
 ويهيم الحارث بن ظالم على وجهه، فقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت فقصد ديار قومه مُتَخَفِيًا، وكان الملك الأسود بن المنذر قد تَبَيَّنَ سنانُ بن أبي حارثة المرئ ابنه شُرْحَبِيل، وكانت امرأته تُرضعه، فأخذ الحارث شُرْحَبِيل وقتله وفرَّ إلى بني دارم فأجاروه، فيغضب الأسود بن المنذر منهم، فَيُعَدُّ نَعْمَةً وفضله عليهم ويهددهم بالفناء إذا أَصْرُوا على حماية الحارث بن ظالم ولم يسلموه إليه فقال^(١):

كَأَيِّنْ لَنَا مِنْ نَعْمَةٍ فِي رِقَابِكُمْ بني قَطَنِ فَضَلًا عَلَيْكُمْ وَأَنْعَمًا
 وَكَمْ مَنَّةً كَانَتْ لَنَا فِي بَيْوتِكُمْ وَقَتْلَ كَرِيمٍ لَمْ تُعْذُوهُ مَغْرَمًا
 فَإِنَّكُمْ لَا تَمْنَعُونَ ابْنَ ظَالِمٍ وَلَمْ يَمَسَّ بِالْأَيْدِي الْوَشِيحَ الْمُقْوَمَا^(٢)
 فينبى له ضَمْرَةٌ بن ضمرة النهشلي، ويؤكد له أنهم قادرون على حماية الحارث بن ظالم بسيوفهم حتى ولو كان في بيوت الأسود بن المنذر نفسه، فتسليم الحارث

(١) الشعر والرد عليه في الأغاني (١١٣/١١)، وهو على وزن البحر الطويل.

(٢) الوشيج، شجر الرماح أو هو من الفنا أصله، والمقوم: الذي أزيل عوجه.

دونه الموت، ويرد على فخره بالمن والفضل عليهم بأن يجعل ذلك الفخر والمن لأخيه النعمان وينفيه عنه لأنه مثل التيس الغريب وسط أقرانه:

سنمنع جازاً عائداً في بيوتكم بأسيفنا حتى يؤوب مسلماً
إذا ما دعونا دارماً حال دونه عوايس يغلكن الشكيم المعجماً
ولو كنت حزناً ما وردت طويلعاً ولا خوفه إلا خميساً غرمراً^(١)
تركت بنى ماء السماء وفعلهم وأشبهت تيساً بالحجاز مؤتماً^(٢)
ولن أذكر النعمان إلا بصالح فإن له فضلاً علينا وأنعماً
وقد جرّ مقتل خالد بن جعفر في بطن عاقل حرب يوم «رحرحان» وجرّ يوم
رحرحان يوم «شعب جبلة»^(٣) وهو من أعظم أيام العرب^(٤)، وبرغم هول اليوم
وما كان فيه لم نظفر إلا بنموذجين للنقائض قبيلاً فيّة، أولهما للقيط بن زُرارة
وشريح بن الأحوص، فلقيط يحضّ جنوده على القتال والبطولة، ويؤكد لهم على
أن النعيم والحياة الرعدة لا تجوز إلا للأبطال الذين يخوضون غمار المعارك بقوة
وشجاعة^(٥):

عزفتكم والدمع م العين يكف^(٦)

لفارس أتلقتموه ما خليف

- (١) وحوف الوادي: حرفه وناحيته. والحرب: العدو المحارب. وطويلع: ماء أو واد. والخميس: الجيش والعمرم: الكثير.
(٢) المزمن من الشاء: ما له هنة معلقة في حلقه تحت لحيته، وخص بعضهم به العنز. والمزمن أيضاً: الذي تقطع أذنه وترك له زنمة.
(٣) انظر: الأغاني (١١/٩٤-١٦٣).
(٤) قيل: عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة، ويوم ذي قار. الأغاني (١١/١٣١).
(٥) الشعر والرد عليه في الأغاني (١١/١٤٢، ١٤٤).
(٦) يكف: يسيل.

إِنَّ النَّشِيلَ وَالشَّوَاءَ وَالرُّغْفَ^(١)

وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالكَاسَ الْأُنْفَ^(٢)

وَصَفْوَةَ الْقَدْرِ وَتَغْجِيلَ اللَّفْ^(٣)

لِلطَّاعِنِينَ الْخَيْلَ وَالْخَيْلَ قُطْفَ^(٤)

فَيردُّ عليه سُريخُ بن الأَحوصِ قوله وزعمه، لأنَّ شجاعة لقيط مزعومة وبطولته التي يتشددُّ بها ويحضُّ الغير عليها لا تؤكدُها الأفعال، فلو كان صادقاً فليدخل المعركة وعندها سيعلم عزة ومنعة بني عامر:

إِنْ كُنْتُ ذَا صَدَقٍ فَأَقْجِمْنِي الْجُرْفَ

وَقَرِّبِ الْأَشْقَرَ حَتَّى تَغْفِرَ^(٥)

وَجَوْهَنَا إِنَّا بَنُو الْبَيْضِ الْعُطْفِ^(٦)

والنموذج الآخر للقيط بن زرارة وشأس بن بُليّ، إذ يتحسّر لقيط على أيام الدعة والراحة والنعيم التي سبقَتْ هجوم بني عامر عليهم، ويرد على لؤم قومه له بعد هزيمتهم بأنّه لم يُجربْ حَرْبَ بني عامر من قبل^(٧):

يَا قَوْمُ قَدْ أَحْرَقْتُمُونِي بِاللَّوْمِ

وَلَمْ أَقَاتِلْ عَامِراً قَبْلَ الْيَوْمِ

(١) النّشيل: اللحم المطبوخ أو الذي يُنشل من القدر قبل النضج، واللبن ساعة يُحلب، والشّواء: ما شوى من اللحم وغيره.

(٢) الكأس الأنف: التي لم يشرب بها قبل ذلك.

(٣) اللفف: ما يلف ويتناول من الطعام.

(٤) قطف: جمع قطوف وهو المتقارب الخطو أو البطيء من الدواب.

(٥) الأشقر: فرس لقيط بن زرارة.

(٦) العطف: جمع عطوف، وهو وصف من عطف عليه يعطف عطفاً إذا رجع عليه بما يكره أو له بما يريد.

(٧) الأغاني (١١/١٤٣).

فاليوم إذ قاتلتهم فلا لوم
تقدموا وقدموني للقوم
شتان هذا والعناق والنوم
والمضجع البارد في ظل النوم
فيرد عليه شأس بن بلي بأنه قاتل بني عامر من قبل ، ويعلم أسرار حريمهم وأنه
الفارس الذي يصلح للقيادة:
لكن أنا قاتلتها قبل اليوم
إذ كنت لا تغصى أموري في القوم

٥- النقائض في يوم الكلاب^(١) الأول:

وهو يوم بين الأخوين شَرْحَبِيل وسَلْمَة ابني الحارث بن عمرو بن أكل المرار الكندي، فالأول كان ملكاً على تميم وقيس ويطون من بكر بن وائل، والآخر كان ملكاً على بني تغلب. وتفاقم الأمر بين الأخوين حتّى جمع كل واحد منهما لأخيه الجموع وزحف إليه بالجيوش، وكان أبو حنشل زوّاراً للملوك عظيم القدر فيهم، وكان عند شرحبيل بن الحارث وكان معه ابنه معبد، وذات يوم رفع معبد القوس ورمى هامة الملك شَرْحَبِيل بسهم، فسقط الملك مغشياً عليه، وتَصَايَح النَّاسُ قَتَلَ الْمَلِكُ، وأفاق الملك بعد ذلك لكن ابنه عمراً قد أمسك بمعبد وقتله ووضع رأسه بين يدي الملك، فلما رأى أبو حنشل ما حدث لابنه انصرف من عند الملك وعاد لبني تغلب ووضع ظُبة سيفه على بطنه وحلف ليغمدن عليه حتّى يخرج من ظهره أو يدركوا له ثأره، وكانت تلك فرصة سانحة لأخيه سلمة إذ حشد تغلب كلّها معه ضد أخيه، فالتفت تغلب حوله وساروا إلى أخيه والتقى الجمعان عند ماء الكلاب، واقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً حتّى غشيهم الليلُ فنَادَى مُنَادٍ سلمة: من أتاني برأس شَرْحَبِيل فله مائة من الإبل، ونَادَى مُنَادٍ شَرْحَبِيل: من أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، فحمل أبو حنشل على شَرْحَبِيل ليقتله بابنه ويأخذ الإبل، فلما غشيه قال له شرحبيل يا أبا حنشل اللين اللين. أملك بسوقه أي لك الإبل ولا تقتلني بابنك فهو من عامة الناس وأنا ملك فَرَدَّ عليه أبو حنشل بأن ابنه كان ملكه، ثم قتله، وخشي أن يذهب برأسه إلى أخيه، فأرسلها مع خادم له ليعود إليه بالإبل التي وعد بها سلمة من يأتيه برأس أخيه، فلما رأى سلمة رأس أخيه، قال شعراً أظهر فيه حزنه وألمه

(١) أيام العرب (٥٦/٢) والعقد الفريد (٧٩/٦) والنقائض ص ٣٥٥.

وتمنى لو أن أبا حنش جاء ليأخذ الإبل بنفسه ويؤكد سلمة أن أخاه القتيل خير من قتل بين أحجار الكلاب، وأنه لم يكن جباناً ولكن أتباعه خذلوه^(١) :
 إلا أبلغ أبا حنش رسولا فما لك لا تحيي إلى الثواب
 ومالك لا تحيي إلى هجان منصبة الغوارب بالهضاب
 تعلم أن خير الناس طرا قتيلاً بين أحجار الكلاب
 تداعت حوله عمرو بن غنم وأسلمه جعاسيس الرباب
 قتيلاً ما قتيلك يا ابن سلمى تضر به قتيلك أو يحبابي
 ويلمح أبو حنش الغدر في دعوة سلمة، فيرد عليه بأنه فضل ألا يحضر أمامه، لأن الثواب الذي ينتظره هو القتل، لأن الغدر في بني أكل المزارع، فأبوه الحارث بن عمرو كان قد ترك ابناً له يسترضع بين حبي تميم وبكر، فلدغته حية فمات، فأخذ الحارث خمسين رجلاً من بكر فقتلهم بذلك، فكانت غدره شنعاء طوقت عنق الحارث حتى الممات^(٢) :
 أحاذر أن أجينك ثم تحبوا حباء أبيك يوم صنييعات
 وكانت غدره شنعاء سارت تقلدها أبوك إلى الممات
 تتابع سبعة كانوا لأم كأجرام النعام الحائرات
 ويبلغ خبر مقتل شريحيل أخاه غلفاء معدى كرب بن الحارث فيريته، ويبين مناقبه وشجاعته، وأنه لو كان موجوداً في المعركة لبدد شمل قاتليه ولسقى سيفه من دمهم، ذلك لأنهم غدروا به ولم يقابلوا إحسانه إليهم بإحسان مماثل^(٣) :

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٥٦/٢) والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٢) أيام العرب (٥٦/٢) والنقائض ص ٣٥٦.

(٣) أيام العرب (٥٨، ٥٧/٢) والنقائض ص ٣٥٧، والأنوار ومحاسن الأشعار (٢٢٠/١) والأبيات والرد عليها على وزن البحر الخفيف.

إنْ جَنَّبِي عَنِ الْفَرَاشِ لِنَابِي
 مِنْ حَدِيثٍ نَمَّا إِلَيَّ فَمَا تَرَقَّأُ
 مُرَّةً كَالزُّغَافِ أَكْتَمَهَا النَّابُ
 مِنْ شُرْحِبِيلٍ إِذْ تَعَاوَرَهُ الْأَرْمَاحُ
 يَا ابْنَ أُمِّي وَلَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ تَدُ
 لَتَرَكْتُ الْكُمَاةَ حَوْلَكَ صَرْعَى
 لَتَرَكْتُ الْحَسَامَ تَجْرِي ضِيَاهُ
 ثُمَّ طَاعَنْتُ مِنْ وَرَائِكَ حَتَّى
 أَحْسَنْتُ وَائِلُ وَعَادَتْهَا الْإِحْسَا
 يَوْمَ فَرَزْتُ بَنُو تَمِيمٍ وَوَلَّيْتُ
 وَجَّحَكُمْ يَا بَنِي أُسَيْدٍ إِنِّي
 أَيْنَ مُعْطِيكُمْ الْجَزِيلَ وَحَابِيكُمْ
 وَالْثَمَانِيْنَ قَدْ تَخَيَّرَهَا
 فَارَسُ يَضْرِبُ الْكَتَيْبَةَ بِالسَّيْفِ
 فَارَسُ يَضْرِبُ الْكُمَاةَ جَرَى
 وَلَا يَرُوقُ ذَلِكَ لِأَيِّ حَنْشٍ فِيرَدُّ عَلَيْهِ مَا ادَّعَاهُ مِنْ قُوَّةٍ وَبِأَسْ وَبِنِكَأُ جُرْحَهُ
 بِأَتَمِّهِمُ الَّذِينَ سَلَّمُوا أَخَاهُمْ لِلْقَتْلِ، بَلْ حَرَّضُوا عَلَيْهِ وَحَدَّدُوا قِيَمَةَ رَأْسِ أَخِيهِمْ
 بِمَائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، وَهَذَا عَارُ زَيْمًا لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ مِنْ قَبْلِ لَذَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْعَمُوا
 بِالْمُلْكِ، وَيَعْتَرَفُوا بِفَضْلِ الْقَاتِلِينَ بَدَلًا مِنَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ^(١)؛
 قُلْ لَذَا الْأَكْلُ الْمُرَارِ خُذْ الْمَلْكَ كَ لَا تَبْكِيْنَ قَتِيلَ الطَّلَابِ

(١) أيام العرب (٥٨/٢) والنقائض ص ٣٥٧ وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار (٢١٧/١).

قد تركنا أخاك في حمس النُقْ مع صريعاً مضرج الأثواب
 أسلمته على الكلاب تميمٌ بعد طعن الكلى وضرب الرقاب
 وأجبناك إذ دعوت وذو الثنا ج شربيل ثم غير حجاب
 تنتمي حولك الأراقم في النُقْ مع كأشد طريرة الأنياب
 فأنثنت عنه دارمٌ وبنو الفر ر ويربوعها وحي الرباب
 بين كابي الجبين مُنعِفُ الخد د وعان مشذب الأصحاب
 فقتلنا لك ابن أمك والمُل ك عقيم مُقطّع الأنساب
 أصبحوا بالكلاب تعتفر الضب مع عليهم وعاويات الذناب
 فاغتنبل يا ابن ذي المَرار عن القض د ولا يغرزك تيه الشباب
 واختزن بين ما يقول لك النُا س وحرب تحرُّ برد الشراب
 ويتصلُ بآل أكل المَرار مقتل حُجر بن الحارث أبي امرئ القيس، الذي قتله
 بنو أسد، وأخذ امرؤ القيس في طلب الثار والمُلْك معاً، فجَهَّز جيشاً كبيراً فيه
 فوارس بكر وتغلب، وعندما علم بنو أسد بذلك فُروا تاركين ديارهم إلى بني
 كنانة فتبعهم امرؤ القيس بجيشه، وتحت جُنج الظلام فر بنو أسد من ديار بني
 كنانة وفي الصباح هاجم امرؤ القيس بني كنانة ظناً منه أنه ظفر ببني أسد،
 وعندما علم بخدعة بني أسد له ندم ندماً كبيراً وأخذ يهدد أحياء بني أسد
 بالهلاك المحقق ثأراً لأبيه الملك^(١) :

يا لهف هُند إذ خطئن كاهلاً^(٢)

(١) أخبار المراقسة ص ١٩٧، وديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م ص ١٣٤، والأبيات على وزن البحر الرجز.

(٢) يا لهف هند، يا حسرة هند. وهي أخت امرئ القيس، خطئن: أخطأن ولم يصبن، يعني أن خيله التي أغار بها لم تصب بني كاهل، وهم حي من بني أسد كان فيمن شرك في قتل حجر.

تالله لا يذهبُ شَيْخِي باطلاً^(١)
 حتَّى أبيرَ مالِكًا وكاهلاً^(٢)
 ألقَاتِلِينَ المَلِكَ الحَلاَحِلَ^(٣)
 خَيْرَ مَعَدٍّ حَسَباً ونَائِلَ^(٤)
 وخَيْرُهُمْ قَدْ عَلِمُوا شَمَانِلًا^(٥)
 نَحْنُ جَلْبُنَا القَرْحَ القَوَافِلَ^(٦)
 نَحْمِلُنَا والأسَلَ النُّوَاهِلَ^(٧)
 وحي صعب والوشيج الذابِلَ^(٨)
 مُسْتَنْفِرَاتٍ بالخصى حَوَافِلَ^(٩)
 يَسْتَشْرِفُ الأَوَاخِرَ الأوَابِلَ

وينبري عبید بن الأبرص شاعرُ بني أسدٍ للرد على امرئ القيس بأن بني أسد
 لا تخافُ التهديد والوعيد وأن أباه قُتِلَ مُهانًا ذليلاً، ويرد عليه قوله بأنه قَتَلَ سادة
 بني أسد، ويصف ذلك بأنه كذبٌ ثم يذكر عبید في مقابل ذلك وقائع يفخر بها

(١) شيخي: يعني أباه. باطل: هدر.

(٢) أبير: أهلك وأبهد. مالك وكاهل: حيان من بني أسد.

(٣) الحلاحل: السيد الشريف الزكي الرضي، يعني أباه.

(٤) يريد أباه. النائل: العطاء الجزل.

(٥) والشمانل: الخصال الكريمة.

(٦) القرع القوافل: الخيل الضوامر.

(٧) الأسل النوהל: الرماح المتعطشة إلى الدماء فهي تعب فيها وتنهل.

(٨) حي صعب: من بقي مع امرئ القيس من أحياء بني أسد. الوشيج الذابل: الرماح اللينة.

(٩) مستنفرات بالخصى: يعني أن الخيل من شدة جربها تنثر الخصى بحوافرها فيتطاير من خلفها ويدخل

بين أفخاذها، فكأنها به مستنفرة، جوافل: سراع.

على امرئ القيس كان النصر فيها لبني أسد وأُتهم هزموا كندة غير مرة^(١) ومن ثمّ فهم جاهزون للقاء كندة في أي وقت^(٢) :

يَا ذَا الْمُخَوَّفِنَا بِقَتْلِ — لَأَبِيهِ إِذْ لَا وَحَيْنَا^(٣)
 أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ — سِرَاتِنَا كَذِبًا وَمَيْنَا^(٤)
 هَلَّا عَلَى حُجْرٍ بَنٍ أُمِّ — قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا^(٥)
 إِنَّا إِذَا عَضَّ الثُّقَا — فُ بِرَأْسِ صَعْدَتِنَا لَوَيْنَا^(٦)
 نَحْمِي حَقِيقَتَنَا وَبَعْدَ — ضُ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا^(٧)
 هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْدَ — سِدَّةِ يَوْمٍ وَلَوْ أَتَيْنَ أَيْنَا^(٨)
 أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ — بِبَوَاتِرِ حَتَّى انْحَنَيْنَا^(٩)
 وَجُمُوعَ غَسَّانِ الْمُلُوكِ — كَ أَتَيْنَهُمْ وَقَدْ انْطَوَيْنَا^(١٠)
 نَحْنُ الْأَلَى فَاجْمَعْ جُمُوعَ — عَكَ ثَمَّ وَجْهَهُمْ إِلَيْنَا^(١١)
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ جِيَادَنَا — أَلَيْنَ لَا يَقْضِيَنَّ دَيْنَا^(١٢)
 وَلَقَدْ أَبْخَنَّا مَا حَمَيْتَ — وَلَا مُبِيحَ لِمَا حَمَيْنَا^(١٣)

(١) هذه الوقعات لم ترد في أي مصدر ويبدو أنها من خيال عبيد بن الأبرص.

(٢) أخبار المراقسة ص ١٩٨، وديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م ص ١٣٦، والأبيات على وزن مجزوء الكامل.
 (٣) إِذْ لَا وَحَيْنَا: هَوَانًا وَهَلَاكًا.

(٤) المين والكذب سواء. وسرأتنا: سرأة القوم، رؤساؤهم ووجهائهم.

(٥) حُجْر بن أم قطام: أبو امرئ القيس، وهكذا كان يكنى من طريق النبز.

(٦) الثفاف: تقويم الرماح. لوينا: أملنا وأعرضنا، و(صعدتنا: رجحتنا).

(٧) الحقيقة: ما يحق للرجل حمايته وصيافته والذب عنه.

(٨) لعل هذا كان في زمن مضى من وقائع كندة ولم تذكره المصادر، أو هو من خيال عبيد بن الأبرص كما ذكرنا.

(٩) البواتر: السيوف المواضي.

(١٠) جموع غسان: قبائل غسان التي كان منها ملوك الشام. وهذا يدل على أنه يفخر بقديم.

(١١) نحن الألى: يريد نحن المعروفون من القديم.

(١٢) أَلَيْنَ: أَقْسَمَنَ.

(١٣) أَبَا حَ: جعله مباحًا تتناوله كل يد. والقصيدة طويلة انظرها في ديوان عبيد ص ١٣٦.

٦- نقائض داحس والغبراء:

يؤكد الرواة على أن حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان قد استمرت أربعين عامًا، وداحس هو فرس قيس بن زهير بن جزيمة العبسي، والغبراء فرس حذيفة بن بدر الذبياني، وقد تراهن قيس وحذيفة على سباق بين فرسيهما - داحس والغبراء - وخدع حذيفة قيسًا إذ أمر بكمين في الثنية ليوقفوا داحسًا حتى تسبق الغبراء، وكشف قيس الخدعة، وبسبب ذلك كانت الحرب الطويلة بين الحيين^(١):

وقد بدأها قيس بن زهير بغارته على بني بدر وقتل عوف بن بدر أخا حذيفة وأخذ إبله، وكان أخوه مالك بن زهير مقيمًا في بني بدر لأنه كان متزوجًا منهم، فأرسل إليه قيس بخيرد بما صنع ويأمره بالرحيل عن بني بدر قبل أن يقتلوه، وأنه لا ينبغي له أن يأمنهم وإن فعل فإنه هالك لا محالة^(٢):

أمالك لا تأمن فزارة واخشها فإنك إن تأمن فزارة هالك
أمالك إن تحسب مكانك فيهم صوابًا فقد أخطأت في الرأي مالك
فيرفض مالك النصيحة، ويرد عليه قوله، لأنه لم يقتل أحدًا حتى يطلب الثأر منه، وعلى قيس أخيه أن يتحمل وزر ما صنعت يداه وأنه لن يترك جوار بني بدر بسبب فعله أخيه^(٣):

يا قيس حسبك ما أتيت فخلني وبني فزارة إنني متماسك

(١) انظر تفاصيل حرب داحس والغبراء في أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور/ عادل جاسم البياضي، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، طبعة دار الكتب المصرية (١٨٧/١٧).

(٢) أيام العرب قبل الإسلام (١٩٤/٢)، والأبيات على وزن البحر الطويل.

(٣) السابق (١٩٤/٢)، والأبيات على وزن البحر الكامل.

أترى حذيفة أخذي بجريرة لم تجنّها كفى وأنت الفاتك
ويدفع مالك بن زهير حياته عندما أعرض عن نصيحة أخيه إذ يقتله حمل بن
بدر ويأخذ منه سيفه (ذو النون)، ثم يقتل الحارث بن زهير حمل بن بدر بأخيه
يوم الهباء^(١)، ويأخذ منه سيف أخيه القتل، ويفخر الحارث بذلك لأنه أخذ
سيف أخيه عنوة ولم يأخذه بالحيلة أو المودة^(٢)؛

تركت على الهباء غير فخر حذيفة حوله قصد العوالي
سيخير قومه حنش بن عمرو إذا لاقاهم وابنا بلال
وتجبرهم مكان السون منى وما أعطته عرق الخلال^(٣)
فيرد حنش بن عمرو أخو بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان عليه فخره، لأنه كان
جباناً في المعركة، ويدلل على قوله بأن الحارث كان واقفاً ومعه ترسه في يده وقد
هجم قرواش وعمرو بن الأسطح وقتلا من قتلا من بني عبس وهو ينظر إليهما
ولم يحرك ساكناً فلا مجال لفخره على بني ذبيان^(٤)؛

سيخيرك الحديث بكم خبير يجاهدك العداوة غير آل
بداءتها لقرواش وعمرو وأنت تحول، جوبك في الشمال^(٥)
وكان الربيع بن زياد العبسي مقيماً في بني بدر، وأراد قيس بن زهير أن يتقوى
به، ولا ينبغي للربيع أن يخذل قومه عند المحن، وعليه أن يحذو حذو أبيه في

(١) انظر في يوم الهباء: أيام العرب قبل الإسلام (٢١٨/٢)، والعقد الفريد لابن عبدبره، تحقيق الدكتور/
عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م (٢٢/٦).

(٢) أيام العرب قبل الإسلام (٢١٨/٢)، والأبيات والرد عليها عن وزن البحر الوافر.

(٣) العرق: المكافأة، والخلال: جمع الخلعة، وهي المودة.

(٤) أيام العرب قبل الإسلام (٢١٨/٢).

(٥) قرواش: هو قرواش بن عوف بن عاصم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع، وهو صاحب «جملوى» أم
داحس. انظر الأغاني (١٨٧/١٧)، والجوب: الترس.

الشجاعة وحسن الخلق وحماية القبيلة، وأنه إن لم يفعل ذلك فهذا هو البلاء الذي سيعمُّ جميع بني عبس^(١) :

أينجُو بنو بدر بمقتل مالكٍ ويخذلنا في النائبات ربيعُ
وكان زيادُ قبله يُثَقِّي به من الدهر إن يومَ ألمٍ فظيعُ
فقلْ لربيعٍ يحتذي فعلَ شيخه وما الناسُ إلا حافظٌ ومضيعُ
ولا فما لي في البلاد إقامَةٌ وأمر بني بدر على جميع
ولكنَّ الربيع بن زياد يرد على قيس قوله، فالجرب إذا كانت قادمة لا محالة فإنه لم يكن السبب فيها، وعلى مَنْ أشعلوها أن يتحمَّلوا نارها، وبالرغم من ذلك فإنه لا يستطيع أن يخذل قومه أبداً، وهذا ليس وقت اللوم^(٢) :

فإن تك حربيكم أمسّت عوانا فإني لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سورة أرثوها وحشوا نازها لمن اصطلاها
فإني غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها
ويتصل بالربيع بن زياد أنه كان نديماً للملك النعمان بن المنذر، وعندما ذهب أبو براء عامر بن مالك وإخوته: طفيل ومعاوية وعبيدة ومعهم ابن أخيهم لبيد بن ربيعة وهو غلام إلى النعمان بن المنذر وجدوا منه تغيراً وجفاءً لأن الربيع بن زياد طعن فيهم عنده وذكر معايبهم، وكانوا يدخلون على النعمان إلا لبيد، كان في رحالهم يحفظ أمتعتهم ويغدو بإبلهم كلَّ صباح فيرعاها، وعندما وجد أعمامه في غمٍّ مما فعل بهم الربيع بن زياد، طلب منهم أن يصحبوه عند دخولهم على النعمان، وعندما دخل لبيد وأعمامه كان النعمان والربيع بن زياد يأكلان، وتكلم أعمام لبيد واعترض الربيع بن زياد كلامهم فقال لبيد^(٣) :

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٢٠٣/٢)، والأبيات على وزن البحر الطويل.

(٢) أيام العرب قبل الإسلام (٢٠٣/٢)، والأبيات على وزن البحر الوافر.

(٣) الأغاني (١٨٥/١٧).

يارب هينجا هي خير من دعة
 اكل يوم هامتي مقزعة^(١)
 نحن بنو أم البنين الأربعة^(٢)
 ومن خيار عامر بن ضغصه
 المطعمون الجفنة المدغدة
 والضاريون الهام تحت الخيضة^(٣)
 يا واهب الخير الكثير من سعة
 إليك جاؤنا بلادا مسبعة
 يخبر عن هذا خبير فاشمعة
 مهلاً - أبيت اللعن - لا تأكل معه
 إن استه من برص ملومة
 وإنه يدخل فيها إصبعة^(٤)
 يدخلها حتى يوارى أشجعة
 كأنما يطلب شيئاً أطمعه^(٥)

فلما فرغ من إنشاده التفت النعمان إلى الربيع شزرًا يرمقه، فقال: أكذا أنت؟

(١) القزع: تساقط الشعر والصوف وبقاء بعضه.

(٢) أم البنين، هي ليلي بنت عامر. قال المرتضى: هي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة، وكانت تحت مالك ابن جعفر، فولدت له عامر بن مالك، وطفيل بن مالك، وربيع بن مالك، ومعاوية بن مالك.

(٣) المدغدة: المملوءة، الخيضة: البيضة التي تلبس على الرأس. والخيضة أيضًا: اختلاط الأصوات في الحرب.

(٤) الملمع: الذي يكون في جسده بقع تخالف سائر لونه.

(٥) الأشجع: واحد الأشاجع وهي أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

قال: لا، والله، لقد كذب عليّ ابن الحَمِقِ اللّثيم. فقال النعمان: أف لهذا الغلام،
لقد خَبِثَ عليّ طُعامي.

فأمر النعمان ببنى جعفر فأخرجوا. وقام الربيع فانصرف إلى منزله، فبعث
إليه النعمان بضغف ما كان يُحِبُّوه به، وأمره بالانصراف إلى أهله.

وكتب إليه الربيع: إني قد تَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ قد وَقَر في صَدْرِكَ ما قاله ليبيد،
ولستُ برائمٍ حتّى تبعثَ مَنْ يَجْزِدُنِي فيعلم مَنْ حضرك من الناس أُنّى لستُ
كما قال. فأرسل إليه: إنك لستَ صانعًا بانتفائك ممّا قال ليبيد شيئًا، ولا قادرًا
على ما زلتَ به الألسن، فالحق بأهلك. فأخذ الربيع يدافع عن نفسه مؤكّدًا كذب
ليبيد بن ربيعة طالبًا الإنصاف من النعمان^(١):

لئن رحلتُ جمالي إن لي سعةً ما مثّلها سعةً عَرْضًا ولا طُولًا
بحيثُ لو وُزِنَتْ لَخُمُ بِأَجْمَعِهَا لم يَغْدِلُوا ريشةً من ريشِ سمويلا^(٢)
ترعى الرّوائِمُ أحرارَ البَقُولِ بها لا مثّل رغيكم مَلَحًا وغَسُويلا^(٣)
فابْرِقْ بأَرْضِكَ يا نَعانَ مَتَكِنًا مع النّطاسي يَوْمًا وابْنِ توفيلًا
لكن النعمان يردُّ عليه طلبه ويؤكد عزمه على رحيل الربيع بن زياد إلى
أهله^(٤).

شَرِّدْ بِرَحْلِكَ عني حيثُ شئتَ ولا تكثُر عليّ ودغِ عنك الأباطيلا
فقد ذُكِرْتَ به والرَّكْبُ حَامِلُهُ وَزِدَا يُعَلِّلُ أَهْلَ الشّامِ والنَّيلا
فما انتِفَاؤُكَ مِنْهُ بعد ما جَزَعْتَ هُوجَ المَطَى به ابْزَاقَ شَمْلِيلا
قد قيلَ ذلكَ إنَّ حَقًّا وإنَّ كَذِبًا فما اعتذارُكَ من شئٍ إذا قِيلا
فالحقُّ بحيثُ رأيتَ الأرضَ واسعةً وانشُرْ بها الطَّرْفَ إنَّ عَرْضًا وإن طولا

(١) الأغاني (١٨٦/١٧)، والأبيات على وزن البحر الوافر.

(٢) سمويل: طائر، وقيل: بلدة كثيرة الطير.

(٣) الغسويل: نبت ينبت في السبخ.

(٤) الأبيات في الأغاني (١٨٦/١٧)، وهما على وزن البحر البسيط.

٧- نقائض يوم برزة:

وهو يوم لبني كنانة على بني سليم وقُتل فيه ذو التاج مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وأخوه كرز، قتلهما عبدالله بن جذل الطعان، وكانت سليم قد توجت مالكا وملكته عليهم وأخذ عبدالله بن جذل الطعان الكناني يفخر بقتله الأخوين وشجاعته في ذلك، وكيف أنه طعن مالك بن خالد طعنة فارس شجاع وليست طعنة فاتك، ثم طعن أخاه كذلك، لذا أصبحت سليم كلها، ساداتها وعامتها تحت وطأة سيفه^(١):

تَجَنَّبْتُ هَذَا زَغِيَةً عَنْ قِتَالِهِ

إِلَى مَالِكٍ أَعَشُو إِلَى ذِكْرِ مَالِكٍ

وَأَيْقَنْتُ أَيَّ ثَائِرِ ابْنِ مَكْدَمٍ

غَدَاتْنِي أَوْ هَالِكٍ فِي الْهَوَالِكِ

فَأَنْفَذْتُهُ بِالرُّمَحِ حِينَ طَعَنْتُهُ

مُغَالِبَةً لَيْسَتْ بِطَغْنَةِ فَاتِكِ

وَأَتْنِي لَكَرْزٍ فِي الْغِيَارِ بِطَغْنَةٍ

عَلَتْ جِلْدُهُ مِنْهَا بِالْخَمَرِ عَاتِكِ

قَتَلْنَا سُلَيْمًا غُثًّا وَسَمِينَهَا

فَضِيرًا غَضِي قَدْ صِيرْنَا كَذَلِكَ

ذَهْمَنَا هُمْ بِالْخَيْلِ تَشْتَدُّ بِالضُّحَى

بَغَابَاتِ أَثَلٍ مُشْرِفَاتِ الْخَوَارِكِ

فَدَى لَهُمْ نَفْسِي وَأُمِّي فَدَى لَهُمْ

بِبُرْزَةٍ إِذْ يُخِيطُنَهُمُ بِالسَّنَابِكِ

(١) كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار (١٢٢/١) وأيام العرب (٣١٣/٢) والعقد الفريد (٣٨/٦).

فإن تلك نسوانى يكنين فقد بكت

كما قد يكنين أم كرز ومالك
وتثار سليم لنفسها، وتجهز جيشاً جرّاراً بقيادة عمرو بن خالد بن صخر بن
الشريد، وقتلت كثيراً من بني كنانة، منهم: عاصم بن المغلّ وعمرو بن مالك
وحصن والمغارك، وأخذ عباس بن مرداس السلمى يرد على ابن جذل الطعان
فخره بأنهم قد ثاروا لمالك وكرز بقتلهم ثمانية من أشرف كنانة، وأن هؤلاء
الثمانية ليسوا كفأً لهما، وعلى ذلك فالموت ينتظر بني كنانة وأن سليم
ستلاحقهم أينما حلّوا^(١)؛

ألا أبلغا عنى ابن جذل وزهطه

فكيف طلبناكم بكرز ومالك
غداة فجغناكم بسفر وبائنه
وبائن المغلّ عاصم والمغارك
ثمانية منكم ثأرناكم بها
جميعاً وما كانوا بؤاء بمالك
قتلناكم ما بين مثنى وموحٍ
تكبكم أزماحنا في المغارك
نذيقكم - والموت بينى سرادقا
عليكم بنا - حد السيوف البواتك

(١) الأنوار وحاسن الأشعار (١٢٨/١) وأيام العرب قبل الإسلام (٣١٦/٢).

تلوحُ بأيدينا كما لاح يارقُ
 تَلَأُ في داجٍ من الليلِ حالِكِ
 فطُورًا نُلَاقِيكُمْ وطُورًا نَعْلُكُمْ
 بخطيةٍ فيها سَمَامُ الثَّيَازِكِ
 ضَبْحُنَاكُمْ العُوجُ العَنَاجِيحُ بالضحي
 تَمُرُّ بنا مَرُّ الرِّيحِ السَّوَاهِكِ
 إذا خرجتُ من هَبْوةٍ بغدِ هَبْوةٍ
 سميتُ نحو مُلْتَفٍّ من الموتِ شَابِكِ
 مُوَكَّلَةٌ بالسَّيْرِ نحو عُدُوتَنَا
 وبالرُّكُضِ مِنَّا المُلْحَقِ المُتَدَاكِ
 ويبلغُ يزيدُ بنُ عمرو بنِ كلابٍ مقتلُ مالِكِ بنِ خالدٍ وأخيه كُرْزٍ ويحزنُ عليهما
 ويرثيهما، ويؤكدُ أنَّ قتلَهُما ليسَ بالأمرِ الهَيِّنِ على نفسه وسوفَ ينتقمُ من
 قاتلِهِم، ويحزُّنُ عباسُ الأصمُّ أبا أنسٍ الرُّعْلِيَّ على بني فِرَاسٍ قومَ عبدِ اللهِ بنِ
 جَذَلِ الطَّعَانِ^(١) :
 لعمري وما غمري على بهينِ
 لقد خَبِرَ الرُّكْبُ اليماني فأوجعا
 نَعُوا مَالِكًا فَقُلْتُ ليسَ بمالكِ
 ولم أستطعُ عن مَالِكٍ ثَمَّ مَدْفَعَا

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٤، ١٢٥) وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٤)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

فَأَبْلَغُ سَلِيمًا أَنْ مَقْتَلِ مَالِكِ
 أَذَلُّ سُهُولِ الْأَرْضِ وَالْحَزَنُ أَجْمَعَا
 فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكِ
 قَتِيلًا بِحَزْنٍ أَوْ قَتِيلًا بِأَجْرَعَا
 فَلَا تَشْرِبَنَّ خَمْرًا وَلَا تَأْتِ حَاصِنًا
 أَبَا أَنْسِ حَتَّى يَرْوِكَ مُقْنَعَا
 فَلَوْ مَالِكُ يَبْغِي الثَّرَاتِ لَقَدْ رَأَوْا
 نَوَاصِي خَيْلٍ تَنْفُضُ السُّمَّ مُنْقَعَا
 أَنْزِلْهُ غَدُودًا فِرَاسُ بِفَخْرِهِمَا
 عَكَاظُ وَلَمْ نَجْزِءْ لَهَا الضَّاعُ مُتْرَعَا
 فِيرِدُ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَذَلِ الطَّعَانِ بَكَاءَهُ وَتَهْدِيدَهُ، فَدَمَوْعَةُ الْغَزِيرَةِ الَّتِي
 يَسْفَحُهَا عَلَى قَتْلِ بَنِي سُلَيْمٍ هِيَ دَمُوعُ ضَلَالٍ، إِذْ كَانَ الْأَوَّلُ بِهِ أَنْ يَسْفَحَهَا عَلَى
 قَتْلِ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي كِلَابٍ وَأَنَّهُ بِذَلِكَ مِثْلُ الْمَرْضِعَةِ الَّتِي تَهْتَمُّ بِأَوْلَادٍ أُخْرَى وَتَتْرَكُ
 بَنِيهَا لِلْهَلَاكِ جَوْعًا وَهُمْ الْأَحَقُّ وَالْأَوَّلَى بِرِعَايَتِهَا^(١)؛
 لَعَمْرِي لَقَدْ سَحَّتْ دُمُوعُكَ ضِلَّةً
 تَبْكِي عَلَى قَتْلَى سُلَيْمٍ وَأَشْجَعَا
 فَهَلَا شَتِيرًا أَوْ مُضَادَ بْنَ خَالِدٍ
 بَكَيتَ وَلَمْ تَتْرَكْ لَهَا الدَّهْرَ نَجْزَعَا^(٢)
 تَبْكِي عَلَى قَتْلَى سُلَيْمٍ شَفَاهَةً
 وَتَتْرَكُ مَنْ أَمْضَى مُقِيمًا بَضْلَفَا

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١/١٢٥، ١٢٦) وأيام العرب قبل الإسلام (٢/٣١٤).

(٢) في الاشتقاق ٢٩٧: «شتير بن خالد، كان فارساً شريفاً، وقتل الحصين بن ضرار الضبي، وابناه: مصاد وعنه، ابنا شتير.

كَمْ رُضِعَ أَوْلَادُ أُخْرَى وَضِيعَتْ
 بَيْنَهَا فَلَمْ تَرْقَعْ لَذِيكَ مَرْقَعاً^(١)
 لَقَدْ تَرَكْتُ أَفْنَاءَ حَنْدِفٍ كُلِّهَا
 لَغَيْنِيكَ مَبْكِي إِنْ بَكَيْتَ وَمَدْمَعَا
 تُحْرِضُ عِبَاساً عَلَيْنَا وَعِنْدَهُ
 بَلَاءٌ طَعَانٍ صَادِقٍ يَوْمَ نَضْرَعَا^(٢)
 فَإِنَّا بِهَذَا الْجِرْعِ قَدْ تَغْلَمُونَهُ
 وَإِنْ عَلَى الْجَفْرِينِ دَهْمًا مُنْمَعَا
 ويكون شعرُ يزيد بن عمرو الكلابي السابق هو الشرارة التي أُجِجَتْ نَارُ الثَّارِ فِي
 صدور بني سُلَيْمٍ لَأَنَّهُ طَلَبَ الْعَوْنَ فِي الثَّارِ لَهُمْ مِنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي رَعْلٍ، فَتَجَهَّزُوا
 وَتَقَابَلُوا بِالْكَدِيدِ^(٣)، وَهَزِمَتْ كِنَانَةُ أَمَامَ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأَخَذَ هَنْدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ
 صَخْرِ بْنِ الشَّرِيدِ السُّلَمِيَّ يَفْخِرُ بِأَنَّهُ ثَارٌ لِأَخَوِيهِ مَالِكٍ وَكَرَزَ، وَأَنَّهُ قَتَلَ سَادَةَ كِنَانَةَ
 لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ أَبْنَاءَ الشَّرِيدِ السُّلَمِيِّ لَا يَتْرَكُونَ ثَارًا لَهُمْ^(٤)؛
 قَتَلْتُ بِمَالِكٍ عُمَرَا وَحَصْنَا وَجَلَيْتُ الْقِتَامَ عَلَى الْخُدُودِ
 وَكُرَزَا قَدْ أَبَاتُ بِهِ شَرِيحَا عَلَى أَنْسِ الْفَوَارِسِ بِالْكَدِيدِ
 جَزِينَاهُمْ بِمَا انْتَهَكُوا وَزَدْنَا عَلَيْهِ مَا وَجَدْنَا مِنْ مُزِيدِ

(١) فِي اللِّسَانِ مَادَّةُ (ضَلْفَعٍ) رَوَى الْبَيْتُ:

انْتَسَى قُشَيْرًا وَالشَّرِيدَ وَمَالِكَا وَتَذَكَّرَ مِنْ أَنْسٍ سَلِيمَا بِضَلْفَعَا

(٢) هَذِهِ قَدْ يَكُونُ فِيهَا تَوْكِيدٌ خَفِيفٌ أَيُّ يَوْمٍ نَضْرَعُ غَيْرَ.

(٣) الْكَدِيدُ: مَوْضِعٌ بِالْحِجَازِ عَلَى اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ مِيلًا مِنْ مَكَّةَ، مَعْجَمُ الْبَلَدَانِ «الْكَدِيدُ» (٤٤٢/٤).

وَالْأَبْيَاتُ وَالرَّدُّ عَلَيْهَا عَلَى وَزْنِ الْبَحْرِ الْوَافِرِ.

(٤) أَيَّامُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ (٣١٦/٢) وَالْأَنْوَارُ وَمَحَاسِنُ الْأَشْعَارِ (١٢٩/١، ١٣٠).

جلبنا من جنوب الفرد جردًا كطير الماء غلى للورود
 عليها كل أدوخ أريجني كضوء البدر من آل الشريد
 صبحنا الحني حي بني فراس ململمة توقد في الحديد
 وتأتي المعارضة من داخل بني سليم، إذ يغضب نُبَيْشَةُ بن حبيب السلمي لما
 ذكره وافتخر به هند بن خالد في شعره السابق، لأن يوم الكديد هذا لم يشهده هند
 بن خالد ولا أحد من بني الشريد وإنما كان لنُبَيْشَةَ دون بني الشريد فكيف
 يفخر هند بيوم لم يشهده وبيطولات غيره فمن أقبح القبائح أن يأخذ المرء فضل
 غيره، وأن يقول ما لا يفعل^(١)؛
 تبخل صنعنا في كل يوم كمخضوب البنان ولا تصيد
 وتأكل ما يعاف الكلب منه وتزعم أن والدك الشريد
 أبى لي أن أقر الضيم قيس وصاحبه المزور به الكديد

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (١٣٠/١)، وأيام العرب قبل الإسلام (٣١٧/٢).

٨- النقائض في يوم جدود:

وهو يوم لبني سعد من تميم على بني شيبان من بكر بن وائل وكان على رأس بني شيبان الحوفزان الحارث بن شريك وعلى رأس بني سعد قيس بن عاصم، وكان بين الحوفزان وبين عنتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي التميمي^(١) مودة، فتصالح الحوفزان مع بني يربوع من تميم على أن يسمحوا له ولجيشه من بني شيبان بالمرور من ديارهم حتى يبلغوا طلبهم في بني عمومته من تميم، وينتصر بنو تميم على الحوفزان وبني شيبان لذلك يرجو قيس بن عاصم بني عمومته (يربوع) أولاً لأنهم سالموا العدو، وكشفوا ظهرهم في القتال، لذا سوف ينالون عقابهم جزاء ما فعلوا، وأنهم النموذج الأسوأ في ديار العرب، فعندما يُدعون للطعام لا يتغيب منهم أحدٌ وعند القتال لا يكتفون بالفرار بل بمساعدة العدو على أبناء عمومته، ثم يفخر بأن قومه هم الذين يعصمون بني تميم من الأعداء^(٢):

جزى الله يربوعاً بأسوا سعيها

إذا ذكرت في النايات أمورها

ويوم جدود قد فضحتكم أباكم

وسالتم الخيل تدمى نحورها

فأضبحتم والله يغلم ذاكم

كمهتوءة جزباء أبرر كورها

(١) هو فارس بني تميم في الجاهلية غير مدافع، وهو أحد الفرسان الثلاثة المدودين، أسر بسطام بن قيس يوم الغبيط وقتلته بنو أسد ليلة حو، الاشتقاق ص ٢٢٦.

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار (٩٣/١، ٩٤)، وأيام العرب قبل الإسلام (٤١٤/٢)، والأبيات ٤، ٢، ١ في الأغاني (٨٠/١٤)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

ستخزمن سغد والرياب أنوفكم
 كما غاط في أنف الظفور جريزها
 أفخرنا على المولى إذا ما بطننكم
 ولؤمنا إذا ما الحزب شرب سعيها
 اتابى وعيد الخوفزان ودونه
 من الأرض صخراوات فلج وقورها
 أقم بسبيل الحى إن كنت صادقاً
 إذا حشلت سغد وثاب نفيرها
 عضمتا تميمنا في الحروب فأضحيت
 يلوذ بنا ذو مالها وفقيرها
 ويرد مالك بن نوبة اليربوعي على قيس بن مالك المنقري فخره بني منقر
 قومه، وهجاءه لبني يربوع، فأما فخر قيس بن مالك بأن بني منقر يحمون تميمنا
 فهذا مردود لأنهم في الحرب مثل الإماء أو كبغات الطير لا فائدة تُرجى منهم،
 والدليل على ذلك أنهم يدفعون عشر أموالهم إلى ابن كوز الضبي لقاء لقوته
 وسطوته عليهم^(١) :
 سأسأل من لاقى فوارس منقر
 رقاب إماء كيف كان نكيرها

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار (٩٥/١)، وأيام العرب قبل الإسلام (٤١٤/٢).

وَكُنْتُمْ بَغَائًا إِذْ لَقِيتُمْ نِدَادَكُمْ
 مِنْ الْقَوْمِ ضَائًا لَا بِنِ كُوزِ عَشُورِهَا^(١)
 فَهَذَا أَوَانُ الْقَدْعِ يَنْزِي وَيَنْتَكِمُ
 كَوَادِنِ جُنْدٍ نَقَلَتْهَا أَيُورِهَا^(٢)
 مَجُوسِيَّةٌ كَغَبُ بْنُ سَعْدٍ وَيَنْتَهِي
 إِلَى نَيْتِ قَيْسٍ غَدْرُهَا وَفُجُورِهَا

(١) الْبَغَاثُ وَالْبَغَاثُ، بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ، كُلُّ طَائِرٍ لَيْسَ مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ، وَيَبْغَاثُ الطَّيْرِ: أَلَايْمُهَا وَيُشَارُهَا وَمَا لَا يَصِيدُ مِنْهَا. اللِّسَانُ «بَعث» (٤٥١/١)، وَالْعَشُورُ: أَخَذَ عَشْرَ الْأَمْوَالِ. (اللِّسَانُ) عَشْرَ (٢١٧/٩)، وَابْنُ كُوزٍ: رَجُلٌ مِنْ ضَبَّةٍ. انْظُرْ: اللِّسَانُ «كُوز» (١٨٦/١٢).

(٢) الثَّقَلُ، بِالتَّحْرِيكِ: الْغَنِيمَةُ وَالْهَبَةُ. اللِّسَانُ «نَقَلَ» (٢٤٤/١٤)، وَالْقَدْعُ: الْفُحْشُ. اللِّسَانُ «قَدَعَ» (٧٤/١١)، وَالْكَوَادِنُ: هُمُ بَنُو مَنْقَرِ رَهْطِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ. انْظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي الْأَغَانِي (٦٩/١٤).

٩- يوم ذي نجيب:

وهو يومُ لبني تميم على بني عامر، وفيه أسِرَ يزيد بن عمرو الكلبي، وبعد أن افتدى نفسه أخذ يهجو بني تميم، ويعيرهم بأنهم يحبون الطعام ويؤثرونه حتى لو أدى إلى هلاكهم، ويذكرهم بيوم تحريق عمرو بن هند لهم، وكان قد أقسم أن يحرق من بني دارم من تميم مائة رجلٍ لأنهم قتلوا أخاه أسعد بن المنذر، وقد ظفر بتسعة وتسعين رجلاً منهم، وقذف بهم في النار، وكان في الوقت نفسه يمرُّ وفد البَراجم - وهم بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم - أبناء عمومة بني دارم المُحرِّقِينَ، فاشتَمُوا رائحة اللحم فظنُّوا أن عمرو بن هند يتخذ طعاماً، فعَرَّجَ عليه أحدهم، فقال عمرو: إِنَّ الشَّقِيَّ وافدُ البَراجم، ثُمَّ أمر به فُقْذِفَ في النار مُتَمِّمًا المائة، وهذه سُبَّةٌ في جبين بني تميم يذكُرُها لهم يزيد بن الصعق الكلبي:

ألا أبلغُ لَدَيْكَ بني تميم بآية ذكرهم حبَّ الطعام^(١)
أجارتها أسيدٌ ثم غابت بذات الضرم منها والسنام
فيرد عليه أوسُ بن غلفاء التميميُّ بأنَّه لا يعرف فضل بني تميم عليه إذ منُّوا
عليه وأطلقوه بعدما وقع أسيراً في أيديهم، فبدلاً من شكرهم والاعتراف بفضلهم
كما يفعل الكرام، أخذ يزيد يهجوهم وتلك هي أفعال اللئام، ويذكره أوس بيوم
أسره عندما أهانوه وضربوه ولم يك يدفع عن نفسه شيئاً:

فأجر يزيد مذموماً وانزع على علب بأنفك كالخطام
وأنك من هجاء بني تميم كمزداد الغرام إلى الغرام
هم منُّوا عليك فلم تثبهم قتيلاً غير شتم أو خصام
وهم ضربوك ذات الرأس حتى بدت أم الفراخ من العظام
وهم تركوك أسلح من حبارى رأيت صقراً وأشرد من نعام

(١) الشعر والرد عليه في أيام العرب قبل الإسلام (٥٤٤/٢، ٥٤٥) وهي على وزن البحر الوافر.

١٠- يوم أضاح:

وهو يوم بين بطني بني تميم، مجاشع ونهشل، وفيه انتصر حريّ بن ضمرة النهشليّ لجار له من بني أسد يُسمى عمرو بن عمران، كان قيس بن حسان قد أخذ منه قلوّصاً، فقام حريّ وضرب قيساً بالسيف ففقطع زنديه وأخذ منه ثلاثين بعيراً فدفعها إلى الأسدّيّ، فكلم بنو نهشل حريّ بن ضمرة أن يرد على قيس إبله فأبى، فطلب بنو نهشل من بني مجاشع الإبل أو يعلنوا أن حريّاً قد أصبح خليعاً ليتمكنوا منه، فخلع بنو مجاشع حريّاً، فأخذه بنو نهشل وضربوه بأضاح وأخذوا منه ثلاثين بعيراً.

وعلى أثر ذلك يهجو شماس بن أسود الطهويّ حريّ بن ضمرة النهشليّ هجاءً مقذعاً، فقد عبّره بالضرب والسّحل ببطن أضاح وأن بني مجاشع أعزة يدرّبون الغير على العزة والكرامة، وأن حريّ بن ضمرة لا يعلم شيئاً عن صلة الرحم ولعل شمع النعل أكثر علماً منه^(١):

يا ويح حريّ علينا ورهطه	ببطن أضاح إذ يجزّ ويسحب
قضاء لنواس بما الحق غييره	كذلك يخزوك العزيز المدرب
فإلا تصل رحم بن عمرو بن مرثد	يعلمك وصل الرحم نسع معضب
فإنك لولا خفرك العز حلقت	بما نلت من قيس غقاب ثقّلب
فصرت ذليلاً في الجمار ودارم	ولو خرشت ما تحت خصييك عقرب
أغرك يوماً أن يقال ابن دارم	وتقصي كما يقصّي من البرك أجرب
فأذ إلى قيس بن حسان ذوده	وما نيل منك التمر أو هو أطيّب
ويأتي رد حريّ بن ضمرة قويّاً، فهو يرد على الهجاء بهجاءً مماثل ويزيد على ذلك	

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٢/٦١٤)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

فخره بنسبه، أما الهجاء، فقد عمد على أن رهط شماس لا يجدون لهم مكاناً غير
الذل، فعندما ينقسم الناس إلى فريقين: ذليل وعزيز، فإن الذل هو نصيب رهط
شماس ولا مهرب لهم عنه، وأن ما وصف به شماس حريّ بن ضمرة فهو كذب
وبهتان، لأن حري بن ضمرة ورهطه هم ذؤابة بني دارم التي كتب لها الله العزو
السؤدد^(١):

يا ويح شماس علينا ورهطه	إذا الناس غدوا تبعهم وتحزبوا
ولا ذلّ الذليل بالعزّيز فلم يكن	إلى رهط شماس من الذلّ مهرب
فاند على من كان من شحط بيننا	كما قيل للواشي أغش وأكذب
بكفّي حسام ما نبا عن ضريبة	ونبعية ممّا تجود عليه
أمر لها مربوع متن كأنه	مرئ قطاة لمه المتعقب
وزرق قران يقلس السّم حدها	يدز عليها سمها وتذب
لنا رأس ربعي من المجد لم يزل	لذن أن أقامت في تهامة كبك
أبى الله ما دامت ذؤابة دارم	لي الدهر عم يحرك المجد أو أب

(١) أيام العرب قبل الإسلام (٦١٤/٢).

١١- يوما الجفار^(١) وذات الشقوق^(٢):

تحالفت أسدٌ وطيءٌ وعطفانٌ، وغزت بني عامر بن صعصعة يوم النّسار^(٣)
فقتلوا بني عامر قتلاً شديداً. فغضبت تميمٌ لبني عامر فتجمّعوا معهم حتّى لقوا
الأحلاف أسداً وطيئاً وعطفاناً، يوم الجفار، فقُتِلَت تميمٌ أشدّ مما قُتِلَت عامرٌ
فأخذ بشر بن أبي خازم الأسديّ يفخر على تميمٍ وعامرٍ ويعدد هزائمهم المتتابة
أمام بني أسد^(٤):

سائلٌ تميمًا في الحروب وعامراً وهل المُجربُ مثلُ من لم يعلم^(٥)
غضبت تميمٌ أن تُقتل عامرٌ يوم النّسار فأغقبوا بالضّيل^(٦)
كُنّا إذا نعزوا لحزبٍ نغرة نشفي صداعهم برأسٍ مضدم^(٧)
نغلو القوائس بالشّيف ونغترى والخنيل مشعلة النّحور من الدّم^(٨)

(١) الجفار، بالكسر، موضع بنجد، معجم البلدان «الجفار» (١٤٥/٢).

(٢) ذات الشقوق: موضع بين ديار بني يربوع من تميم وبني أسد. انظر: معجم ما استعجم «ذات الشقوق» (٨٠٦/٣).

(٣) النّسار، بكسر أوله على لفظ الجمع، أجبل صغار في جمى ضرية. انظر: معجم ما استعجم «النساء» (٣٠٦/٤).

(٤) الأبيات من المفضلية رقم (٩٩) وعددها اثنان وعشرون بيتاً. وهي والرد عليها على وزن البحر الكامل.

(٥) المجرب، بكسر الراء وفتحها. مثل: نقل الأنباري أن الرواية بالنصب وأن الرفع جائز، وقال: «نصب مثل على مذهب الصفة»، وأراد بالصفة أنه ظرف، وهو مذهب الكوفيين.

(٦) الضيل: الداهية. أي كانت الضيل عاقبة أمرهم. ورواة في اللسان: «فأعقبوا» من الإعتاب، وهو الإرضاء. وهذا تحكم.

(٧) نعروا: صاحوا. الرأس: القوم إذا كثروا وعزوا. مضدم: شديد. جعل شفاء الصداع مثلاً، كأنه قال: أتونا وفي رؤوسهم منا أمر يريدون أن يبلغوا فيه منا فأذهبنا ذلك عنهم وأخلفناه عندهم برأس مضدم.

(٨) القونس: وسط بيضة الرأس. نعتري: الاعتزاء أن ينتسب الرجل إلى أبيه، يقول عند اللقاء لخصمه: خذها وأنا ابن فلان. المشعلة: التي كثر فيها الدم فصار كالشعلة.

يُخْرِجُنْ مِنْ خَلَلِ الْغُبَارِ عَوَابِسَا	خَيْبَ السَّيَاحِ بِكُلِّ أَكْلَفٍ ضَيْغَمٍ ^(١)
مِنْ كُلِّ مُسْتَرْجَى النَّجَادِ مَنَازِلِ	يَسْمُو إِلَى الْأَقْرَانِ غَيْرِ مُقَلِّمٍ ^(٢)
فَفَضُّنْ جَمْعَهُمْ وَأَقْلَنْتِ حَاجِبُ	تَحْتِ الْعِجَاجَةِ فِي الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ ^(٣)
وَرَأَوْا غُفَابَهُمُ الْمُدْلَةَ أَضْيَحَتْ	نُبِذَتْ بِأَفْضَحِ ذِي غَالِبٍ جَهْضَمٍ ^(٤)
أَقْصَدُنْ حُجْرًا قَبْدَ ذَلِكَ وَالْقَنَسَا	شَرَعَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَكْبَّ عَلَى الْفَمِ ^(٥)
يَنْوِي مُحَاوَلَةَ الْقِيَامِ وَقَدْ مَضَتْ	فِيهِ مَخَارِصُ كُلِّ لَذْنٍ لَهْزَمٍ ^(٦)
وَبَنِي ثَمِيرٍ قَدْ لَقِينَا مِنْهُمْ	خَيْلًا تَضِبُّ لِثَائِمًا لِلْمَغْنَمِ ^(٧)
فَدَهْمَنَّهُمْ دَهْمًا بِكُلِّ طِمْرَةٍ	وَمُقَطَّعِ حَلْقِ الرَّحَالَةِ مَرْجَمٍ ^(٨)
وَلَقَدْ خَبَطُنْ بَنِي كِلَابٍ خُبْطَةً	أَلْصَقْنَهُمْ بِدَعَائِمِ الْمُتَخِيمِ ^(٩)

- (١) العوابس: الكرهات المنظر لما لهن فيه من الحرب والجهد. خيب السباع: خيب ضرب من العدو. الأكلف: الذي يخالط بياضه سواد، عني به الفارس. الضيغم: الأسد.
- (٢) النجاد: حمائل السيف. أراد أنه طويل الحمائل لطوله. المقلّم: الذي ليس بتمام السلاح، يعني أنه كامل السلاح. وهذا المعنى نقله الأنباري وليس في المعاجم، وكأنه نظر فيه إلى قولهم «أسد أظفاره لم تقلم».
- (٣) حاجب: هو ابن زرارة وكان رئيس القوم.
- (٤) العقاب: الراية التي يقاتلون تحتها. قال المرزوقي: «كانت راية بني تميم على صورة العقاب، وراية بني أسد على صورة الأسد». المدلة: التي أصحابها مدلون بجمعهم. بأفصح: يعني بأسد فيه حمرة وبياض. وفيه إشارة إلى راية بني أسد. الجهضم: القوي الشديد، أو هو الذي إذا قبض على شيء مات مكانه من شدة قبضته. وهذان التفسيران ليسا في المعاجم.
- (٥) أقصدن: قتلن؛ حجر، هو ابن عمرو الكندي والد امرئ القيس، كان ملكاً على بني أسد ثم قتلوه.
- (٦) المخارص: الأسنة. اللدن: اللدن؛ اللين المهزلة. اللهزم: الخاد. أي ينوي أن يقوم فلا يقدر وقد مضت فيه الأسنة.
- (٧) تضب لثائم: تسيل من الحرص، وأراد بالخيال الفرسان.
- (٨) دهمهم: غشينهم وحملن عليهم. الطمرة: الوثابة. الرحالة: سرج من جلود، يريد أنه لشدة وثبه يقطع حلق الرحالة. المرجم: الذي يرمي الأرض بشدة وقع حوافره.
- (٩) المتخيم: موضعهم الذي خيموا به، أي أقاموا وبناو الخيمة، يقول: داستهم الخيل حتى ألصقتهم بدعائم متخيمهم.

وصلقن كغبا قبل ذلك صلقة بقنا تعاورة الأكف مقوم^(١)
حتى سقيناهم بكأس مرة مكروهية حسواتها كالعلم^(٢)
وبعد هذا اليوم يحرم ضمرة بن ضمرة النهشلي على نفسه الخمر حتى يظفر
ببني أسد في يوم يكافئ يوم الجفار، وأغار عليهم في يوم ذات الشقوق فقتلهم قتلاً
شديداً ومن ثم نراه يفخر بهذا اليوم الذي أدرك فيه ثأره، ويرد على بشر بن أبي
خازم الأسدي فخره بالقوة التي هزمت جموع تميم وعامر، لأن نساء هؤلاء
الفرسان الذين يفخر بهم بشر قد أصبحن مرملات بعد يوم ذات الشقوق^(٣)؛
الآن ساغ لي الشراب ولم أكن آتي التجار ولا أشد تكلمي
حتى صبحت على الشقوق بغارة كالتمر ينتز في حرير الحر
وأبأت يوماً بالجفار بمثله وأجرت نصفاً من حديث الموسم
ومشئت نساء كالظباء عواطلاً من بين عارفة السباء وأئم
ذهب الرماح بزوجه فتركته في صدر معتدل القناة مقوم

(١) صلقت: ضربت، تعاورة الأكف: تداوله، يقال تعاورناه ضرباً؛ إذا ضربته أنت ثم صاحبك. مقوم: صفة للقتال.

(٢) حسوات، بضم الحاء مع ضم السين وفتحها: جمع حسوة، وهي القليل مما يشرب قدر ملء القم.
(٣) الأبيات في: أيام العرب قبل الإسلام (٥٤٢/٢)، والعقد الفريد (١٠٠،٩٩/٦) ونهاية الأرب (٤٢٢/١٥)، والأبيات على وزن البحر الكامل.

١٢- النابغة الذبياني والنقائض:

١- النابغة وعامر بن الطفيل:

ترأس عامر بن الطفيل بني عامر وهو شاب يتجاوز عمره العشرين سنةً بقليل^(١)، وإذا كان من عادة العرب أن رئيس القبيلة يظل رئيساً حتى موته مهما تقدّم به العمر، فإن عامر بن الطفيل استطاع أن يعزل عمّه أبا براء عامر بن مالك بن جعفر، وينفرد بقيادة بني عامر، فأسس جيشاً نظامياً كبيراً ليؤدّب به قبائل العرب، ويخضعهم له، ويحقق لنفسه ما يطمح إليه من سؤدد وجاه وساعده على ذلك التفاف العامريين حوله إضافة إلى الغرور والتعالي اللذين تميز بهما عامر ابن الطفيل^(٢).

لذلك نراه يفخر على النابغة الذبياني بقوة بني كلاب، وهي قوة غير غاشمة تتناسب وقيادتهم وسيادتهم، وأن بني عامر أرسلت رسلاً ناصحين إلى بني بغيض (عبس وذبيان) لكنهم لم ينتصحو حتى وقعوا تحت وطأة سيوف بني عامر ثم يحذر النابغة وقومه من مغبة العصيان^(٣):

ألا من مبلّغ عني زياداً غداة القاع إذ أرف الضراب^(٤)

(١) الأبيات على وزن الكامل وهي في: أيام العرب قبل الإسلام (٥٤٢/٢) والعقد الفريد (١٠٠،٩٩/٦) ونهاية الأرب (٢١٤٢/١٥).

(٢) انظر ذلك تفصيلاً في كتابنا: شعر بني عامر (٥٠/١).

(٣) ديوان عامر بن الطفيل: تحقيق ودراسة الدكتور/ أنور أبو سويلم، الطبعة الأولى، دار الجليل، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ص٢٥١، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٤) يرید النابغة الذبياني، واسمه: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مزة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض. جمهرة أنساب العرب ص٢٥٢، «يوم القاع» وهو من أيام العرب، كان بين بكر بن وائل وبني تميم، وفي هذا اليوم أسر بسطام بن قيس الشيباني أوس بن حجر. انظر: معجم البلدان (٢٩٨/٤). «شعب جثلة»، والشعب قاع في أصله. قال ابن منظور: القاع والقاعة والقيع: أرض واسعة سهلة مطئنة مستوية حرة لا حُرُونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط تنفرج عنها الجبال والأكام ولا حصى فيها ولا حجارة، وهي مُنتَقِع الماء في حرّ الطين، والجمع: أقواع وأقووع وقيعان.

عداء تَشُوبُ خَيْلُ بني كلابٍ على لَبَاتِهَا عُلِقَ يُشَابُ^(١)
فإن لنا حُكُومَةَ كُلِّ يَوْمٍ يُبَيِّنُ في مفاصِلِهِ الصُّوَابُ^(٢)
وإني سَوْفَ أَحْكُمُ غَيْرَ عَادٍ ولا قَدَحٍ إِذَا التَّمَسَّ الجَوَابُ^(٣)
حُكُومَةَ حَازِمٍ لا غَيْبَ فِيهَا إِذَا ما القَوْمُ كَظَّ لَهُمُ الخَطَابُ^(٤)
فإن مطيئة الحُلُمِ الثَّانِي على مَهْلٍ وَلِلْجَهْلِ الشَّبَابُ
وليس الجَهْلُ عَنْ سَنٍّ وَلَكِنْ غَدَتِ بِتَوَافِذِ القَوْلِ الرِّكَابُ
فإن بني بَغِيضٍ قد أَتَاهُمْ رَسُولُ النَّاصِحِينَ فَمَا أَجَابُوا^(٥)
ولا رَدُّوا مُحْـمُوزَةً ذَاكَ حَتَّى أَتَانَا الحُلُمُ وانخَرَقَ الحِجَابُ^(٦)

(١) يريد قومه من بني (مالك بن جعفر بن كلاب) وهم وبنو (جعفر بن كلاب) رأس بني عامر، ومن بني مالك عامر بن الطفيل، ومن بني جعفر علقمة بن غلانة. اللب: موضع المُنْحَر من كل شيء، واللباب جمع اللبة وهي اللهزمة التي فوق الصدر وفيها تُنْحَر الإبل. اللسان (لب). العلق: الدم ما كان. وقيل: هو الدم الجامد الغليظ. وقيل: هو ما اشتدت حمرة الواحدة غَلَقَة. اللسان (علق). يُشَاب: يُخْلَط، من شاب يَشُوب شُوبًا وشيئًا، وهو مَشُوب أي مخلوط ومزوج. يريد أن لبات الخيل يشوبها دم الأعداء، أو أن دم قومه سقط على لبات.

(٢) الحُكُومَة: الحكم، حَكَمَ يَحْكُمُ حُكْمًا وحُكُومَةً. قال الأصمعي: أصل الحُكُومَة: رد الرجل عن الظلم ومنه سُمِّيت حُكْمَةُ اللِّجَام لأنها تَرُدُّ الدَّابَّة. يقال: حَكَمْتُ في الأمرِ فاحتكم: جاز فيه حُكْمُهُ، والاسم الأَحْكَومَة والحُكُومَة. اللسان (حكم).

(٣) القَدَح: الحنى والفحش، قَدَحَ يَقْدَحُ قَدَحًا، ومنه هجاء مُقْدَح الذي فيه فُحْش وقَدْح وسَبُّ يَقْبُحُ نُشْرُهُ. وهو كلامٌ قَدَحَ قَدَحًا وقَدَحَ قَدَحًا، أي فاحش. اللسان (قدح).

(٤) كَظَّهُ الأمرُ يَكْظُهُ كَظًا: يَهْطُ وَكَزَبُهُ وَجَهْدُهُ. والكِظاظ: الشِدَّة والثَّغْب، انظر: اللسان «كفظ».

(٥) بنو بَغِيض بن رَيْث بن عَطْفَان: أنمار، وعُيس، وذُبَيان (ومنهم النابغة الذبياني). ويُنو مُرَّة من ذُبَيان، وبنو قُرَازَة من ذُبَيان، ومازن وشمخ من قُرَازَة. انظر: أنسابهم في جبهة أنساب العرب، ص ٢٥٠-٢٥٩.

(٦) تقول: كَلَمْتُهُ فَمَا حَارَ إِلَيَّ جَوَابًا، وما رَجَعَ إِلَيَّ حَوِيرًا وَنَحْوَرَةً وَنَحْوَرَةً وَنَحْوَرَةً وَنَحْوَرَةً وَنَحْوَرَةً، أي ما رَدَّ جَوَابًا، والاسم من المُحَاوَرَة: الحَوِير، والمُحَاوَرَة: المُجَاوَبَة ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. والمحورة من المُحَاوَرَة مُضْدَر. وهو ضعيف الحَوَر والمُحَوَرَة: أي المُحَاوَرَة. اللسان (حور).

فإن مقالتي ما قد علمتم وخيلي قد يحل لها النهاب^(١)
إذا يئمن خيلاً مسرعات جزي بنحوس طيرهم الغراب^(٢)
وإن مرت على قوم أعاد بساحتهم فقد خسروا وخابوا
ولما بلغ هذا الشعر شعراء بني ذبيان، أرادوا هجاء عامر بن الطفيل واثمروا
له، فأمرهم النابغة بالتوقف عن هذا وأنه سيتكفل بالرد عليه، وكان النابغة ذكياً
في رده، فهو يعرف نقاط الضعف في شخصية عامر بن الطفيل ويعلم أن عامراً لا
يكيد شئ قدر تصغيره وتفضيل عمه أبي براء عليه، لذلك نجد النابغة يقول
لشعراء قومه: دعوني أجبه، وأصغر إليه نفسه، وأفضل إليه أباه وعمه، فإنه يرى
أنه أفضل منهما وأعبر بالجهل^(٣). لذلك نرى النابغة يركز في رده على نقض
المعاني التي افتخر بها عامر بن الطفيل، فإذا كان عامر قد فخر بقوته وشبابه
وحكمته، فإن النابغة يثبت له غير ذلك، فهو شاب جاهل، والحكمة والصواب
هما من نصيب أبيه وعمه أبي براء وهو لا يعرف عنهما شيئاً، وأن عامر بن
الطفيل لن يصل إلى الحلم ويقلع عن الجهل حتى يشيب الغراب^(٤)؛
فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب^(٥)

(١) النهب: الغنيمة، والجمع: نهب ونُوب. والنَّهْبَةُ والنَّهْيُ والنَّهْيُ كل اسم الانتهاب والنَّهْبُ أيضاً: الغارة والسلب. اللسان (نهب).

(٢) الغراب من أشأم الطيور عند العرب، ومن اسمه اشتقوا ألفاظ الغربة والاعتراب والغريب، وتشاءموا من صياحه لأنه نذير الفراق والمصائب، وهو من كلاب الطير لأنه يأكل الميتة والجيف. انظر: النويري، نهاية الأرب، (٢٠٦/١٠).

(٣) انظر: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م ص ١٠٩.

(٤) السابق، ص ١٠٩، ١١٠.

(٥) عامر هذا هو عامر بن الطفيل العامري. وقوله: «فإن مظنة الجهل الشباب». يريد أن الشباب مقرون به الجهل، ملازم له. ومظنة الشئ: الأمر الذي لا يكاد يطلب فيه إلا وجد به، وهو مشتق من الظن، أي حيث يظن أنه لا يفارقه. و«السباب»، يريد إنما يعلم الجاهل ويتبين جهله عند سب غيره.

فَكُنْ كَأَبِيكَ، أَوْ كَأَبِي بَرَاءٍ تُوَافِقُكَ الْحُكُومَةُ وَالصَّوَابُ^(١)
وَلَا تَذْهَبْ بِحُلْمِكَ طَامِيَّاتٍ مِنَ الْخِيَلِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابُ^(٢)
فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنْهَى إِذَا مَا شَبَّتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ^(٣)
فَإِنْ تَكُنِ الْفَوَارِسُ يَوْمَ جَسِيٍّ أَصَابُوا مِنْ لِقَائِكَ مَا أَصَابُوا^(٤)
فَمَا إِنْ كَانَ مِنْ نَسَبٍ بَعِيدٍ وَلَكِنْ أَذْرُكُوكَ وَهُمْ غَضَابُ^(٥)
فَوَارِسُ مِنْ مَثُولَةٍ غَيْرِ مَيْلٍ وَمُرَّةٌ، فَوْقَ جَمْعِهِمُ الْعُقَابُ^(٦)

- (١) قوله: «أو كأبي براء» هو عامر بن مالك ملاعب الأستة، وهو عم عامر بن الطفيل بن مالك (والحكومة: الحكم).
- (٢) الطاميات: المرتفعات، يقال: طَمَأَ الماء، إذا علا وارتفع. والخِيَلَاء: التكرُّر والبَطَر. وقوله: «ليس هنَّ باب»، أي لا آخر هن ولا منتهى.
- (٣) وقوله: «إذا ما شَبَّتَ أو شاب الغُرَاب»، أي لا تكون حلمًا، ولا تنتهي إلى ما أنت عليه من الجهل، حتى يشيب الغُرَاب، أي لا تحلم أبدًا، كما أن الغراب لا يشيب. وإنما هذا هُزُوٌّ منه به وذمُّ، وهذا كما تقول: لا تغلج حتى يشيب الغراب، أي لا تغلج أبدًا.
- (٤) قوله: «فإن تكن الفوارس يوم جَسِيٍّ»، يعني يومًا كان لبني ذبيان على عامر، قُتِلَ فيه أخوه حَنْظَلَةُ ابن الطفيل.
- (٥) وقوله: «فما إن كان من نَسَبٍ»، يقول: لم يكن ما لقيت منهم أُنْهَم لم يكونوا من عشيرتك، لكنهم كلهم من قيس غيلان، ولكنك أغضبتهم فعاقبوك.
- (٦) وقوله: «من مَثُولَةٍ»، قال ابن الأعرابي: مَثُولَةٌ امرأة من تغلب، وهي أم مازن وشمخ، ابني فزارة بن ذبيان. ومُرَّةٌ: هو مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذبيان. ومَيْلٌ: جمع أُمَيْل، وهو الذي لا يستوى على السرج إذا ركب. والعُقَاب: الرابية.

٢- النابغة وبدر بن حذار الفزاري

ينتمي النابغة وبدر إلى قبيلة ذبيان، فالنابغة ينتسب إلى بطن مرة بن عوف بن ذبيان، وبدر بن حذار ينتسب إلى فزارة بن ذبيان وتبدأ المناقضة بين الشاعرين عندما يُحذّر النابغة قومه عندما نزلوا «ذا أقر» وهو حمى للنعمان بن الحارث الغساني، فليس النعمان من يترك حماه مستباحاً، وبنو ذبيان لا يقدرّون على مواجهة جيشه الجرّار الذي يسير علانية من فرط قوته لا يخشى أن يراه الأعداء، وأن ناره يهتدي إليها الناس. ويظهر النابغة خوفه وجزعه على أهله وعشيرته، لاسيما النساء اللواتي يمكن أن يُصيبهنّ الأذى^(١):

لقد نهيتُ بني ذبيان عن أقرٍ وعن ترُبُعهم في كلِّ أصفارٍ^(٢)
وقلتُ: يا قومُ إنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ على بَرائِثِهِ الضَّارِي^(٣)
لا أعرفن زُبَرباً حُورًا مدامعها كان أبكارها نَعاجُ دَوَارٍ^(٤)
ينظرن شَزْزًا إلى من جاء عن عُرضٍ بأوجهِه مُنكَراتِ الرِّقِّ أحرارٍ^(٥)

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٧٥-٧٨، والأبيات والرد عليها على وزن البحر البسيط.

(٢) عن ترُبُعهم: أي حلولهم زمن الربيع فيه، في كلِّ أصفار: لأن صَفَرًا كان في الربيع يومئذ، وقيل: معناه حين ينصرف الماء ويتربّل الشجر، ويعرد الليل، وذلك آخر الصيف.

(٣) إنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ: أي مجتمع منهجىء للوثوب. والبرائث: المخالب. والضاري: من صفة الليث، ومعناه المتعوّذ أكل: الناس، وضرب هذا مثلاً للملك الذي حذّر قومه منه.

(٤) الزُّبَرَب: القطيع من البقر، شبه النساء به في حسن العيون وسكون المشى. والمدامع: العيون، وهي مواضع الدمع. والنعاج: إناث البقر. ودوار: موضع، وهو سجن باليمامة. لا أعرفن زُبَرباً: كأنه نهى نفسه، وإنما يريد: لا تقيموا في هذا الموضع فتسبى نساؤكم، فأعرف ذلك فيكم.

(٥) ينظرن شَزْزًا: أي ينظرن بمؤخر أعينهن، يلتفتن يميناً وشمالاً، طَمَعًا منهن أن يرين من يُعاديهن. وقوله: «عن عُرض»، أي عن ناحية. وقوله: «منكَراتِ الرِّقِّ أحرار» أي كُنَّ في حُرِّية، فلمّا سُبِينَ أنكرن الرِّقَّ والعبودية..

خَلَفَ الْعَضَارِيطُ لَا يُوقِينَ فَاخِشَةً مُسْتَمْسِكَاتٍ بِأَقْتَابٍ وَأَكْوَادٍ^(١)
يُذَرِينَ دَمْعًا عَلَى الْأَشْفَارِ مُنْخَلِدًا يَأْمَلْنَ رَحْلَةَ حِصْنٍ وَابْنَ سَيَّارٍ^(٢)
إِمَّا عُصِيتْ فَإِنِّي غَيْرُ مُنْفَلِتٍ مَنَى اللَّصَابُ فُجْنِبًا حَزَّةَ النَّارِ^(٣)
أَوْ أَضَعَ الْبَيْتَ فِي سُودَاءٍ مَظْلَمَةٍ تَقْيِيدُ الْعَيْرِ لَا يَسْرَى بِهَا السَّارَى^(٤)
تُدَافِعُ النَّاسَ عَنَّا حِينَ نَرْكَبُهَا مِنَ الْمَظَالِمِ تُدْعَى أُمُّ صَبَّارٍ^(٥)
سَاقِ الرُّفَيْدَاتِ مَن جَوْشٍ وَمَنْ عَظَمٍ وَمَاشٍ مِنْ رَهْطٍ رُبْعِيٍّ وَحَجَّارٍ^(٦)

(١) العضاريط: الأجراء والأتباع، واحد هم عُضْرُوط. وقوله: «لا يُوقِينَ فَاخِشَةً»، أى لا يمنع منهن الفواحش، لأنهن سبائيا مملكات، فالعضاريط يتمتعون منهن بما شاءوا والأقتاب: أعواد الرُّحْل. والأكواد: الرُّحَال، يصف أنهن مردفات، فهن يستمسكن بالرحال.

(٢) يُذَرِينَ دَمْعًا: أى يَضْبِيْنَهُ ويرمين به، يقال: أذرى دمعته، وأذراه عن فرسه، إذا رمى به. وقوله: «يأملن رحلة حصن وابن سيّار»، يريد حصن بن حذيفة الفزاري، وزيد بن سيّار، وكانا سيّدَيْ فِزَارَةٍ، وإنما يأملن رحلتها لئلا أسرهن، وإنما قال هذا تعريضاً بهما وتحضيضاً لقومه على مخالفة فِزَارَةَ بن ذبيان.

(٣) يقول لقومه، إن عصيتوني وأقمتم بهذا الموضع فإني أنزل هذه المواضع الوعرة، وألجأ إليها، فلا تصل إلى الخيل. واللصّاب: جمع لضب، وهو الشَّعْب الضَّيِّق في الجبل. والحزّة: الأرض الضَّلْبَةُ ذات الحجارة. وحزّة النار يقال هي لبني مُرَّة، ويقال لبني سُلَيْم.

(٤) أو أضع البيت في سوداء: أى أنزل في أرض سوداء فأضع بيتي بها. تَقْيِيدُ الْعَيْرِ: أى تمنعه المشى لصلابتها وصعوبتها، وإنما خَصَّ الْعَيْرَ لأنه أوقع الدَّوَابِّ، وأصلبها حافزاً، فإذا كان على قِيَحَتِهِ وصلابته يحفى ويمتنع من المشى؛ لِعِلْظِهَا وصعوبتها، فلا سبيل إلى أن تَطْلُهَا الخيل، أو يسير بها الجيش، وإنما يصف حَزَّةً.

(٥) يقول: هذه الحزّة تدافع الناس عَنَّا من المظالم إذا نزلناها. وأُمُّ صَبَّارٍ: اسم الحزّة. والصَّبار: الحجارة؛ فكان هذه الحزّة أُمَّ الحجارة لكثرتها، قيل: سماها بذلك، لأنه لا يقدر على العدو فيها لصلابتها إلا على صَبْرٍ وتحمل. وقوله: من المظالم يحتمل أن يكون من الظلم، ويحتمل أن يكون يريد جمع مظلمة نسبها إلى الظلمة والسواد، أى هذه الحزّة مظلمة من الحرارة المظالم، كما تقول: أسود من السُّودان.

(٦) سَاقِ الرُّفَيْدَاتِ: يعنى الملك الذي كان حذرهم إِيَّاه. والرُّفَيْدَات: حَيٌّ من كلب، يقال لهم: بنو رُفَيْدَةٍ. وجَوْشٍ وعَظَمٍ: موضعان في أرض كلب. وماشٍ: خَلَطٌ. وربْعِيٍّ وحَجَّارٍ: رجلان من قُضَاعَةٍ، وكلب أيضاً من قُضَاعَةٍ، يعنى أنه غزاها بقومه بأحياء من العرب، ولما قدم بالسبي وقد عليه النابغة فاطلقه له؟.

قَرَمَى قُضَاعَةَ حَلَا حَوْلَ حُجْرَتِهِ مَدَا عَلَيْهِ بِسُلَافٍ وَأَنْفَارٍ^(١)
 حَتَّى اسْتَقْلَ بِجَمْعٍ لَا كِفَاءَ لَهُ يَنْفَى الْوُحُوشَ عَنِ الصَّحْرَاءِ جَرَّارٍ^(٢)
 لَا يَخْفِضُ الرَّرَّ عَنْ أَرْضِ أَلَمٍ بِهَا وَلَا يَضِلُّ عَلَى مَصْبَاحِهِ السَّارَى^(٣)
 وَغَيْرُثْنَى بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ وَهَلْ عَلَى بَأْنٍ أَخْشَاكَ مِنْ عَارٍ^(٤)

وهذا الخوف والهلع الذي يظهره النابغة يتنافى مع رؤية الفرسان العرب، الذين يؤمنون بحتمية الدفاع عن الأرض التي نزلوها، وأن الحلم الذي يدعو إليه النابغة هو نوعٌ من القهر والدّل الذي لا ترضاه ولا تقبله نفوسهم. وفي أثناء ذلك أغار رجلٌ واحدٌ من قُضَاعَةَ على بني مُرَّة (عشيرة النابغة) وأصاب ناسًا منهم واستاق ما شاء من الإبل، وهنا يشمتُ بنو فزارة في بني مُرَّة، فحذَرُهُمْ وعَقَلُهُمْ جعلهم مطمئناً لفرد واحد وليس لجيش جرّار ومن هنا يرد بدر بن حذار الفزاري على النابغة رافضاً دعوته للقبيلة بأن تبرح حمى النعمان الغساني، وأن دعوة النابغة تلك عار عليهم جميعاً^(٥) ولو أن الحلم ينفع في هذا الموقف لنفع النابغة وقومه وحماهم من هجمات الأفراد لا الجيوش:

(١) قَرَمَى قُضَاعَةَ: يعنى سَيَّدَى قُضَاعَةَ وَشَرَفَهَا. حَلَا حَوْلَ حُجْرَتِهِ: أى نَزَلَ حَوْلَ حُجْرَةِ الْمَلِكِ حِينَ أَرَادَ الْغَزْوَ. مَدَا عَلَيْهِ بِسُلَافٍ: أى مَدَّاهُ بِسُلَافٍ، وَهَمَّ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ الْقَوْمِ. وَالْأَنْفَارُ: جَمْعُ نَفَرٍ.
 (٢) حَتَّى اسْتَقْلَ بِجَمْعٍ: أى ارْتَفَعَ وَنَهَضَ نَحْوَ بَنِي ذُبْيَانَ. لَا كِفَاءَ لَهُ: أى لَيْسَ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُونُ مِثْلَهُ.
 يَنْفَى الْوُحُوشَ فِي الصَّحْرَاءِ: أى يُدْغِرُهَا فِي مَرَاتِعِهَا، لِكثْرَةِ جَلْبَتِهِ. وَالْجَرَّارُ: الَّذِي لَهُ إِخْوَانٌ وَتَوَائِعٌ، فَيَجْزُو بَعْضَهُ بَعْضًا، وَلَا يَكَادُ يَنْقُضَى.
 (٣) الرَّرَّ: الصَّوْتُ، يَعْنِي أَنَّهُ جَيْشٌ مَنِيْعٌ وَاثِقٌ بِكَثْرَتِهِ، فَهُوَ لَا يَخْفِضُ صَوْتَهُ خِيفَةً أَنْ يَشْعُرَ بِمَكَانِهِ، أَلَمٍ بِهَا: أى نَزَلَ بِهَا. لَا يَضِلُّ عَلَى مَصْبَاحِهِ السَّارَى: أى نِيرَانَهُ كَثِيرَةً، فَالسَّارَى يَهْتَدِي بِضَوْئِهَا، وَإِنَّمَا وَصَفَهُ بِكَثْرَةِ النَّارِ لِأَنَّهُ مَنِيْعٌ عَزِيزٌ، فَهُوَ يَشْهَرُ نَفْسَهُ، وَلَا يَبَالِي مَنْ شَعَرَ بِهِ، وَلَوْ كَانَ جَيْشًا ضَعِيفًا لَخَفَضَ صَوْتَهُ، وَلَا اخْتَدَ نَارَهُ، خِيفَةً أَنْ يَبِيتَ فَيُوقَعَ بِهِ.
 (٤) وَغَيْرُثْنَى بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ: أى خَشِيتِ الْمَلِكُ فَأَخْبَرَ عَنْهُ، ثُمَّ خَاطَبَهُ، فَقَالَ: «وَهَلْ عَلَى بَأْنٍ أَخْشَاكَ مِنْ عَارٍ»، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ خَشْيَةَ الْجَيْشِ.
 (٥) دِيْوَانُ النَّابِغَةِ، ص ٨٠٧٩.

أَبْلَغُ زِيَادًا وَحِينَ الْمَرْءِ يَدْرِكُهُ وَإِنْ تَكَيَّسَ أَوْ كَانَ ابْنُ أَحْذَارٍ^(١)
أَضْطَرَّكَ الْحَرُّ مِنْ لَيْلَى إِلَى بَرْدٍ تَخْتَارُهُ مَغْقَلًا عَنْ جُشٍّ أَعْيَارٍ^(٢)
حَتَّى لَقِيتَ ابْنَ كَهْفِ اللُّؤْمِ فِي لَجَبٍ يَنْفَى الْعَصَافِيرَ وَالْغُرَبَانَ جَرَارٍ^(٣)
فَالآنَ فَاسْجِعْ بِأَقْوَامٍ غَرَزَتْهُمْ بَنَى ضَبَابٍ، وَدَعَّ عَنْكَ ابْنَ سَيَّارٍ^(٤)
قَدْ كَانَ وَافِدًا أَقْوَامٍ فَجَاءَ بِهِمْ وَانْتِشَاشَ عَانِيَهُ مِنْ أَهْلِ ذِي قَارٍ^(٥)
وَيَنْتَشِرُ شَعْرُ بَدْرِ بْنِ حُذَارٍ، وَيَلْقَى تَرْحِيبًا عِنْدَ بَنِي ذُبْيَانَ، وَتَوَلَّى نَشْرَ هَذَا
الشَّعْرِ وَتَزْيِينَهُ حُزْنِيَّةً وَزُبَّانَ ابْنِ سَيَّارٍ، وَهَذَا يَعْتَبَرُ النَّابِغَةُ هَذَا الشَّعْرَ هِجَاءً لَهُ،
فَيَرِدُ عَلَى بَدْرِ بْنِ حُذَارٍ مُؤَكَّدًا أَنَّ الشَّمَاتَةَ لَا تَجُوزُ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ، فَهِيَ ضِدُّ قِيمِ
الْعَرَبِ الَّتِي يُحِبُّونَهَا عَلَيْهَا، وَأَنْ مَنْ يَتَرَبَّصُ حَوَادِثَ الدَّهْرِ أَنْ تَنْزِلَ بِأَبْنَاءِ عَمِّهِ
وَيَتَمَنَّى لَهُمُ الشَّرَّ، لَمْ يَأْمَنْ - أَنْ تَنْزِلَ حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِهِ وَيَعْشِيرَتُهُ أَيْضًا^(٦)؛
أَلَا مَنِ مَبْلُغٌ عُنَى حُزْنِيَّةً وَزُبَّانَ الَّذِي لَمْ يَزِرْ صَهْرِي^(٧)

(١) زياد: (اسم) النابغة. وإن تَكَيَّسَ: أى كان ذا كيس. ويقال: رجلٌ أخو حَذَرٍ، (وابن حَذَرٍ) إذا كان ذا حَذَرٍ. وأحذار: جمع حذر.

(٢) أَضْطَرَّكَ الْحَرُّ مِنْ لَيْلَى: أى أَضْطَرَّكَ أَنْ تَنْزِلَ الْحَرُّ مِنْ حَرَّةِ لَيْلَى، وهى حَرَّةُ النَّارِ، أى نَزَلَتْ بَرْدًا وَتَرَكْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ جَزْزٌ، فَنَزَلَتْ مَصْحَرًا وَلَمْ تَنْزِلْ الْحَرُّ، وَإِنَّمَا هِزَأَ بِهِ. وَجُشٌّ أَعْيَارٌ: موضع من حرة النار.

(٣) حَتَّى لَقِيتَ ابْنَ كَهْفِ اللُّؤْمِ: يعنى الرجل الذى أغار عليه من قضاة. والكهف: الغار والملاجئ. واللجب: الجيش الكثير الأصوات.

(٤) فَاسْجِعْ بِأَقْوَامٍ غَرَزَتْهُمْ: أى قم بأمرهم، يقال: سعى فلان بذلك الأمر، إذا قام به. وبنو ضباب: رهط النابغة. ودعَّ عنك ابن سيَّار: يريد قول النابغة:

يَا مَلِيحَ رَحْلَةٍ جُضْنِ وَابْنَ سَيَّارٍ

(٥) قَدْ كَانَ وَافِدًا أَقْوَامٍ فَجَاءَ بِهِمْ: يعنى بذلك أَنَّ أَنَاسًا مِنْ بَنَى سَيَّارٍ أَصَابُوا أَسَارَى مِنْ بَنَى غُطْفَانَ فَرَكِبَ فِيهِمْ قُطْبَةَ بَنَى سَيَّارٍ، فَقَدَى بَعْضَهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ بَعْضَهُمْ. ومعنى «انتاش» تناول واستخرج، والنَّوْشُ (والنَّشَاوُشُ): التناول. والعانى: الأسير. وذو قار: موضع.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص ٨٠، ٨١.

(٧) حُزْنِيَّةً وَزُبَّانَ وَقُطْبَةَ وَعُوسَجَةَ وَقَتَادَةَ وَطَلْحَةَ: إخوة كان يقال لهم الشوك لأسمائهم. وهم أبناء سيَّار ابن عمرو بن عمرو بن جابر. والصَّهْرُ الَّذِي (كان) بينه وبين زُبَّانَ هو أَنَّ بَنَتَ هَاشِمٍ بِنَ حَرْمَلَةَ أُمُّ زُبَّانَ، وهى إحدى نساء بنى مُرَّةَ، وأُمُّهَا فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسِ بْنِ زَهْرٍ، وَأُمُّ فَاطِمَةَ تَمَاضِرُ بِنْتُ الشَّرِيدِ، فَهَذَا الصَّهْرُ الَّذِي بَيْنَهُمْ.

فإياكم وُغُورًا دَامِيَاتٍ	كَانَ صَلَاءُهُنَّ صَلَاءَ جَمْرٍ ^(١)
فإِنِّي قَدْ أَتَانِي مَا صَنَعْتُمْ	وَمَا زَشَحْتُمْ مِنْ شَجَرٍ بُدْرٍ ^(٢)
فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَنْ تُشَقِّدُونِي	وَدُونِي عَازِبٌ وَبِلَادُ حَجْرٍ ^(٣)
فإِنْ جَوَابَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ	أَلَمْ بِأَنْفُسٍ مِنْكُمْ وَوَفَرٍ ^(٤)
وَمَنْ يَتَرَبَّصِ الْحَدَثَانِ تَنْزِيلُ	بِمَوْلَاهُ عَوَانٌ غَيْرُ بَكْرٍ ^(٥)

(١) إِيَّاكُمْ وَغُورًا دَامِيَاتٍ: يعنى قصائد هُجُو قَبَاحًا تَسُوءُ مَنْ هُجِيَ بِهَا وَالْدَامِيَاتِ: اللُّوَانِي يَقْطُرْنَ دَمًا، وَهَذَا مَثَلٌ، وَيُقَالُ: أَسْمَعُ كَلَامًا يَقْطُرُ دَمًا، أَيْ كَلَامٌ سَوْءٌ. وَيُقَالُ: كَلِمَةٌ غُورَاءٌ، أَيْ كَلَامٌ سُوءٌ، وَيُقَالُ: عَوْرَاءٌ، أَيْ قَبِيحَةٌ. كَانَ صَلَاءُهُنَّ صَلَاءَ جَمْرٍ: ضَرَبَتْهُ مَثَلًا لَشِدَّتِهَا عَلَى مَنْ هُجِيَ بِهَا. يَقُولُ: مَنْ اصْطَلَاهُنَّ كَأَنَّمَا اصْطَلَى جَمْرًا. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: فَلَمَّا سَمِعَهَا زَيْبَانُ بْنُ سَيَّارٍ قَالَ لِقَوْمِهِ: احْذَرُوا وَتَعَوَّدُوا دَامِيَاتٍ، أَيْ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ.

(٢) وَمَا زَشَحْتُمْ: أَيْ رَوَيْتُمْ وَحَسَنْتُمْ، وَأَصْلُ التَّرْشِيحِ التَّزْيِينُ وَحُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى الشَّيْءِ. (٣) فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَنْ تُشَقِّدُونِي: أَيْ لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُونِي بِالْهَجَاءِ. وَالْعَازِبُ: الْمَكَانُ الْبَعِيدُ. وَحَجْرٌ: الْيَمَامَةُ، يَقُولُ: أَتَانِي هَجَاؤُكُمْ وَمَا تَنَاوَلْتُمُونِي بِهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَغَيِّرُوا، لِبَعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَتُؤْذِنُونِي بِهَجَاؤِكُمْ، فَإِنْ الْجَوَابُ يَلِمُ بِكُمْ، مِنْ شَعْرِ يَخْلُقُ أَعْرَاضَكُمْ، وَجَيْشٌ يَنْتَهَبُ أَمْوَالَكُمْ.

(٤) «إِنْ جَوَابَهَا» يَعْنِي جَوَابَ الْقَصِيدَةِ أَوِ الْمَقَالَةِ الَّتِي هَجَوْتَ بِهَا. وَمَعْنَى «أَلَمْ» نَزَلَ وَحَلَّ. وَالْوَفَرُ: الْمَالُ الْوَافِرُ.

(٥) وَمَنْ يَتَرَبَّصِ الْحَدَثَانِ: أَيْ مَنْ يَتَرَبَّصُ بغيره حَوَادِثَ الدَّهْرِ، وَيَتَمَنَّى لَهُ الشَّرَّ، لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَنْزِلَ ذَلِكَ بِهِ وَيَعْتَشِيرَتْهُ. وَالْمَوْلَى: ابْنُ الْعَمِّ، وَإِنَّمَا خَصَّ ابْنَ الْعَمِّ لِأَنَّهُ إِذَا نَزَلَتْ بَابُنْ عَمَّهُ فَقَدْ نَزَلَتْ بِهِ. وَأَرَادَ بِالْعَوَانِ دَاهِيَةً قَدِيمَةً، أَوْ حَرْبًا شَدِيدَةً لَيْسَتْ بِبَكْرٍ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: فَكَفَّ حَزِيمَ وَزَيَانَ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ النَّابِغَةَ، قَالَ فِي شَيْءٍ وَقَعُوا فِيهِ، وَلَا فِي غَيْرِهِ.

٢- النابغة ويزيد بن عمرو الكلاني

وتبدأ المناقضة بينهما عندما تقع الغارات بين الربيع بن زياد العبسي ويزيد بن عمرو، فيقف النابغة إلى جوار الربيع بن زياد، لأنه من عبس، وعبس وذبيان أبناء عمومة، ويهجو يزيد بن عمرو، ويرى أن فخره بنفسه أكبر من حجمه الطبيعي ويتهكم عليه، ويصفه بأنه غادر خائن لا أمان له. لأنه غدر بالنعمان بن المنذر وخانه^(١):

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى يَزِيدٍ	مِنَ الْفَخْرِ الْمُضَلِّلِ مَا أَتَانِي ^(٢)
كَأَنَّ النَّجَاحَ مَعْصُومًا عَلَيْهِ	لَأَذْوَادٍ أَصْبَنَ بِذِي أَبَانٍ ^(٣)
فَحَسْبُكَ أَنْ تُهَاضَ بِمُحْكَمَاتٍ	يُمَرُّ بِهَا الرُّوْيُ عَلَى لِسَانِي ^(٤)
فَقَبْلَكَ مَا شَتِمْتُ وَقَادَعُونِي	فَمَا نَزَرَ الْكَلَامُ وَلَا شَجَانِي ^(٥)
يَضُدُّ الشَّاعِرُ الثَّنِيانَ عَنِّي	ضُدُّوذِ الْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ هِجَانِي ^(٦)
أَثَرْتُ الْغَيَّ، ثُمَّ نَزَعْتَ عَنْهُ	كَمَا حَادَ الْأَزْبُ عَنِ الظُّعَانِ ^(٧)

(١) ديوان النابغة ص ١١٢، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الوافر.

(٢) المضلل: الذي يضل صاحبه، والمضلل: الذي ينسب إليه الضلال.

(٣) كأن الناجح معصومًا عليه: يقول: كأنما غفد الناجح عليه، وعصب برأسه، أي شد هذا القليل الذي أخذه منا وناله، أي ليس يليق به هذا الفخر. وأبان: جبل، والدود: ما بين الثلاث إلى العشرة.

(٤) فحسبك أن تهاض: أي كفك أن تخزي وتذل. والهيف: كسر بعد جبر، ضربه مثلاً. يمر بها الروي: أي يجري ويسهل، والروي: حرف القافية.

(٥) قبلك ما شتيت: يريد: قبل هجوك هجيت، ومعنى «قادعونى»: هاجونى وشاتموني، يقال: قدعته، إذا أسمعته ما يكره. فما نزر الكلام: أي لم يقل عندى ولم يكن نزرًا. «ولا شجاني»: أي ولا حزني فأهتتم له، وإنما يريد أن الجواب على ما سئني به لا يتعدر عليه، ولا يقل عنه فيحزن له.

(٦) الثنيان والثنيان: الذى دون البدء. والبدء: السيد والقزم: الفحل الكريم من الإبل. والهجان: الإبل البيضاء، جعل نفسه كالفحل الكريم، وجعل يزيد بن عمرو العامري كالبيكر من الإبل، لأنه لا يقاومه في الهجاء، كما لا يقاوم البكر القزم، ولا يطيقه.

(٧) «أثرت الغي»: أي استخرجته وهيجته، يريد بذلك فجزه، وتعرضه لهجاء النابغة. والأزب: الكثير شعر الحاجبين والأشعار. والظعان: جبل الهودج. والبعر الأزب: يقال: كل أزب نفور. يقول: جلبت الشر، واستقيحت الهجو، ثم فررت منه، كما يفر الأزب من جبل الهودج، ويحيد عنه.

فإن يقدر عليك أبو قبيس تُمط بك المعيشة في إن^(١)
وتخضب لحية غدرت وخانت بأحمر من نجيع الجوف أني^(٢)
وكنت أمينه لو لم تخنه ولكن لا أمانة لليمانى^(٣)
ويرد يزيد بن عمرو الكلابي عليه قوله: فهو لم يخن أبا قبيس ولم يخنه بالغيب،
فهو حافظ لعهدده معه، وأنه (يزيد) أفضل من النابغة في القول والطعان، وإذا كان
النابغة فحلاً بين الشعراء فقد خصاه يزيد وأصبح لا قيمة لفحولته بعد الآن^(٤)؛
وإن يقدر على أبو قبيس
تجدنى عند حسن المكان
تجدنى كنت خيراً منك غيباً
وأمضى باللسان وبالسنان^(٥)
وأي الناس أغدر من شام
له صردان منطلق اللسان^(٦)
وإن الغدر قد علمت معداً
بناه في بني ذبيان باني
وإن الفحل تئزع خضيتاه
فيصبح جافراً قريح العجان^(٧)

(١) أبو قبيس هو النعمان بن المنذر، وكنيته أبو قابوس. تُمط: أى تُمط، والمط والمُد واحد.
(٢) تخضب لحيه غدرت وخانت: نسب الغدر إلى اللحية مجازاً، وإنما أراد صاحبها. ونجيع الجوف: خالضه، وقيل: طرؤه، معنى الدم. والأنى: الشديد الحرارة، ويقال: هو الذي بلغ إناه، أى وقته.
(٣) ولكن لا أمانة لليمانى: إنما قال ذلك لأن بعض بني عامر مما يلي اليمن، وكل من كان يلي اليمن فهو يمان عند العرب، ومنه قولهم: الركن اليماني، وهو بمكة، فُنسب إلى اليمن، لأنه يقابلها.
(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ١١٣، ١١٤.
(٥) خيراً منك غيباً: أى إذا غبت عنه ذكرته بالجميل ولم أغتبه. أمضى باللسان وبالسنان: أى تجدنى أنفذ منك مقالاً وطعناً.
(٦) أغدر من شام: يريد منازل بني ذبيان مما يلي الشام، فنسبه إليها. والصردان: غضبان أو عزقان مكتنفا اللسان من باطن.
(٧) الجافر: الذى ترك الضراب، وعدل عنه، فلا يقدر عليه. والعجان: ما بين الذكر والدبر، وأراد بهذا البيت مناقضة النابغة في قوله:

صدود البكر عن قزم هجان

١٢ - نقائض الأوس والخزرج:

الأوس والخزرج قبيلة واحدة في الأصل، أخوان، ابنا حارثة بن ثعلبة، ينتهي نسبهما إلى مازن بن الأزد^(١) وبمرور الزمن كبر الحَيَّان، الأوس والخزرج وأصبح كلُّ منهما يُمثِّلُ قبيلةً مستقلة عن الأخرى، وأدى الجوار والتلازم بينهما إلى كثرة الاحتكاك ومن ثمَّ الحروب، وكانا يسكنان «يثرب»، وأظنُّ أن نار الفتنة بين الحيين كان يوقدها دائماً اليهود الذين كانوا يسكنون «يثرب» معهم، مستغلين العصبية عند كليهما، لأن الأوس والخزرج لو اتحدوا سوياً على قلب رجلٍ واحد لما استطاع اليهود العيش بين ظهرانئهم، وتبدأ الحربُ بين الحيين - الأوس والخزرج - فيما يروى، أن مالك بن العجلان الخزرجي كان له مولى يُقال له بجير جلس مع نفرٍ من الأوس، فتفاخروا، فذكر بجيرُ مالك بن العجلان الخزرجي بما يفضُّه، وكان مالك سيد الحيين في زمانه، فغضب جماعةٌ من كلام بجير، وقام سُمير بن زيد بن مالك، أحد بنى عمرو بن عوف الأوسى وقتل بجيراً، فبعث مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يطالبهم بإرسال سُمير حتى يقتله بمولاد بجير وإلا كانت الحرب، وبعد تشاور وأخذ ورد، قبل مالك أن يأخذ دية مولاه عشرًا من الإبل، وهي ضعف دية العبد، فأبى بنو الأوس ذلك وكانت الحربُ بينهما^(٢).

وخلال هذه الحروب بين الحيين - الأوس والخزرج - ظهرت النقائض وكان يمثلها من جانب الخزرج ثلاثة شعراء هم: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وأنس بن العلاء، بينما كان في الجهة المقابلة - الأوس - شاعرٌ واحد هو قيس بن الخطيم.

(١) جمهرة أنساب العرب، ص ٢٢٢.

(٢) انظر: الخزائن (٢٧٩/٤).

١- نقائض قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت

وتبدأ هذه النقائض بعد يوم «السَّراة»، وكان يوماً عضَّ الحيين جميعاً شرَّه، وسبب ذلك أن رجلاً من الخزرج قتل رجلاً من الأوس، فقامت الأوس وقتلت الخزرجي، فالتقى الحَيَّان بالسَّراة فاقتتلوا بها أربعاً حتَّى نال كلُّ فريق من صاحبه^(١). ويلجأ الحَيَّان إلى التحالف مع القبائل العربية، كلُّ منهما يريد القضاء على الآخر، لذلك ترى قيس بن الخطيم يُعلن تحالف الأوس مع عبس وذبيان ومُزينة، وهذا يعني هلاك الخزرج، لذا نرى نبرة التهديد ترتفع عند ابن الخطيم^(٢):

لعمري لقد حالفْتُ ذُبيانَ كُلَّها	وعبسا على ما في الأديم المُمَدَّد ^(٣)
وأقبلْتُ من أرضِ الحجازِ بحلْبَةٍ	تَغْمُ الفُضاءَ كالقُطا المُتَبَدَّد ^(٤)
تَحْمَلْتُ ما كانت مُزِينَةٌ تُشْتَكِي	من الظُّلمِ في الأحلافِ حملَ التَّغْمَدِ
متى ما تَقْدُ بالباطلِ الحقُّ يابَهُ	وإن قُنتَ بالحقِّ الرُّواسى تَنقَدِ
متى ما أتيتَ الأمرَ من غيرِ بابِهِ	ضللتَ وإن تَدخُلَ من البابِ تهتدِ
فمن مَبْلَغِ عَنِّي شَرِيدِ بنِ جابرٍ	رسولاً إذا ما جاءهُ وابنُ مرزئدٍ
فأقسَمْتُ لا أُعْطِي يزيدَ رَهينَةً	سِوى السَّيفِ حتى لا تَنوَّهَ له يدي

ويتصدَّى له حسان بن ثابت، فإذا كان ابن الخطيم يعتز بقوة حلفائه، عبس وذبيان ومزينة، فإن حسان بن ثابت يقابل ذلك بأنه يعتز بقوة الخزرج فهم

(١) انظر: ديوان قيس بن الخطيم، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) أبيات مختارة من قصيدة في ديوانه ص ١٢٧، وهي والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٣) الأديم الممدد: الكتاب الذي قد مُدَّ. قال أبو عمرو: كتبوا كتباً وتحالفوا على ما في الصحف.

(٤) حَلْبَة: جماعة من الخيل، والفضاء موضع بالمدينة، والمتبدد: المتفرق جاء من ها هنا وها هنا.

كالأسود في حومة المعارك، وأن الأوس قد ذاقَتْ منهم الهزائم قبل، ويختم حسان
ردّه بهجاء مقذع لبني الأوس جميعاً^(١) :

فلا تعجلن يا قيس وأربع فإنما فصارك أن تلقى بكل مهند
حسام وأزمج بأيدي أعزة متى ترهم يا ابن الخطيم تبلد
ليوث لدى الأشبال تحمى عرينها مداعيس بالخطي في كل مشهد
فقد ذاق الأوس القتال وطردت وأنت لدى الكنات، كل مطرد
تناغي لدى الأبواب حوزاً نواعماً وكحل ما قبك الجسان بالمد
نفثكم عن العلياء أم لئيمة وزند متى تفتح به النار يضلد
ثم يأتي يوم «الربيع» وهو من أعظم أيام الأوس والخزرج في الجاهلية، إذ
اقتتلوا فيه قتالاً شديداً حتى كاد يفنى بعضهم بعضاً، ورغم ذلك نرى قيس بن
الخطيم يفخر بقوتهم في هذا اليوم، فقد أتقنوا الطعن في الخزرج، وردوا جموعهم
مهزومة، ولولا أن الأوس يكرهون سفك الدماء لأفنوا الخزرج وعادت يثرب
خالصة لهم، وأن يثرب تعلم أن بني النبيت عمرو بن مالك بن الأوس - قوم
قيس بن الخطيم - هم ميزان العدل والقوة فيها وأن الخزرج يعلمون أن سيوف
الأوس هي التي هزمتهم^(٢) :

ونحن الفؤارس يؤم الربيع ع، قد علموا كيف فُرسائها^(٣)
جنبنا الجراب وراء الضرب سخ حتى تقصف مرائها^(٤)

(١) ديوان حسان بن ثابت (٢٥/١).

(٢) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص ٦٦، وهي الرد عليها على وزن البحر المتقارب.

(٣) الربيع: الجدول الصغير. وأهل المدينة يقولون: ربيع، وأهل اليمامة: جدول.

(٤) المزان: الرماح تُغمل من خشب.

تَراهُنَّ يُخْلَجْنَ خُلْجَ الدُّلا ۖ تَخْتَلِجُ الشُّرْعُ أَشْطَانَهَا^(١)
 ولاقى الشَّقَاءَ لَدَى حَرْبِنَا دَحْيًى وَعَوُوفَ إِخْوَانِهَا
 رَدَدْنَا الْكَتِيبَةَ مَقْلُولَةً بِهَا أَفْنُهَا وَبِهَا ذَائِلُهَا^(٢)
 وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَتَى نَنْبِغِثُ عَلَى مِثْلِهَا تَذْكُ نِيرَانِهَا
 وَلَوْ لَا كَرَاهَةُ سَفْكَ الدِّمَاءِ لَعَادَ لِيُثْرِبَ أَذْيَانُهَا^(٣)
 وَيُثْرِبَ تَغْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ سَتَ رَاسٍ بِثُرْبٍ مِيزَانِهَا^(٤)
 حَسَانُ الْوُجُوهِ، جَدَادُ السُّيُوفِ، يَنْتَدِرُ الْمَخْدَ شَبَابُهَا
 أَتَتْهُمْ عَرَانِينَ مِنْ مَالِكٍ سِرَاعَ إِلَى الرُّوْعِ فَتِنَانُهَا^(٥)
 وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا فَلَّاهُمْ حَدِيدُ النَّبِيَّتِ وَأَعْيَانُهَا
 ويردُّ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ فخره، لأنَّ يثربَ تعلم من هم
 ميزان الحق فيها، وأصحاب الكرم وقت الجذب، وتعلم أن الخزرج هم الذين
 يخيفون الأوس، وأنهم فرسانها الأقوياء بلا منازع.
 ويرد حسان عليه فخره ببني النبيت، بأنَّ مَنْ يفخر بهم أذلة عند الحرب، ولا
 وجود لهم لا هم ولا أعوانهم ومن يدور في فلکهم فلا مجال إذن لفخر قيس بن
 الخطيم بهؤلاء الأذلة^(٦) :

(١) يقول: الأشطان تختلجن بالنزع، أي تجذبن، وناقاة خلوج، إذا فصل عنها ولدها وتجذب إنا بنحر وإنا بموت، ونوق خلّاج. والأشطان، الحبال. وقال أبو عبيدة، لا يقال للحبل شطن إلا أن يكون اتخذ للبشر الشطون.

(٢) الأفن: العيب، يقال: رجل مأفون، أي ضعيف المعرفة. والذان: أيضا من العيب.

(٣) أديان: جمع دين، أي الأمور التي تعرفها. وقالوا: الدين، العادة.

(٤) راس: ثابت. يقول: لا يخف، هو راجح. والنبيت: من الأنصار من الأوس. وهم بنو عمرو بن مالك ابن الأوس وقوم قيس بن الخطيم بطن منهم.

(٥) مالك: مالك بن الأوس بن حارثة، والد عمرو بن مالك، وولد عمرو هم النبيت. عراني: عراني الناس، وجوهم وسادتهم وأشرافهم.

(٦) الأبيات من قصيدة في ديوانه (٢٤٠/١).

ويثرب تغلم أنسا بها إذا ألبس الحق ميزانها
ويثرب تغلم أنسا بها إذا قحط القطر، نواتها
ويثرب تغلم أنسا بها إذا خافت الأوس، جيرانها
ويثرب تغلم إذ حاربته بآنا لدى الحرب فرسانها
ويثرب تغلم أن النبيت عند الهزاهز دلائها
نبت بالنبيت وأشياها من أن أوعدت قسط أوطانها
فكيف إذا نزلتها ليو ث غريف وشبلانها
متى ترنا الأوس في بيضنا نهر القنا تخب نيرانها
وتغط المقاتل على رغمها وينزل من الهام عضيانها
ويثرب تغلم أن النبيت ليست بشيء، وأعوانها
فلا تفخرن والتمس ملجأ فقد عاد للأوس أديانها
ونحن إذا حاربته عامر أمام الكتيبة أغنيانها
ونحن إذا نزلت مغللات تحس القبائل، إخوانها
ويتعلق بحسان بن ثابت فخره على الأوس بقوة الخرج، وأنهم أئخنوهم قتلاً
وتنكيلاً، فهم يمنعون الضيم أن يقع بهم، ويذيقونه للآخرين عنوة، وليس أمام
الأوس إلا تلقى الطعن والتنكيل^(١) :
منغنا على رغم القبائل ضيمنا بمرهفة كالمح مخلص الضقل
ضربناهم حتى استباحت سيوفنا جهاهم وراحوا موجعين من القتل
ورد سراة الأوس إذ جاء جمعهم بطغن كافواه المخبسة الهدل

(١) الأبيات والرد عليها في ديوان حسان (٢٤٧/١)، وهي على وزن البحر الطويل.

ولا يروق هذا الكلام لأحد شعراء الأوس الذي يردّ عليه ردّاً قويّاً، فإن الذي
أذلّ جار مالك بن العجلان الخزرجي هو سُمَيْرُ بن زيد بن مالك الأوسي، فالذي
يفعل ذلك هو الذي يابى الضميم، ويذيق الذلّ غيره من الناس:

وَذَلَّ سُمَيْرٌ عَنْوَةَ جَارِ مَالِكٍ	على رَغْمِهِ بَعْدَ التَّخَمُّطِ وَالْجَهْلِ
وَجَاءَ ابْنُ عَجْلَانَ بِعُلُجٍ مُجْدَعٍ	فَأَذْبَرَ مَنَقُوصَ الْمُرُوءَةِ وَالْعَقْلِ
وَضَارَ ابْنُ عَجْلَانَ نَفِيّاً كَأَنَّهُ	عَسِيفٌ عَلَى آثَارِ أَفْصَلَةٍ هُمَلٍ

٢- نقائض قيس بن الخطيم وعبدالله بن رواحة

وأول هذه النقائض يبدأ بفخر قيس بن الخطيم بأيامهم، إذ يزعم أنهم انتصروا فيها على الخزرج، ويبدأ بيوم «بُعَاث» الذي رُفِعَ فيه حَسْبُ الأوس بالسيف لا باللؤم، وأن بني الخزرج أطاعوا أميرهم الذي لَجَّ في المحاربة ورفض السِّلْم فكان أول قتيل في المعركة، فلم يَجِنِ إلَّا الهلاك لنفسه ولقومه، أمَّا يوم الفجار فهو يوم التغالب، إذ كانت الأوسُ فيه مثل الأسود وكانت نساء الخزرج تهزأ من فرسانها ويُقْلَن: ليتنا لم نحارب، لكثرة القتل فيهم. وقد عاد الأوسُ سالمين تاركين الخزرج قتلى^(١)؛

ويومُ بُعَاثِ اسْلَمْتُنَا سِوْفُنَا

إلى حَسْبٍ في جُذْمِ غُشَانِ ثاقِب^(٢)

يجرذُنْ بيضًا كلَّ يومٍ كَرِيمَةٍ

ويُغْمِذُنْ حُمْرًا خاضِباتِ المضارب^(٣)

أطاعتْ بُنُو عَوْفٍ أَمِيرًا نَهَاهُمْ

عن السِّلْمِ حَتَّى كانَ أوَّلُ واجب^(٤)

قتلناكم يومَ الفجارِ وقبْلَهُ

ويومُ بُعَاثِ كانَ يومُ التَّغَالِبِ

(١) الأبيات من مجمرته في جمهرة أشعار العرب، (١٥٥/٢)، وهي والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٢) ثاقب: مضيء غير خامل. يقول: رفَعْتُنَا سِوْفُنَا إلى حسب حي بصير بالحروب، لا إلى حسب لئيم لا

بصير عليها ويفشل ويَجُور. ويوم بُعَاث. وقعة كانت للعرب من الأوس والخزرج خاصة، والجذم: الأصل.

(٣) مضرب السيف: نحو شبر من طرفه. حُمْرًا: من الدم، وعلى هذه الرواية يكون المراد بالمضارب: مواضع الضرب.

(٤) الواجب هنا: المالك.

صَبِحْنَاكُمْ بِيضَاءَ يَبْرِقُ بَيْضُهَا
تَبَيَّنَ خَلَاخِيلُ النِّسَاءِ الْهَوَارِبِ^(١)
أَتَتْ عَصِيَّةً لِلْأَوْسِ تَخْطُرُ بِالْقَنَّا
كَمْشِي الْأَسْوَدِ فِي رَشَاشِ الْأَهَاضِبِ^(٢)
رَضِيَتْ لِعَزُوفٍ أَنْ تَقُولَ نِسَاؤُهُمْ
وَيَهْزَأْنَ مِنْهُمْ: لَيْتَنَّا لَمْ نُحَارِبْ
فَلَوْلَا ذُرَا الْأَطَامِ قَدْ تَعْلَمُونَهُ
وَتَرْكُ الْفَضَا شُورِكْتُمْ فِي الْكَوَاعِبِ^(٣)
أَصَابَ صَرِيحَ الْقَوْمِ غَرْبُ سَيُوفِنَا
وَعَادَزْنَ أَبْنَاءَ الْإِمَاءِ الْحَوَاطِبِ^(٤)
وَأَبْنَا إِلَى أَبْنَانِنَا وَنَسَانِنَا
وَمَا مِنْ تَرْكُنَا فِي بُعَاثٍ بِأَيِّبِ^(٥)

(١) وكتيبة بيضاء، إذا كانت صافية الحديد. تبين: أي يهرن فيحسرن عن أسوقهن.
(٢) الهضبة: المطرة الدائمة العظيمة القطر. وقيل الدفعة منه. وفي اللسان: والجوهري. والأهاضيب: واحدها هضاب، وواحد الهضاب هضب، وهي جلبات القطر بعد القطر، وتقول: أصابتهم أهضوبة من المطر والجمع الأهاضيب. والرشاش: المطر الخفيف. أهاضب: جمع أهضوبة. وقد حذفت ياؤها لضرورة التقافية لأن أصلها: أهاضيب.
(٣) ذُرَا: جمع ذروة، وذروة كل شيء أعلاه. والأطام: جمع أطم، وهو الحصن المبنى بالحجارة. وقيل: هو كل بيت مربع مسطح. والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي تهد ثدياها. وشوركتم: من الشركة. أراد: لولا تحصنكم بالأطام ولم تنزلوا في الفضاء من السهل شاركنكم في نسائكم.
(٤) الصريح: الرجل الخالص النسب - يريد أنهم قتلوا السادة وتركوا من دونهم من الإماء والعبيد الذين يأتون بالخطب لأسيادهم.
(٥) يقول: بعد أن انتصرنا عليهم عدنا مظفرين إلى أبنائنا ونسائنا أمّا قتلاهم في يوم بُعَاث فلن يعودوا وأنى لهم ذلك!.

فَلَيْتَ سُؤْلًا رَأَى مِنْ خَرٍّ مِنْهُمْ

وَمَنْ فَرَّ إِذْ نَحَدُوهُمْ كَالْجَلَابِ^(١)

وقول قيس بن الخطيم السابق كان يحوى الفخر والهجاء معاً، وأتى ردُّ عبدالله ابن رواحة مُتضمناً الفخر بالخرزج، وردَّ فخر قيس بن الخطيم دون أن يهجوهُ، فقد ركَّز عبدالله بن رواحة في رده على أمور يعتزُّ بها، وهي موضع اعتزاز للعرب جميعاً، فهم لا يتغيرون ولا يتلونون، يثبتون على أحسابهم، ويدافعون عنها دفاع الأقوياء، إذ يمشون إلى المعارك بكتائب قوية مزودة بالسلاح، ويعيب على قيس بن الخطيم فخره بالقبائل العربية التي تحالفت معهم، لأنه يعتز بقوة ليست له^(٢):

إِذَا غَيَّرْتَ أَحْسَابَ قَوْمٍ وَجَدْتَنَا	ذَوِي نَائِلٍ فِيهَا كَرَامِ الْمَضَارِبِ
نُحَامِي عَلَى أَحْسَابِنَا بِتِلَادِنَا	لِمُفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلِ الْحَقِّ زَاغِبِ
وَأَعْمَى هَدْيُهُ لِلْسَّبِيلِ حُلُومُنَا	وَحُضْمُ أَقْمَنَّا، بَعْدَ مَا نَجَّ، شَاغِبِ
وَمُعْتَرِكِ ضَنْكِ تَرَى الْمَوْتَ وَسَطَهُ	مَشِينَا لَهُ مَشْيَ الْجَمَالِ الْمَضَاعِبِ
بِخُرْسٍ تَرَى الْمَآذِيَّ فَوْقَ جُلُودِهِمْ	وَبَيْضًا نَقَاءً مِثْلَ لَوْنِ الْكَوَاكِبِ ^(٣)
فَهُمْ جَسَرَ تَحْتَ الدَّرُوعِ كَانَهُمْ	أَسْوَدَ مَتَى تُنَضُّ السِّيُوفُ تُضَارِبِ
مَعَايِلُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ	مَعَ الصَّبْرِ مَنُوبِ السِّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

(١) الجلاب: الجماعات من الخيل والإبل والغنم والناس، والواحدة جَلُوبَة، وهي ما تجلب من شيء. وراء: رأى. وشويد هو ابن الصامت الأوسي.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم، ص ٢٠١، ٢٠٠.

(٣) خرس: جمع خرساء، وكتيبة خرساء إذا صمتت من كثرة الدروع أي لم يكن لها قعاقع، وقيل: هي التي لا تسمع لها صوتاً من وقارهم في الحرب (اللسان). المآذي: الحديد كله، الدرع والمغفر والسلاح أجمع، ما كان من حديد فهو مآذي (اللسان). نقاء (بكسر النون): جمع نقي.

فخزّتهم بجمع زاركهم في دياركم تغلغل حتى دوفعوا بالزواجب^(١)
 ويفخر قيس بن الخطيم في قصيدة أخرى بقوة الأوس وعفافهم، فعندما مرّ قوا
 الخزرج وقتلوهم شرّ قتلة، وفرّ من بقي حيّا منهم، لم يستغل بنو الأوس هذا
 الانهيار ولم تقبل نفوسهم الكريمة أن تسلب بيوت الخزرج كغنيمة للحرب، ومن
 ثم فهو يمتنّ على الخزرج بذلك^(٢):

غودر عند المكر سيدهم فيه سنان تخالعه لها^(٣)
 وابننا حرام وثابت كشفت خيلاهما عنهما وقد عطا^(٤)
 ززناهم بالخميس ضاحية نزجي إلى الموت جحفا لجبا^(٥)
 جاءت بنو الأوس عارضا بردا تحلبه الريح مقبلا حلبا^(٦)
 أرعن مثل الاتي أعقبه ضوب ملث يسيل الحدبا^(٧)
 إن بني الأوس حين تستعر الـ حذب لكانار تاكل الخطبا
 إن بني الأوس مغشّر صدقوا الـ ضذب وسئوا الإساء والتدبا^(٨)

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع التي تلي الأنامل، وقيل هي بواطن مفاصل أصول الأصابع...
 واحدتها: راجبة (اللسان).

(٢) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص ١٧١، وهي والرد عليها على وزن البحر البسيط.

(٣) لعله يريد: عمرو بن النعمان البياضي، سيد الخزرج يوم بعث، وقد أصابه سهم في ذلك اليوم فقتله.

(٤) وابن حرام: لعله يريد بابن حرام: المنذر بن حرام، من مالک بن النجار من الخزرج، وقد تحاكت
 إليه الأوس والخزرج في حربهم يوم سُمير، وابنه هو ثابت والد حسان بن ثابت (جمهرة أنساب العرب،
 ٣٢٦-٣٢٧).

(٥) ضاحية: غلانية جهازا. نزجي: نسوق. والجحفل: الجيش العظيم. واللجب: الكثير الأصوات.

(٦) برد: أي فيه برد، أي جاءوا ولهم حفيف كسحاب فيه برد.

(٧) الأرعن: الجيش يشبه برغن الجبل، وهو أنف منه متقدّم. والآتي: سيل يأتك من غير أن يصيبك
 مطرة. أعقبه: أي جاء بعده. ضوب ملث: أي مطر دائم فلم ينقطع السيل، وهذا مثل، ويقال: ألت
 السماء إذا دام مطرها.

(٨) الإساء: الدواء. والتدب: آثار الجراح.

فَصَمَدُوا رَأْسَ كَيْشِ إِخْوَتِهِمْ حَتَّى تَوَلَّوْا وَاسْتَنْفَرُوا هَرَبًا
بِكُلِّ لَيْلٍ مَاضٍ ضَرِيبَتُهُ غَضِبَ إِذَا مَا هَزَزْتَهُ رَسَبًا
قَالَتْ بَنُو الْأَوْسِ مِنْ عَفَافِهِمْ مُرُّوا وَلَا تَأْخُذُوا لَهُمْ سَلَبًا
تَسُوقُ أَخْرَاهُمْ أَوَالَهُمْ كَمَا يَسُوقُ الْمَعَارِضُ الْجَلَبًا
لَمَّا دَعَاهُمْ لِلْمَوْتِ سَيِّدُهُمْ ثَابَتَ إِلَيْهِمْ جُوعُهُمْ غَضَبًا

والفخر والمثنة عند قيس بن الخطيم في القصيدة السابقة لهما ما يبررهما على أرض الواقع، لذلك نجد ردَّ عبدالله بن رواحة لا ينفي هزيمة الخزرج، ولا يردُّ على فخر قيس بن الخطيم بفخر ثمائل مما يؤكد أن الخزرج قد مُنِيتْ بهزيمة مُنكرة، ويركز ابن رواحة في ردِّه على هجاء قيس بن الخطيم ورهطه، فهم شرار الأوس وأغاثهم نسبا، وأنهم متحالفون مع الخيانة والفحش واللؤم والكذب واللؤم، فقيس بن الخطيم ورهطه كانوا في بيوتهم لم يشهدوا الغنائم التي أخذها بنو الأوس في ساحة المعركة، وعلى ذلك فهو يفخر بشئ ليس له، وأنه لو كان حاضرا الحرب لكان ذنبا فيها لا رأى له ولا قيمة^(١):

يَا قَيْسُ أَنْتُمْ شَرَارُ قَوْمِكُمْ قَدْ مَأْنَتْكُمْ أَعْيَتْكُمْ نَسَبًا
حَالَفْتُمْ الْفَحْشَ وَالْخِيَانَةَ وَالْـ يُخْلُ جَمِيعًا وَاللُّؤْمُ وَالْكَذِبَا
يَا قَيْسُ إِنَّ الْأَسْلَابَ أَخْرَزَهَا مَنْ كَانَ يُغْشِي الدَّوَابَّ الْقَضْبَا
وَأَنْتَ فِي الدَّارِ غَيْرُ مُحْتَضِرٍ حَزْنَا وَتَدْعُو قِتَالَنَا لَعِبَا
لَوْ كُنْتَ فِيهِمْ وَالْحَرْبُ لَاقِحَةٌ لَكُنْتَ فِيهِمْ مُغْلِبًا ذَنْبَا
نَحْنُ اسْتَبَحْنَا مَا فِي دِيَارِكُمْ يَوْمَ صَبَحْنَاكُمْ بِهَا غَضَبَا

والنصر والهزيمة لم يكونا واضحين في وقعات الأوس والخزرج، إلا أن يوم

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٦٩.

«الفضاء» كان للأوس على الخزرج، وفيه اقتتلوا قتالاً شديداً حتى حجز الليل بينهم لذلك نرى فخر قيس بن الخطيم واضحاً، ينم عن نصرٍ مُحَقَّق فهو يعدد من قُتِلَ من الخزرج، ويصوِّرُ فرازهم أمام الأوس ويختتم أبياته بفخر يملؤه الثقة بالقوة، لأن سيوف الأوس لم تترك حياً من الخزرج إلا الذين هربوا مشردين، وأن الأوس ستظل تلاحقهم حتى يكونوا عبيداً لهم^(١):

سَقَيْنَا بِالْفَضَاءِ كَوْسَ حَتَفِ	بَنِي عَوْفٍ وَإِخْوَتَهُمْ تَزِيدَا ^(٢)
لَقَيْنَاهُمْ بِكُلِّ أَخِي حُرُوبٍ	يَقُودُ وَرَاءَهُ جَمْعًا عَتِيدَا ^(٣)
وَمُشْرِفَةَ الثَّلَاثِلِ مُضْمَرَاتٍ	طَوَى أَحْشَاءَهَا التَّغْدَاءُ، قُودَا ^(٤)
أَكْنُتُمْ تَحْسِبُونَ قِتَالَ قَوْمِي	كَأَكْلِكُمُ الْفَغَايَا وَالْهَيْبِدَا ^(٥)
أَصَابَ الْقَتْلُ سَاعِدَةَ بَنِ كَعْبٍ	وَعَادِرَ فِي جَالِسِهَا قُرُودَا
وَقَدْ رُذِّ الْعَزَائِمُ فِي طَرِيفٍ	وَأَقْيَالٍ يَصُوغُونَ الْحَدِيدَا ^(٦)
وَأَنْ سَيْوَفُنَا ذَهَبَتْ عَلَيْكُمْ	بَنِي شَرِّ الْخَنَى مَهْلًا يَعِيدَا
وَيَأْبَى جَمْعُكُمْ إِلَّا فَرَارًا	وَيَأْبَى جَمْعُنَا إِلَّا وُرُودَا
وَأَنْ وَعِيدُنَاكُمْ حِينَ نَمْشِي	بِهِنَّ عَلَى الْمَنُونِ وَلَا وَعِيدَا
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي كُعَيْبًا	فَهَلْ يَنْهَاكَ لُبُّكَ أَنْ تَعُودَا

(١) الأبيات من قصيدة في ديوانه ص ١٤٥، وهي على وزن البحر الوافر.

(٢) تزايد: جدُّ بني سلمة بن علي بن تزايد بن جُشَم بن الخزرج. جمهرة أنساب العرب ص ٤٢١، وبنو عوف: هم بنو عمرو بن عوف بن الخزرج. انظر: جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٤.

(٣) عتيد: مُهَيَّأ.

(٤) الثَّلَاثِل: الأعناق، واحدها: تليل. التَّغْدَاء: العَدُو. والقُود: الطَّوَال الأعناق.

(٥) الفَغَايَا: من الفَغَا، وهو: أن يركب النخلة غباراً، فيغلظ جلد بُسرِها ويصير فيه مثل وثني أجنحة الجنادب. يقال: قد أفضى النخل. والهَيْبِد: أن يؤخذ حَبُ الحنظل فيُنقع في ماء أياماً، ثم يُضَب ذلك الماء ويجدد له ماء آخر حتى تخرج مرارته ثم يُطبخ.

(٦) يريد أنهم حدادون.

أراني كلما صُدْتُ أنْزَا بني الرِّفْعاءِ جِشْمُكُمْ صُعُوداً^(١)
فَمَا أَبْقَتْ سَيْفُ الأَوْسِ مِنْكُمْ وَحَدَّ ظَبَائِمُهَا إِلَّا شَرِيداً
فَلَنْ نَنْفُكُ نَفْتُلُ مَا حِينَا رَجَالُكُمْ وَنَجْعَلُكُمْ عَبِيداً
ويأتي ردُّ عبدالله بن رواحة قوياً، فهو لا يعترف بهزيمة قومه أمام الأوس، ويرد
عليه فخره بالقوة، بفخر أقوى، فالذي ينزل يثرب يجد الخزرج أكرمها جدوداً
ونسباً، وأنهم الأشدُّ قوة على الأعداء والأكثر رحمة للحلفاء، وأنهم أوفى الناس
بالوعد، وأكثر أهل يثرب عدداً، ثم يركّز ابن رواحة على وقعات سابقة فيما يبدو
انتصرت فيها الخزرج على الأوس ومن ثم فهو يرد فخره بيوم «الفضاء» بفخر
مماثل في وقعات سلفت^(٢) :

متى ما تات يثرب أو تزرها تَجِدْنَا حُنْ أكرمها جدوداً
وأغلظها على الأعداء رُكْنَا والينها لباغي الخير عوداً
وأخطبها إذا اجتمعوا لأمرٍ وأصدقها وأوفاهَا غُهوداً
إذا دُعوى ببلدنا استتبتْ فنحن الأكثرون بها عديداً
متى ما ادْعُ في جِشْمِ وعُوفٍ تَجِدُنِي لا أغم ولا وحيداً
وحولي جمعُ ساعدة بن كعبٍ وتيمم اللات قد لبسوا الحديداً
زعمتم أن ما نلتم ملوك الـ حجاز وأنما نلنا عبيداً
فما نبغي بقتلنا سواكم وقد نلنا المُسَوَّدَ والمُسوداً
وكان نساؤكم في كل دارٍ يُخدشن المعاصم والحدوداً
تركنا حَجْناً بغدير فقح ظرابي في مجالسها قعوداً
ورهِط أبي أمية قد أبحننا وأوس الله أثبغنا ثموداً

(١) الرِّفْعاء: الحمقاء. والضُّعُود: العقبة الشاقة. أي: جشمكم أمراً يشق عليكم.

(٢) الأبيات من قصيدة له في ديوان حسان بن ثابت (٢٣٨/١)، وهي على وزن البحر الوافر.

٢- قيس بن الخطيم وأنس بن العلاء الخزرجي:

وهي نقيضة واحدة، بدأت من جهة قيس بن الخطيم يفخر فيها على أنس بن العلاء بوقعة يوم «الردم» وأن الأوس تركت الخزرج فريقين أحدهما قتيلاً والآخر طريداً على وجهه يطلب النجاة من الموت، وأن الأوس هم حماة الحرب وأبطالها دون سواهم^(١):

ألا أبلغا ذا الخزرجي رسالة رسالة حق لست فيها مقلدا
فإننا تركناكم لدى الزدوم غدوة فريقين؛ مقتولاً به ومطرّدا
صبحناكم منا به كل فارس كريم النشا يحمي الذمار ليخمد^(٢)
أتذكر أمرا لم تنله، وإنما تناول سجل الحرب من كان أنجدا
فلنق غب ما قدمت، إني أنا الذي صبحتكم فيه السمام ببرجدا^(٣)
ونحن حماة الحرب لئلا تضرنا نسوق خميسنا كالقطا متبدا

ويقتصر رد أنس بن العلاء على أن الخزرج عامة ورهطه على وجه أخص هم حماة يثرب وأبطال الحرب فيها، ويذكر قيس بن الخطيم بوقعة لم يحدددها، بأنهم أتوهم صباحاً وهزموهم وكان قيس حائراً متلداً في هذه الوقعة يعرض على أطرافه حزناً وأسى كلما رأى فارساً خزرجياً^(٤):

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ٢١٦، ٢١٧، والقصيدة والرد عليها على وزن البحر الطويل.

(٢) صبحناكم، أي أتيناكم صباحاً وأغرنا عليكم. والنشا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ، يقال: فلان حسن النشا وقبيح النشا. الذمار: الحرم والأهل والحوزة وكل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه.

(٣) السام: جمع السم القاتل.

(٤) الأبيات من قصيدة نسبت إلى أنس بن العلاء في ديوان قيس بن الخطيم ص ٢١٩.

ونحنُ حماةٌ للعشيرة أينما
نحامي على جِذمِ الأغرِ بمالنا
صبحناهم عند القتال بغارة
يغضُّ على أطرافه كلما بدا
نكنُ لا يُبالوا أن يغيبوا ونشهدا
ونبذلُ حِزراتِ النفوسِ لنُحمدا^(١)
فاضح قيسُ بعدها مُتلددا^(٢)
لنا فارسٌ يبغي القتال تنجدا

(١) الأغر هو مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج (انظر جمهرة أنساب العرب ص ٣٤٤). وحزرة الشيء: خياره، يقال: هذا حزرة نفسي أي خير ما عندي، سميت حزرة لأن صاحبها لم يزل يحزرها في نفسه كلما رآها، سميت بالمرة الواحدة من الحز، ولهذا أضيفت إلى الأنفس. (اللسان - حزر).

(٢) متلددا: التلدد، التلفت يمينًا وشمالاً من الحيرة.

١٤- آخر نقائض العصر الجاهلي:

يوم الشَّيْطَان^(١):

وهو يومٌ لبكر بن وائل على تميم، وكان قد بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يُسلم بعدُ أهلُ نجد والعراق، وسارت بكر بن وائل نحو الشَّيْطَان للغارة على بني تميم وقالوا: في دين ابن عبدالمطلب مَنْ قَتَلَ نَفْسًا قُتِلَ بِهَا، فنَغِير هذا العام ثُمَّ نُسَلِّمُ عليها، والتَقُوا تَمِيمًا وَقَتَلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، واستَحَرَّ القَتْلُ في بني العنبر وبني ضَبَّة وبني يربوع، وقيل قُتِلَ من تميم في ذلك اليوم ستمائة رَجُلٍ، لذلك نرى رُشَيْدَ بنَ رُمَيْضِ العَنْزِيَّ^(٢) بِفَخْرٍ بَانْتِصَارِهِمْ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ حَيْثُ قَطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ دِيَارِهِمْ وَوَادِي الشَّيْطَانِ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَهِيَ مَسِيرَةٌ ثَمَانِيَةٌ أَيَّامٍ، فَسَبَقُوا كُلَّ خَيْرٍ، حَتَّى صَبَّحُوهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَيُعَدُّدُ الشَّاعِرُ فُرُوعَ بَنِي تَمِيمٍ الَّتِي مَزَّقَتْ كُلُّ مُزَّقٍ^(٣):

وَمَا كَانَ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَنَعْلَعٍ لِنَسْوَتِنَا إِلَّا مَنَاقِلُ أَرْبَعٍ
فَجَنُنَا بِجَمْعٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ وَكَأَدَ لَهُ ظَهْرُ الْوَدِيقَةِ يَضْلَعُ
بَارِعِنَ ذَهْمٍ تُنَشِّدُ الْبُلُقُ وَشَطَّةُ لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ

(١) الشَّيْطَان، بفتح أوله، وكسر ثانيه وتشديده، بعده طاء مُهْمَلَةٌ عَلَى لَفْظِ التَّنْبِيَةِ، هُمَا وَادِيَانِ لِبَنِي تَمِيمٍ، أَخَذَهُمَا بَنُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. انظر: معجم ما سترجع للبكري، تحقيق مصطفى السقا - عالم الكتب الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (٨١٩/٣)، (١١٥٦/٤).

(٢) في الاشتقاق لابن دريد بتحقيق عبدالسلام هارون ص ٣٢٠: وَعَنْزَةُ اسْمُهُ عَامِرٌ، وَسُمِّيَ عَنْزَةً لِأَنَّهُ طَعَنَ رَجُلًا بِعَنْزَةٍ، وَالْعَنْزَةُ: خَشَبَةٌ فِي رَأْسِهَا رُجٌّ. وفي جمهرة النسب للكلبي ص ٥٩٩: رُشَيْدُ بْنُ رُمَيْضِ الْعَنْزِيِّ، مِنْ رَهْطِ حَبِيبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ الثَّمَرِ بْنِ يَقْدَمَ بْنِ عَنْزَةَ بْنِ أَسَدَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ، وَأَعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا النِّسْبَ غَيْرَ صَحِيحٍ، وَأَنَّهُ يَنْتَسِبُ إِلَى عَنْزِ بْنِ وَائِلٍ، أَخِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَتَغْلِبَ بْنِ وَائِلٍ. لَأَنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ يَفْخَرُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَنْزِ بْنِ وَائِلٍ بِإِنتِصَارِ أُنْبَاءِ عُمُومَتِهِ بَنِي بَكْرِ. انظر: جمهرة النسب ص ٥٧٥.

(٣) (أ) أيام العرب قبل الإسلام ص ٤٤٣. والعقد الفريد (٦٤/٦)، والأبيات والرد عليها على وزن البحر الطويل.

إِذَا حَانَ مِنْهُ مَنْزِلُ الْقَوْمِ أَوْقَدْتُ لِأَخْرَاهُ أَوْلَاهُ سَنًا وَتَيْفَعُوا
 صَبَحْنَا بِهِ سَعْدًا وَعَمْرًا وَمَالِكًا فَظَلَّ لَهُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ أَشْنَعُ
 وَذِي حَسْبٍ مِنْ آلِ ضَبَّةٍ غَادَرُوا يُجَرُّ كَمَا جَرَّ الْفَصِيلُ الْمَقَرَّعُ
 تَقَضَّعَ لِيرَبُوعٍ بِسُرَّةٍ أَرْضَنَا وَلَيْسَ لِيرَبُوعٍ بِهَا مَقْتَضَعُ
 وَقُلْتُ لِيرَبُوعٍ أَسِرْ نَصِيحَةً وَلَوْ أَنَّ يَرَبُوعًا إِذَا امْتَارَ يُرْفَعُ
 يُجَلِّوْا لَنَا ضَخْنَ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُ حَمَى مِنْهُمْ لَا يُسْتَطَاعُ مَمْنَعُ
 وَيَكُونُ رَدُّ مُحَرِّزِ بْنِ الْمَكْعَبِ الضُّبِّيِّ رَدًّا مَهْزُومًا، فَهُوَ لَا يَنْفِي انتصار بكر الكبير
 عَلَى بَنِي تَمِيمٍ، لِأَن قَتْلَى تَمِيمٍ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ تَحَدَّثَتْ بِهِمُ الرُّكْبَانُ، لَكِنَّهُ يَجْعَلُ
 هَذَا الْإِنتِصَارَ إِنْتِصَارًا مَذْمُومًا لِأَنَّهُ إِنْتِصَارُ اللَّثَامِ وَالْجُبْنَاءِ الَّذِي لَا يَحِقُّ لِأَيِّ عَرَبِيٍّ
 شَرِيفٍ أَنْ يَفْخَرَ بِهِ، لِأَن بَنِي بَكْرٍ أَخَذَتْ تَمِيمًا عَلَى غَرَّةٍ وَلَمْ تَكُنْ مُوَاجِهَةً بَيْنَ
 فَرَسَانِ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لِأَيَّدَتْ بَكْرَ عَنْ آخِرِهَا؛
 فَخَرْتُمْ بِيَوْمِ الشُّيْطَيْنِ وَغَيْرِكُمْ يَضُرُّ بِيَوْمِ الشُّيْطَيْنِ وَيَنْفَعُ
 وَجُنْتُمْ بِهَا مَذْمُومَةٌ عَنَزِيَّةٌ تَكَادُ مِنَ اللَّؤْمِ الْمُبِينِ تَطْلُعُ
 فَإِنْ يَكُ أَقْوَامٌ أَصِيبُوا بِغَزَّةٍ فَأَنْتُمْ مِنَ الْغَازَاتِ أَخْزَى وَأَوْجَعُ
 فَرِيقَانِ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى الْبَحْرَ دُونَهُ وَمُؤِدٌّ كَمَا أَوْدَتْ ثُمُودٌ وَتُبَّعُ
 وَمَا مِنْكَ أَفْنَاءُ بَكْرَ بْنِ وَائِلٍ لَغَارَتْنَا إِلَّا ذُلُولُ مُوَقَّعِ

الفصل الثاني

الملاحم الموضوعية للنقائض

الملاحج الموضوعية للنقائض

١- أسباب النقائض:

بعد عرض النقائض في الفصل السابق تبين لنا أن نقائض الجاهليين كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحروب العرب وأيامهم، ومن ثمّ فهي نتاج خلاف حقيقي بين طرفين نقيضين، يقف أحدهما نداً للآخر في ساحة المعركة وفي ساحة الشعر على السواء، حتّى أن الأنماط القليلة من النقائض التي كانت بين الأقارب وحملت النصّح والتحذير، فإنها أوضحت بجلاء أن طرفي النقائض كان الخلاف بينهما كبيراً، وأن نقطة التلاقي كانت بعيدة، وعلى ذلك فإن نقائض الجاهليين كلها نتجت عن تباين واختلاف حقيقيين، وأن العداء كان الغالب فيها، فهي معركة أخرى مثل معارك السيف والرمح، وهي لا تقل ضراوة عنها، نقول ذلك لأن النقائض تحوّلت في العصر الأموي إلى نقائض فنية ولم تك نتيجة خلاف حقيقي وجوهري بين طرفيها، بل رُبّما يكون الشاعران المتناقضان في العصر الأموي صديقين، ولكنهما يتناقضان كنوع من المنافسة الفنية والقدرة على الرد أمام الناس، فهو صراع فني، ورغبة في قهر الخصم، وأن ينال الشاعر بذلك شهرة بين الناس ويصبح الشاعر الأوّل الذي قهر الخصم، وأن تتحدث الرُكبان عن ذلك، وقد ساعد على ذلك نظام الحكم الأموي الذي غرّى هذه النقائض كي يلهو الناس عن شؤون الحكم والثورات والعلويين وكل القلاقل التي كانت تؤرق حكام بني أمية.

لذلك نرى النقائض الجاهلية أكثر تعبيراً عن واقع الحياة وأكثر صدقاً في التعبير عن النفس العربية، وذات الشعراء الجاهليين، بل كانت في بعض الأحيان تعبر عن روح قبيلة بأسرها، فالغرض الأساسي لها هو النصر على العدو قولاً بعد النصر عليه في معركة قتالية أو تقليل قيمة نصر العدو إذا هزمهم. وكانت بعض النقائض تحمل طابع النصيحة، لأن أسبابها تختلف عن أسباب النقائض الأخرى، فهي تنتج عن موقف معين يختلف عليه أصحاب الفريق الواحد، يرى كل منهم فيه رأياً مختلفاً عن الآخر.

٢- القيمة الموضوعية للنقائض:

وإذا كانت المعارك هي السبب المباشر للنقائض في العصر الجاهلي فإن قيمة النقائض تكمن في هذا السبب، فهي توضح بجلاء الجوانب المختلفة لأسباب القتال، ورؤية كل طرف من أطراف المعركة لنتائجها، كما أنها تعد رصداً لهذه المعارك يختلف عن الرصد التاريخي لها، فالنقائض لا تهتم بذكر الموقعة ونتائجها بقدر ما تعني بإبراز الجوانب الأخلاقية التي حثمت على كل طرف خوض المعارك، وكما أنها اهتُمت بإبراز خصال أجمعت عليها البيئة العربية في العصر الجاهلي مثل الإباء والأنفة ورد الظلم وحماية الجار والعرض، وأن التفريط في الدماء أهون على العرب من التفريط في هذه الخصال التي جعلتها البيئة حقاً مشروغاً للقبائل والأفراد.

كما أن النقائض أصبحت مبارزات عقلية وفكرية بين طرفين، كُلٌّ منهما يحاول دحض رأى الآخر مثلما يحاول هزيمته في أرض المعركة تماماً، بل لا نبالغ إذا قلنا إن الاهتمام بالنصر القولي ربما حرص عليه العربي في العصر الجاهلي أكثر من الانتصار في معركة، لأنّ العرب يعرفون جيداً أن الشعر هو سجلهم الحقيقي، وأن الهزيمة في النقائض تعني أن يتناول الناس أخبار تلك الهزيمة جيلاً بعد جيل، كما أنهم كانوا يعلمون أن الشعر يطير في أرجاء جزيرة العرب بسرعة فائقة، وأن الناس تتناوله في كل مكان، فبعد أن يقول الشاعر قصيدته أو مقطعته لم تعد ملكاً له وإنما تنتشر انتشاراً واسعاً شاء الشاعر أم أبى، لذلك حرص الجاهليون على النقائض لأنها تعبر عنهم وتحمل رؤيتهم للأحداث ومفاخرهم على الغير، فهي تحمل تاريخ القبيلة السياسي إن جاز لنا تسميته كذلك.

٢- شعراء النقائض:

لو نظرنا إلى شعراء النقائض في العصر الجاهلي لوجدنا أنهم أربعة وأربعون شاعرًا، وقد بلغت قصائدهم ومقطعاتهم مائة وثلاث عشرة قصيدة، كانت ميدان المناقضة بينهم. والملاحظ على هذه النقائض أنها صُبغت بأخلاف أصحابها ولم تأت منفصلة عنهم بحال. نقصد بذلك أخلاق الفروسية.

ولو نظرنا إلى الشعراء لوجدنا أن كثيرًا منهم كانوا فرسانًا شعراء فمنهم من غلبت عليه فروسيته وعُرف وشهر بها، ومنهم من غلبت عليه موهبته الشعرية فعُرف بها، ومنهم من تساوى عنده الأمران، أما الذين عُرفوا بالفروسية فهم الملوك ورؤساء القبائل وهم: التبع اليماني، وكليب بن ربيعة، وجساس بن مرة، ومرة بن ذهل، والحارث بن ظالم، وقيس بن زهير بن جذيمة، ولقيط بن زُرارة، وأبو براء عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) والأسود بن المنذر، والنعمان بن المنذر، وسَلَمَة بن الحارث بن أكل المرار، ولبيد بن عنبسة الغساني، وعمرو بن الإطناية.

أما مَنْ غلبت عليه موهبته الشعرية وعُرف بين الناس كشاعر دون أن تُنفى عنه صفة الفروسية فهم: النابغة الذبياني، وعبيد بن الأبرص، وامرؤ القيس، وحسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم، وبشر بن أبي خازم، والفند الزُماني.

وهناك مَنْ جمع بين الحُسنيين، الشعر والفروسية بشكل متكافئ، لا نستطيع أن نفصل بينهما مثل: المهلهل عدى بن ربيعة، والحارث بن عباد، وعامر بن الطفيل، والربيع بن زياد، وعبدالله بن رواحة.

وبهذا التصنيف نجد أننا أمام فرسان شعراء لهم مكانتهم الاجتماعية فرضت

عليهم نمطاً أخلاقياً مُحَدِّداً يحكم شعرهم، لأن الفروسية ليست وفقاً على الحروب والغارات والسلب والقتل وتحقيق النصر، لكنها «مظهر من مظاهر الحياة نشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقية وحربية معينة، وتطور وفق أساليب حيوية شاملة، وقد ساعد على تطوره فطرة عربية سليمة وجدت في المثل السامية قيمها الحقيقية وهدفها الذي تسعى إليه»^(١) لذلك نجد الفرسان العرب في الجاهلية يتحلون بحميد الخصال التي تمجدها بيئتهم، ويتغنون بهذه الخصال في شعرهم، فخرًا بأنفسهم وقبيلتهم وهجاءً لعدوهم، وثناءً لقتلاهم الأبطال الذين دفعوا حياتهم للذود عن حياض القبيلة، والفروسية بهذا المعنى «تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية، جانب الحرب، وجانب المثل العليا وفي كلتا الحالتين بناء واحد وروح واحدة، لأن شخصية الفارس تملأ عليه أن يكون إنساناً سامياً»^(٢) بفعله وخلقه.

(١) الفروسية في الشعر الجاهلي، الدكتور نوري القيس ص ٢٧.

(٢) السابق ص ١٣.

٤- أغراض النقااض:

١- الفخر:

يُعَدُّ الفخرُ من الأغراض الشعرية التي حفل بها الشعر الجاهلي لأنه يتوافق مع طبائع الأنفس العربية التي جُبِلَتْ على الرفعة والسمو والأنفة والاعتداد بالنفس، ومن ثَمَّ «قام الفخرُ على الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية القديمة، إذ كان كُلُّ فردٍ يحاولُ أن يثبت امتيازَه وتفوقَه على غيره، وإشباعًا للشعور بالعزة وإرضاءً لحُبِّ التسامي والشرف، واعتقادًا منهم بأن القوة والسيطرة جزء لا يتجزأ من هذه الحياة ما دامت الغلبة للقوى»^(١) فالنفس العربية - غالباً - تحب أن تتغنى بكل أسباب الفخر إرضاءً للذات، ولعل هذا ما جعل العباس بن عبدالمطلب - رضى الله عنه - يوم فتح مكة يشير على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لأبي سفيان بن حرب شيئاً يفتخر به لأنه رجلٌ يحب الفخر، ومن هنا كان نداء النبي - صلى الله عليه وسلم - من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فالنبي - صلى الله عليه وسلم - لم يقف ضد النزعات الفطرية التي جُبِلت عليها بعض الأنفس، ولم يكن أبو سفيان صنواً وحده في هذا، فجزيرة العرب مليئة بكثيرين من السادة الذين يحبون الفخر والتمدح بالخصال الكريمة، لذلك أعتقد أن الفخر هو أقرب الأغراض الشعرية للنفس العربية في العصر الجاهلي فهو يتناغم معها ويعبر عن رغبتها في التباهي على الغير بما تملك من قدرة قتالية أو موهبة شعرية.

بقى أن نشير إلى أن معظم الرجال في العرب كانوا فرساناً لقبيلتهم وبالتالي يتأكد لنا أن هؤلاء الفرسان هم الذين صبغوا الحياة العربية عامة بنمط خلقي

(١) شعر الفروسية، الدكتور نوري القيس ص ٢٤٣، وانظر: في تاريخ الأدب الجاهلي، للدكتور علي الجندي ص ٣٩٨، والعمدة لابن رشيق (٣٥٥/٢).

مُحدد هو خلق الفرسان - إن جاز التعبير - ففي حالات الفخر اعتمدوا على الفخر بالأنساب والشجاعة في القتال وتمجيد الكرم، وعند الهجاء سلبوا عدوهم هذه الخصال ولم يلجأوا إلى الهجاء المقذع أو الألفاظ الجارحة التي ظهرت فيما بعد في رحلة الشعر العربي عبر العصور التالية للعصر الجاهلي.

ففي نقائض التُّبع اليماني وكليب نجد كلاً منهما يفخر بنسبه، ويهدد عدوّه، دون أن نلمح أثراً للهجاء بين الطرفين فالتبع يعتز بانتمائه إلى حمير وقحطان، وكليب يعتز بنسبه إلى تغلب وبكر، يقول، التبع:

بسيوف حمير والمقاول وسطها والخيل تبدو ساعة وتعود
قلأ خضبن سبالهم بدماهم ولتعتقرن معاطس وخدود
ويرد عليه كليب:

لم أسر بالغمرات ان لم ألقكم شهياء مثل صرائم الأخدود
حتى أنازل ثُبًا بكتيبة شهياء ليس ورودها كورودي
فرجال تغلب والأراقم وسطها والخيل بين مجنب ومقود
ورجال بكر ملجئون خيولهم ما بين قزم سيد ومسود
ويعود التبع إلى التهديد لأن بني تغلب قد أسرت النمر بن قاسط ويقسم أنه سيفنى من أسروه، ويعتز في الوقت نفسه بقوة جبيشه:

لست بالتبع اليماني إن لم تصبح الخيل في سواد العراق
وعليها شباب صدق كرام يحسنون الطعان يوم التلاق
إنما النمر خيرنا وهو منا إن فقد الكرام في القلب باق
سرقوه منا وآبأوه الشم فعندى عقوبة السراقى
سوف أرميهم بشعث ومرد فوق جرد مسومات عتاق
فإذا ما الحروب شابت فكانت مهجات النفوس عند التراقى

واستدارت وأظلمت وتظلمت لمتاح وقصصت عن ساقى
القمح نارها وشبهوا لظاهها برمماح مسنونلة الأرواقى
ليس حي مفاخروا للسر جالى أو مجار لهم غداة السباق
وسبأ في ملوك قحطان إلا عاش ما عاش في أشد وثاقى
وهنا يصف كليب التبع الثماني بأته «جاهل» لا يعرف شيئاً عن خصال عرب
الشمال، وأن التهديد والوعيد لا يثنىهم عن شئ قد عزموا عليه، ولكي يوضح
كليب صدق وصفه للتبع بالجهل فإنه يقتل له النمر بن قاسط وهو في أسره عند
تغلب، فإذا كان الأسر قد أحزن التبع وهدد من أسروه فقد أنزلوا به ما هو أشد
من الأسر:

غضب التبع اليماني جهلاً إذ ثوى الثمر عندنا في الوثاق
برهة ثم صار بعد قتيلاً ليس حي على المنون بباق
وضربنا مفارق الرأس منه بحسام يهوي إلى الأعناق
ولعل ما يلفت النظر في النقائض الجاهلية أنها أحياناً كانت تحمل الصدق في
ثناياها، فالشعراء الفرسان كانوا يقولون ما يؤمنون به وما يعتقدون فيه دون
تزييف للوقائع والمعارك، نلمح ذلك عند الأفوه الأودى الذي يسوق لنا شعره في
قصة حوارية رائعة بينه وبين ابنته، ومن خلال الحوار يعترف الأفوه بهزيمة
اليمنيين أما كليب بن ربيعة، ولم يسند هزيمته إلى الحظ العاثر أو غدر الأعداء أو
أنهم أخذوهم على غرة ولم يكونوا مستعدين، بل أنه يصل إلى أبعد من ذلك
باعتراؤه الصريح أن اليمنيين لم يعد لهم بعد هذه الهزيمة الحق في الفخر، فقد
أصبح الفخر لعرب الشمال دونهم، وهؤلاء من وجهة نظري لا يخرج عن خلق
الفرسان، الذين يبتعدون عن تزييف حقائق الأمور، والوقوف يواقعية شديدة
أمام المصائب:

لَمَّا رَأَتْ بَشْرَى تَغَيَّرَ لَوْنُهَا وَمَنْ بَعْدَ بَهْجَتِهِ فَاقْبِلْ أَحْمَرَا
أَلَوْتُ بِأَصْبَعِهَا وَقَالَتْ إِنَّمَا يَكْفِيكَ مِمَّا قَدْ أَرَى مَا قَدَّرَا
إِنِّي ذَوَابَةُ مَذْجٍ وَسَنَامُهَا وَأَنَا الْكَرِيمُ ذَرَى الْقَدِيمَةِ كَرَا
قُولِي لِمَذْجٍ عَاوَدُوا لِدُخُولِكُمْ لَوْلَا يُجِيبُوا دَعْوَتِي حَلْبُ الصَّرَا
كَانَ الْفَخَارُ يَمَانِيًّا مُتَقَحِّطُنَا وَأَرَاهُ أَصْبَحَ شَامِيًّا مُتَنَزِّرَا
وعندما يفخر مرةً بن ذُهل بانتصارهم على اليمنيين في «خزازی» ويرد على
الأفوه الأودي، فإنه لم يتعد الفخر بقوة بكر وتغلب وضعف الخصم أمامهم، حتى
أن اليمنيين أصبحوا إما قتلى أو أسرى:

شَفَّتِ النَّفُوسُ سَيُوفُنَا مِنْ مَذْجٍ وَالْحَيَّ هِمْدَانُ وَذُرَّةُ حَمِيرَا
فَالْقَوْمُ بَيْنَ مَجْدَلٍ وَمَصْفَدٍ بِالْقَدِّ يَخْتَارُ الثَّوَارِي بِالْثَرَا
فَغَضِبْتَكُمْ لَمَّا قَتَلْنَا جَمْعَكُمْ وَإِذَا قَتَلْتُمْ غَيْرَكُمْ فِيهِ الزَّرَا
مَا انْصَفْتُ أَحْكَامَكُمْ فَاسْتَنْصَفْتُ مِنْهَا الْأَسِنَّةُ وَالسَّيُوفُ بِلَا افْتَرَا

وعادة ما يتبع الفخر بالقوة التهديد والوعيد للخصم، وقد برز ذلك في
المنافضات بين الحارث بن عُباد والمهلhel عدى بن ربيعة، فكلٌ منهما فارس
شجاع له تاريخه في حروب قبيلته، وكلٌ منهما موتور، فالمهلhel فقد صوابه بعد
مقتل كليب ويرى أن الدنيا كلها لا قيمة لها بعد موت أخيه ومن ثم أخذ بقتل
البكرين أينما وجدوا، حتى أن الحارث بن عُباد كان معتزلاً لهذه الحرب ولم يقف
مع قومه البكرين، ولم ينجو الحارث من نار الحرب فقد قتل المهلهل ابنه بُجير،
وأصبح الفارسان الشاعران أمام بعضهما وجهًا لوجه، كلٌ منهما يطلب ثأراً عند
الآخر، وكلٌ منهما لا يريد أن يتنازل عن حقه حتى لا يُمحى تاريخه القتالي الذي
بناه عبر السنين بين أبناء قبيلته، فالتصميم على الحرب وأخذ الثأر هو سيد

الموقف إذن بين الشاعرين الفارسيين بدا نرى المهلهل يفخر بوقعاته وانتصاراته ثم يهدد بالمزيد:

أَثْبَتُ مُرَّةً وَالسُّيُوفُ شَوَاهِرُ وَبَنِي جُنَيْمٍ قَدْ وَطَأْنَا وَطَاءَ
وَسَقَيْتُ تَيْمَ اللَّاتِ كَأَسَا مُرَّةً وَبَبُوتٍ قَيْسٍ قَدْ وَطَأْنَا وَطَاءَ
وَلَقَدْ قَتَلْتُ الشَّعْثَمِينَ وَمَالِكَا وَلَقَدْ خَبَطْتُ بَبُوتٍ يَشْكُرُ خَبِطَةَ
لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ لَهُمْ أَيَّامُهُمْ قَتَلُوا كُلَّيْنَا ثُمَّ قَالُوا أَرْتَعُوا
حَتَّى تُلْفَ كَتَيْبَةُ بَكْتَيْبَةٍ وَتَقُومَ رِبَاثُ الْبَيْتِ حَوَاسِرَا
حَتَّى نَرَى غُرْرًا تَجْرُ وَجْهَةً حَتَّى يَعْضُ الشَّيْخُ مِنْ حَسْرَاتِهِ
وَلَيْسَ الْحَارِثُ بْنُ عَبَادٍ مَنْ يَقْبَلُ هَذَا التَّهْدِيدَ، فَهُوَ فَارِسٌ بِكَرِّ بَلَا مَنَازِعِ،
لِذَلِكَ نَرَاهُ يَلْجَأُ إِلَى التَّهْدِيدِ أَيْضًا:

لَا تَحْسَبْنِ إِذَا هَمَمْتُ بِحَرْبِنَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَأَنْتَ فِينَا شَاهِدُ
إِنَّا لَنَمْنَعُ بِالطَّعَانِ دِيَارَنَا وَلَقَدْ نَكَأْتُكَ نَكَأَةً مَشْهُورَةً
وَلَقَدْ أَسْرْتُكَ ثُمَّ عُدْتُ بِنَغْمَةٍ ضَمَنْتُ لَنَا أَرْمَاحُنَا وَسُيُوفُنَا
أَنَا لَدَى الْهَيْجَاءِ غَيْرُ كِرَامٍ وَسُيُوفُنَا تَفْرِي فُرُوعَ الْهَامِ
وَالضَّرْبُ تَحْسِبُهُ شَهَابُ ضَرَامٍ تَرَكْتُكَ مُنْخَسِفًا لَدَى الْأَقْوَامِ
لَوْ كُنْتُ تَشْكُرُ لِي بِهَا إِنْعَامِي بِهَلَاكِ تَغْلِبِ آخِرِ الْأَيَّامِ

فَلَا تَرْكُنْ لِسَعْبِ ابْنَةِ وَائِلٍ بعد الكرى شغلاً بغير منام
أَفْبَغِدْ مَقْتَلَكُمْ بُحَيْرًا غَنَوَةً تَرْجُونَ وَدَا أَخِرَ الْأَيَّامِ؟
كَلَّا وَرَبُّ الرَّاغِصَاتِ إِلَى مَنَى كَلَّا وَرَبُّ الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ
حَتَّى تَقِيدُونَا النَّفْسَ بِقَتْلِهِ وَتَرْوِمُ فِي الشَّحْنَاءِ كُلَّ مَرَامِ
وَتُجْوِلَ رِبَاتُ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَبْكِيْنَ كُلُّ مُغَاوِرٍ ضَرْغَامِ

ولعلنا نلاحظ في نقائض هذه الفترة - حرب البسوس - الفخر بالأنساب، بالرغم أن بكرًا وتغلبًا هما ابنا وائل فجذورهم واحدة، ونسبهم واحد، إلا أن مقتل كليب قد باعد بين الحيين بعد السماء عن الأرض، فلم يكن لبني تغلب أعداء في الدنيا مثل البكرين ولم يكن لبني بكر أعداء على وجه الأرض يرهبونهم ويفرون منهم مثل بني تغلب، ومن هنا نجد المبرر قويًا للجوء الشعراء من الفريقين إلى الاعتزاز بالأنساب الخاصة بكل فريق منفصلة عن الفريق الآخر، علمًا بأن مجد القبيلتين كان واحدًا لا يتجزأ قبل مقتل كليب، فالقبيلتان كانتا بمثابة القبيلة الواحدة، وقد سجلتا نصرهما على اليمنيين معًا في «خزازی» إلا أنهما اليوم يعودان للتشيب بالأنساب كل منهما بعيدًا عن الأخرى فالمهلhel يفخر بأنه تغلبي ويهدد بكرًا بالفناء:

إِنَّا بَنُو تَغْلِبٍ شُمَّمٌ مَعَاطُسْنَا بِيضُ الْوُجُوهِ إِذَا مَا أَفْزَعَ الْبَلَدُ
فَقَدْ قَتَلْتُ بَنِي بَكْرِ بِرَبِّهِمْ حَتَّى يَكْنِئُ وَمَا يَبْكِي لَهُمْ أَحَدُ
مَا زِلْتُ أَقْتُلُهُمْ قَتْلًا وَأَسْرَهُمْ حَتَّى اشْتَكَّتْ لَهُمُ الْأَخْشَاءُ وَالْكَبِدُ
أَفْسَمْتُ بِاللَّهِ لَا أَرْضَى بِقَتْلِهِمْ حَتَّى تَبْهَرَجَ بَكْرٌ حَيْثُ مَا وَجِدُوا
كَمْ قَدْ قَتَلْتُ بَنِي بَكْرِ بِسَيِّدِنَا وَلَيْسَ يُوفِي كُلِّبًا مِنْكُمْ أَحَدُ
قَدْ قَرَّتِ الْعَيْنُ مِنْ عَجَلٍ بِمَا قُهِرُوا وَمِنْ سَرَاةِ بَنِي شَيْبَانَ إِذْ حُصِدُوا
وَمِنْ جَمِيعِ بَنِي قَيْسٍ وَقَدْ شَقِيتُ ذُهِلَ بَنَا يَوْمَ لَأَقُونَا وَمَا سَعَدُوا

ومن بني مالك والحارثيين وما
واليشكريون إذ جاءوا بجمعهم
هانت لجيهم غداة الزوع فاطردوا
أبلغ حنيفة لا تعدد ديارهم
وفي الرد على هذا الفخر نجد أيضاً الحارث بن عباد يعدد فروع بني بكر معتزاً
بهم وبقوتهم وبأجسادهم، ويقابل تهديد المهلهل بتهديد مماثل:

سل حي تغلب عن بكرٍ ووقعتهم
وأيقنوا أن شيباناً وإخوتهم
ويشكر وبئو عجل وإخوتهم
قد قرت العين من عمران إذ قتلت
ومن زياد ومن غنم وإخوتها
ومن بني الأوس إذ شلت قبيلتهم
فرؤا إلى النمر مناه وهو غمهم
نحن الفوارس نغشى الناس كلهم
والخيل تعلم أي من فوارسها
وقد حلفت يميناً لا أضالحهم
بالحنو إذ خسروا وجهراً وما رشدوا
قيساً وذهلأ وتيم اللات قد رصدوا
بنو حنيفة لا يحصى لهم عدد
ومن عدي مع القمقام إذ جهدوا
ومن حبيب أصابوا اللؤلؤ فانفردوا
لا ينفعون وقد ضرروا ولا حمدا
فما وفي النمر إذ طاروا وهم مرؤ
ونقتل الناس حتى يوحش البلد
يوم الطعان وقلب القرن يرتعد
ما دام مناه ومنهم في الملا أحد

وكما أن الحرب قد فرقت بين الأخوين ابني وائل، فلها أيضاً في مرحلة متقدمة زمنياً قد فرقت بين الأخوين، الأوس والخزرج ابني حارثة بني ثعلبة. وأصبح مجد كل فريق يختلف عن الآخر لأن السيوف تقابلت بعدما كانت متساندة متآزرة، لذلك نرى كل فريق منهما يعتقد أنه لا وجود للآخر، وأن يثرب خالصة له دون الآخر، وقد ركز شعراء الطرفين على هذا المعنى كثيراً، فنجد ذلك عند قيس بن الخطيم في قوله:

ونحنُ الفوارسُ يومَ الرِّيبِ
جنيننا الجرابَ وراءَ الصَّريدِ
تراهنُ نخلجنُ خَلجَ الدِّلا
ولاقي الشَّقَاءَ لَدَى حَزِينَا
رددنَا الكَتِيبَةَ مفلولةً
وقد علموا أن متى نثبعتُ
ولولا كراهةُ سفكِ الدِّماءِ
ويثربُ تغلّمُ أن النِّيبِ
حسانُ الوجوه، جدادُ السيِّو
أنتهّمُ عرانيّنُ من مالِكِ
وقد علموا أن ما فلهمُ
ولا يترك قيس بن الخطيم لحسان بن ثابت طريقاً آخر، فما دام قد أصرَّ على نفي الآخر، وأن يثرب لهم وحدهم، وأن الخزرج لا وجود لهم ولا مكانة فقد فرض إذن الردَّ وطبيعته على حسان بن ثابت، فليس أمامه إلا نفي أي كيان ووجود للأوس، وأن يثرب هي لهم خالصة لبنى الخزرج من دون الناس:

ويثربُ تغلّمُ أنّا بها
ويثربُ تغلّمُ أنّا بها
ويثربُ تغلّمُ أنّا بها
ويثربُ تغلّمُ إذ حازبتُ
ويثربُ تغلّمُ أن النِّيبِ
ثبتُ بالنِّيبِ وأشباعها
فكيف إذا نازلتهما ليو

ع، قد علموا كيف فرسانها
سح حتى تقصفُ مِرْاثها
تختلجُ النُّزجُ أشطانها
دحيّ وعوفُ وإخوانها
بها أفئتها وبها ذأنتها
على مثلها تذكُ نيرانها
لعاد ليثربُ أذيانها
ست راسٍ بيثربُ ميزانها
ف، يبتدرُ المجدُ شَبانها
سراعُ إلى الرُّوعِ فتينانها
حديدُ النِّيبِ وأعيانها

إذا ألبسَ الحَقُّ ميزانها
إذا قحطَ القطرُ، نوأنها
إذا خافتِ الأوس، جيرانها
بأنا لَدَى الحَرْبِ فرسانها
عند الهِزاهِرِ دُلائها
من أن أوعدتُ قَطُّ أوطانها
ث غريبٍ وشيلانها

متى ترننا الأوس في بيضنا نهز القنا تخب نيراتها
 وتغط المقاد على رغبها وينزل من الهام عضياتها
 ويثرب تغلم أن النبيت ليست بشيء، وأعوانها
 فلا تفخرن والتيمس ملجأ فقد عاد للأوس أديانها
 ونحن إذا حاربنا عامر أمام الكتيبة أغيانها
 ونحن إذا نزلت مغللات تحس القبايل، إخوانها
 والأمر نفسه نجده بين قيس بن الخطيم الأوس وعبدالله بن رواحة الخزرجي،
 إذ يعمد ابن الخطيم إلى الفخر بوقعات يدعى انتصار قومه على الخزرج فيها، فهو
 يمجّد قوة قومه وبأسهم وضعف عدوهم:
 ويوم بعات أسلمتنا سيوفنا
 إلى حسب في جذم غسان ثاقب
 يجرذن بيضا كل يوم كريمة
 ويغمدن حمرا خاضبات المضارب
 أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم
 عن السلم حتى كان أول واجب
 قتلناكم يوم الفجار وقبله
 ويوم بعات كان يوم التغالب
 ضبحناكم بيضاء يبرق بيضها
 تبين خلاجيل النساء الهوارب
 أتت عصبة للأوس تخطر بالقنا
 كمشي الأسود في رشاش الأهاضب

رَضِيتُ لَعُوفٍ أَنْ تَقُولَ نَسَاؤُهُمْ
 وَيَهْزَأَ مِنْهُمْ: لَيْتَنَّا لَمْ نَحَارِبْ
 فَلَوْلَا ذُرَا الْأَطَامِ قَدْ تَعْلَمُونَهُ
 وَتَرْكُ الْفَضَا شُورِكُمْ فِي الْكَوَاعِبِ
 أَصَابَ صَرِيحَ الْقَوْمِ غَزْبُ سَيُوفِنَا
 وَغَاذَرْنَا أَبْنَاءَ الْإِمَاءِ الْخَوَاطِبِ
 وَأَبْنَاءَ إِلَى أَبْنَانِنَا وَنَسَانِنَا
 وَمَا مِنْ تَرْكُنَا فِي بُعَاثِ بَأْيِبِ
 فَلَيْتَ سُوَيْدًا رَاءَ مَنْ خَرَّ مِنْهُمْ

وَمَنْ فَرَّ إِذْ نَحَدُوهُمْ كَالْجَلَانِبِ
 ويفصل عبدالله بن رواحة في ردّه بين أحساب قومه (الخرزرج) وأحساب
 الأوس مع أنهما في حقيقة الأمر شيء واحد، وذلك يعود إلى تمكن العداء بين
 الفريقين:

إِذَا غَيَّرْتَ أَحْسَابُ قَوْمٍ وَجَدْتَنَا	ذَوِي نَائِلٍ فِيهَا كِرَامِ الْمَضَارِبِ
نُحَامِي عَلَى أَحْسَابِنَا بَيْتِلَادِنَا	لِمُفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلِ الْحَقِّ رَاغِبِ
وَأَعْمَى هَدْيُهُ لِلْسَّبِيلِ حُلُومُنَا	وَحُضْمِ أَقْمِنَا، يَغْدُ مَا لَجَّ، شَاغِبِ
وَمُعْتَرِكِ ضَنْكِ تَرَى الْمَوْتَ وَسَطَهُ	مَشِينَا لَهُ مَشْيِ الْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ
بِخُرْسٍ تَرَى الْمَاضِيَّ فَوْقَ جُلُودِهِمْ	وَيَنْضَا نِقَاءً مِثْلَ لَوْنِ الْكَوَاكِبِ
فَهُمْ جُسْرٌ تَحْتَ الدُّرُوعِ كَأَنَّهُمْ	أَسْوَدُ مَتَى تُنَضُّ السِّيُوفُ تُضَارِبِ
مَعَاقِلُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيمَةٍ	مَعَ الضَّبْرِ مَنَسُوبِ السِّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
فَخَرَّتُمْ بِجَمْعٍ زَارِكُمْ فِي دِيَارِكُمْ	تَغْلُغِلُ حَتَّى دُفِعُوا بِالزَّوْاجِبِ

وتكون قصيدة بشر بن أبي خازم الأسدي بعد يوم الجفار نموذجًا للفخر بالقوة، والتعصب للقبيلة، إلا أننا نلمح فيها شيئًا آخر وهو أن الفخر بالقول لم يأت وحده بل كان مصحوبًا بالسخرية اللاذعة، لأن بني أسد حاربت بني عامر وهزمتهم، فدخلت تميم الحرب إلى جوار بني عامر لنجلتهم فكان السيف في أعناقهم، لذا نرى سخرية بشر بن أبي خازم من تميم التي رفضت قتل بني عامر وقبلت أن تُقتل هي:

سائِلُ تَمِيمًا فِي الْحُرُوبِ وَعَامِرًا	وَهَلِ الْمَجْرَبُ مِثْلُ مَنْ لَمْ يَغْلَمْ
غَضِبْتُ تَمِيمٌ أَنْ تُقْتَلَ عَامِرٌ	يَوْمَ النَّسَارِ فَأَغْقَبُوا بِالضَّيْلِ
كُنَّا إِذَا نَعَرُوا لِحَرْبِ نَعْرَةٍ	نَشْفِي ضِدَاعَهُمْ بِرَأْسِ مِضْمٍ
نَغْلُو الْقَوَانِسَ بِالسُّيُوفِ وَنَغْتَرِي	وَالْحَيْلَ مُشْعَلَةَ النَّحُورِ مِنَ الدِّمِ
يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الْغُبَارِ عَوَاسًا	خَبَبِ السَّبَاعِ بِكُلِّ أَكْلَفٍ ضَيْفِ
مِنْ كُلِّ مُسْتَرْخَى النَّجَادِ مَنَازِلِ	يَسْمُو إِلَى الْأَقْرَانِ غَيْرَ مُقْلَمِ
فَفَضَضْنَ جَمْعَهُمْ وَأَفْلَتَ حَاجِبُ	تَحْتَ الْعِجَاجَةِ فِي الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ
وَرَأَوْا عُقَابَهُمُ الْمَدْلَةَ أَضْبَحَتْ	نُبَذَتْ بِأَفْضَحِ ذِي عَخَالِبٍ جَهْضَمِ
أَقْضَدُنْ حُجْرًا قَبْ ذَلِكَ وَالْقَنَا	شَرَعَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَكَبَ عَلَى الْقَمِ
يَبْشُرُ بِمَحَاوَلَةِ الْقِيَامِ وَقَدْ مَضَتْ	فِيهِ غَارِصُ كُلِّ لَذَنٍ لَهُ ذَمٌ
وَبَنِي تَمِيمٍ قَدْ لَقِينَا مِنْهُمْ	خَيْلًا تَضِبُّ لِثَائِمًا لِلْمَغْنَمِ
فَدَهَمَتْهُمْ دَهْمًا بِكُلِّ طِمْرَةٍ	وَمُقْطَعِ حَلْقِ الرِّحَالَةِ مَرْجَمِ
وَلَقَدْ خَبَطْنَ بَنِي كِلَابٍ خَبْطَةً	أَلْصَقْنَهُمْ بِدَعَائِمِ الْمُتَخِيمِ
وَصَلَقْنَ كَغَبَا قَبْلَ ذَلِكَ ضَلَقَةً	بَقْنَا تَعَاوُرَهُ الْأَكْفُ مَقُومِ
حَتَّى سَقَيْنَاهُمْ بِكَأْسِ مُرَّةٍ	مَكْرُوهَةٍ حَسَوَاتِهَا كَالْعَلَقِ

ونقض هذه القصيدة لم يأت من قبل بني عامر الذين فخر عليهم ابن أبي خازم، ولكن جاء من بني تميم الذين سخر منهم وكان السخرية كانت أوقع في نفوس تميم من الهزيمة التي لحقت ببني عامر، حتى أن ضمرة بن ضمرة النهشلي التميمي يُحرّم على نفسه الخمر والطيب والنساء حتى يثأر لقومه، ويتحقق له ذلك، ويغير على بني أسد في يوم «الشقوق» ويفخر بانتصاره عليهم وأن الفرسان الذين اعتزّ بهم بشر بن أبي خازم أصبحت نساؤهم مرمولات قد قتلهم ضمرة ومعه قومه من تميم:

الآن ساغ لي الشراب ولم أكن	آتي التجار ولا أشد تكلمي
حتى صبحت على الشقوق بغارة	كالتمر ينتز في حبر الحزم
وأبأت يوما بالجفار بمثله	وأجزت نصفاً من حديث الموسم
ومشئت نساء كالظباء عواطلاً	من بين عارفة السباء وأيم
ذهب الرماح بزوجه فتركه	في صدر معتدل القناة مقوم

٢- تطور الهجاء في النقائض:

لقد صُبِغَتْ - كما قلنا - قصائد ومقطعات النقائض في العصر الجاهلي بأخلاق شعرائها في أول الأمر، فهم سادة فرسان، لذا حرصوا على أن يكون هجأؤهم خالياً من السباب والفحش، واعتمدوا فقط على سلب الخصم من القيم الرفيعة التي يعتز بها العرب، لكن مع نهاية العصر الجاهلي وجدنا في النقائض نوعاً من السباب على يد الشعراء المحترفين.

وقد بدأ الهجاء في نقائض الشعر الجاهلي أقرب إلى اللوم والعتاب والتوبيخ، فهذا المهلهل يفخر بوقعاته ثاراً لأخيه كليب وأن كليباً لو نشر القبر عنه لأخبر أنه زير قتال وليس زير نساء كما وصفه قبل أن يقتله جساس.

ولو نشر المقابر عن كليب لأخبر بالذنائب أي زير ويكون هجاء الحارث بن عباد له هجاء رقيقاً لو أخذنا في الحسبان أن المهلهل هو الذي قتل بجير بن الحارث بن عباد فمن المنتظر أن يصب ابن عباد جام غضبه على المهلهل ويصفه بأوصاف تقشعر لها الأبدان، لكن ابن عباد لم ينس - رغم الفادحة - أنه فارس بكر وسيد مَجَلٍّ من ساداتها، لذلك نراه يكتفى بالقول بأن القبر لو نشر عن كليب لعلم أن أخاه شر زير:

فلو نشر المقابر عن كليب لأبصر بالذنائب شر زير
وهذا ليس غريباً على أخلاق الحارث بن عباد، الذي اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل ابنه بجير، فدخل الحرب مُرْغَمًا، له هدف واحد فقط هو أن يقتل المهلهل بابنه، وعندما يأسر الحارث المهلهل وهو لا يعرفه، يطلب منه أن يدلّه على المهلهل ويطلق سراحه، فيخدعه المهلهل ويأخذ منه عهداً بذلك، وبعد أن يعطيه الحارث العهد يخبره المهلهل أنه هو، ولا يملك الحارث بن عباد إلا الانتصار على نوازع نفسه التي تدفعه إلى الثأر لابنه، فقد عاش طوال عمره لم

يحدث بعهد قط، ومن هنا أطلق المهلهل ولم يقتله، فتلك هي أخلاق السادة
الفرسان الذين يحافظون على هيبتهم أمام الناس وأمام أنفسهم، فهم محكومون
بقيم وتقاليدهم لا يستطيعون أن يتحرروا منها ولا يريدون، فهذه التقاليد وهذه
القيم هي بمثابة العز والسودد لهم.

وعندما يبكي المهلهل أخاه كليب يوم قُتل، في قوله:

أهـاج قـذاء عـيـني الإـذكـار	هـدؤاً، فـالـدُمُوعُ لـها انـحـدـارُ
وصـار الـلـيلُ مـشـتملاً عَلَيْنَا	كَأَنَّ الـلـيلَ لـيسَ لـه نـهـارُ
دعوتـك يا كـليبُ فـلم تُجـبـني	وكـيف يُجـيـبُنـي الـبلـدُ القـفـارُ
أجـبـني يا كـليبُ خـلاك دَمُ	لـقد فـجـعتُ بـفـارسـها نـزارُ
سـقـاك الغـيثُ إنـك كُنْتَ غـيـثاً	وَيُسـراً حـيـنَ يَلـتـمـسُ الـيـسـارُ
أبـتُ عـيـناي بـعدك أن تـكـفأ	كَأَنَّ قـنـا القـتـاد لـها شـفـارُ
أَتَعُدُّو يا كـليبُ مـعـي إذا مـا	جـبـانُ القـومِ أنـجـاءُ الفـرارُ
أَتَعُدُّو يا كـليبُ مـعـي إذا مـا	فـسـيلُ القـومِ شـطُّ بـه المـزارُ
خُذِ العـهـدَ الأكـيـدَ عَلَيَّ عُمـري	بـتركـي كُـلِّمـا حـوتِ الـديـارُ
وَهَجِرَ الغـانـيـاتِ وشـرب كـأسِ	وَلُبـسـي جُبَّةً لا تـسـتـعـارُ
ولـسـتُ بـخـالـعٍ دـرـعـي وسـيـفـي	إـلى أن يـخـلـعَ الـلـيلُ النـهـارُ
وإـلا أن تـمـيـدَ سـراةَ بـكرِ	فـلا يـبقـى لـها أبـداً آثـارُ

نجد هذه القيم والمثل العربية تظهر في ردّ جساس، فهو يؤكد أنه يبكي هو الآخر، كليباً القتيل:

ألا أبـلـغُ مـهـلـهـلَ مـا لـديـنا	فأدْمُغُنَا كـأدْمُغُه غـزارُ
يـكـيـنَا وإـنـلَ البـاغـي عَلَيْنَا	وَكُلُّ لـيسَ مِـنْهُ بـه اضـطـبـارُ
وَكُلُّ قـد لـقـى مـا قـد لـقـيـنَا	وشرُّ العـيـشِ مـا فـيـه العـيـارُ

ونحن مع المناسبات كل يوم ولا يُنْجى من الموت الفرائز
فأقسم إن بقيت لتكرهني إذا طارت عن العنسي الشفاز
وهذا يؤكد لنا أن جساساً يعرف قيمة كليب وأن مقتله خسارة للحيين بكر
وتغلب على السوء ورغم ذلك فإن جساساً قتله، وهذا يؤكد لنا أن جساساً يريد
أن يقول إن مقتل كليب خسارة كبرى نبكي عليها لكننا أحرار بعد قتله رغم
خسارته، وأنه لو بقي حيّاً لكان ذلك انتقاص من سيادتنا وكرامتنا، ومن ثم
يُصبح قتله - رغم فداحته - خيراً لبني بكر.

لملح آخر لهذه القيم في هجاء النقائص الجاهلية نجده عندما يُجبر حاجبُ
بن زرارة الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر الكلبي، ويعلن تحديه لبني عامر
في قوله:

وأن تمينا لم تُحارب قبيلة من الناس إلا أولعت بالكواهل
ولو حاربنا عامر يا بن ظالم لغضت علينا عامر بالانامل
ولاستيقنت علينا هوازن أننا سنوطنها في دارها بالقنابل
نجد أبا براء عامر بن مالك يرد على حاجب بن زرارة بعتاب رقيق بعيد عن
المعايرة والسباب وفاحش القول، ويعترف بمكانة حاجب المرموقة بين أهله بني
تميم، بل يعترف أيضاً بفروسيته وقوته:

ألكنني إلى المرء الزراري حاجب رئيس تميم في الخطوب الأوائل
وفارسها في كل يوم كريمة وخير تميم بين حاف وناعل
لعمري لقد دافعت عن حي مالك شبيب من حزب تلقح حائل
على كل جزداء السراة طمرة وأجرذ خوار العنان مناقل
وعندما يفخر عامر بن الطفيل على بني ذبيان بقوة بني عامر ويوجه كلامه إلى

النابعة الذبياني مُهدّداً ومتوعداً^(١)، يجتمع شعراء ذبيان بعدما أعدوا قصائد هجاء مقذع لعامر بن الطفيل، وعندما يجتمع بهم النابعة الذبياني ويسمع كلامهم يقول لهم: أفحشتم على الرجل وهو شريف، لا يُقال له مثل ذلك، دعوني أجبه وأصغُرُ إليه نفسه وأفضل إليه أباه وعمه، فإنه يرى أنه أفضل منهما وأعيره بالجهل^(٢)؛

فإن بك عامرٌ قد جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب
فكن كأبيك، أو كأبي براء توافقك الحكومة والضواب
ولا تذهب بحلمك طاميات من الخيلاء ليس لهم باب
فإنك سوف تحلم أو تناهى إذا ما شئت أو شاب الغراب
فإن تكن الفوارس يوم حسي أصابوا من لقائك ما أصابوا
فما إن كان من نسب بعيد ولكن أذركوك وهم غضاب
فوارس من منولة غير ميل ومرة، فوق جمعهم الغقاب
ولو نظرنا إلى الأبيات السابقة في نطاق التقاليد العربية في العصر الجاهلي نجد أن الظاهر فيها المدح وليس الهجاء، فالنابعة يعترف بحكمة أبي عامر بن الطفيل الذي مات، ويعترف بحكمة عمه أبي براء الذي لا يزال حيًا، وهذا في ذاته يُعدُّ مفخرة، لأن الأب والعم هما من يُعترَّ بهما عند العرب في الجاهلية، والإنسان ما هو إلا امتداد لأبيه وعمه، إلا أن النابعة لم يقصد بالتأكيد مدح الطفيل بن مالك أو أبي براء عامر بن مالك، ويعلم أن وقع شعره هذا سيكون قاصمًا لظهر عامر بن الطفيل أكثر من السباب والفحش، والذي يدلُّ على ذلك أن عامر بن الطفيل

(١) وذلك في قصيدته التي تبدأ بقوله:

ألا من منبلح تمغنى ذبيانا

غداة السباع إذ أزع الضراب

(٢) انظر في ذلك: العمدة لابن رشيق (١٦٣/٢).

عندما بلغته أبيات النابغة، اغتم وقال: «ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيساً وجعلني النابغة سفيهاً وجاهلاً وتهكم بي»^(١)، ويتطور الأمر بعض الشيء، ونرى هجاء يحوى ألفاظاً قريبة من السباب، ربما تعود لظروف خاصة، فبعد أن يقتل الحارث بن ظالم خالد بن جعفر، وخالد بن جعفر هو الذي قتل زهير بن جذيمة سيد بني عبس، ترفض بنو عبس أن تجير الحارث، لكن قيس بن زهير يقول شعراً مادحاً الحارث الذي أخذ بثأرهم:

جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيلٍ شَفَى مِنْ ذِي تَبُولَتِهِ الْخَلِيلَا
أَزْحَتَ بِهَا جَوَى وَذَخِيلَ حُزْنٍ تَمَخَّخَ أَعْظَمِي زَمَنًا طَوِيلَا
كَسَوْتُ الْجُفُفَ رِيَّ أَبَا جَزْيٍ وَلَمْ تَحْفَلْ بِهِ سَيْفًا ضَقِيلَا
أَبَاتُ بِهِ زُهَيْرَ بَنِي بَغِيضٍ وَكُنْتُ لِمِثْلِهَا وَلَهَا حَمُولَا
كَشَفْتُ لَهُ الْقِنَاعَ وَكُنْتُ مِّنْ يَحْلَى الْعَارَ وَالْأَمْرَ الْجَلِيلَا

فيكون رد الحارث بن ظالم على قيس بن زهير هجاء يحوى ألفاظاً تقرب من السباب - كما قلنا - فهو يُصَغِّرُ اسم قيس تحقيراً له ويصفه بالكذب.

أَتَانِي عَنْ قَيْسِ بَنِي زُهَيْرٍ مَقَالَةٌ كَاذِبٍ ذَكَرَ التُّبُولَا
فَلَوْ كُنْتُمْ كَمَا قُلْتُمْ لَكُنْتُمْ لِقَاتِلِ ثَارِكُمِ حِرْزًا أَصِيلَا
وَلَكِنْ قُلْتُمْ جَاوَزَ سَوَانَا فَقَدْ جَلَلْتَنَا حَدًّا جَلِيلَا
وَلَوْ كَانُوا هُمْ قَتَلُوا أَخَاكُم لَمَّا طَرَدُوا الَّذِي قَتَلَ الْقَتِيلَا
وأعتقد أن الظرف الذي كان فيه الحارث بن ظالم هو الذي أملى عليه ذلك، لأن بني عامر كانوا يهاجمون أية قبيلة تجيره فضاقت عليه الأرض بما رحبت ومن ثم كان ينتظر من قبيلة قوية مثل بني عبس، أن تحميه لاسيما أن حرب داحس والغبراء كانت لم تبدأ بعد وأن عبساً كانت قوية بأبناء عمومتها بني ذبيان.

(١) العمدة لابن رشيق (١٦٢/٢).

ونلمح تطوراً في هجاء النقائض الجاهلية عند أبي حنشل، عضم بن النعمان، في ردّه على سلمة بن الحارث بن أكل المرار، فهو يبحث في تاريخ أبيه الحارث بن أكل المرار حتى يجد عورة كبرى وهى غدرة بخمسين رجلاً من بكر وقتلهم ظلماً بابنه الذي لدغته حيّة، ومن ثم يؤكد أبو حنشل أن سلمة غادر مثل أبيه:

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو حباء أبيك يوم صنييعات
وكانت غدرة شنعاء سارت تقلدها أبوك إلى الممات
تتابع سبعة كانوا لأم كأجرام النعام الحائرات
ولا يكتفي أبو حنشل بذلك بل يُعبر بني أكل المرار بسبّة ونقيصة ربما لم يعرفها العرب من قبل، فالمهلهل عدى بن ربيعة يخوض حرباً أربعين سنة ثاراً لأخيه كليب، ولا تضع الحرب أوزارها إلا بعد مقتل جساس قاتل كليب، وبخوض الأحوص بن جعفر بن كلاب حروباً متتابعة لثار أخيه خالد بن جعفر والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى، فالأخ عند العرب له منزلة مقدسة، وهو مقدم عن الزوج والأبناء بل عن الأم والأب، لأنه السند الحقيقي وقت المحن، كما أنه يشاطر أخاه ربما الحياة كلها بخلاف الأم والأب والزوجة والأبناء، لذلك عندما يعلن سلمة بن الحارث أن جائزة من يقتل أخاه شرحبيل مائة من الإبل، ويقتل أبو حنشل شرحبيل ثم يريد بنو أكل المرار قتل أبي حنشل بأخيهم يعيرهم أبو حنشل بتلك السبّة التي لم يعرفها العرب قبل، فهم الذين حرّضوا على قتل أخيهم من أجل الملك وهذا عارٌ كبير، ومن ثم نجد هذا الهجاء قاسياً مرّاً:

قل لئذا أكل المرار خذ الملب لك ولا تبكين قتييل الطلاب
قد تركنا أخاك في حمس النّف مع صريعاً مضرج الأثواب
أسلمته على الكلاب تميم بعد طعن الكلى وضرب الرقاب
وأجبناك إذ دعوت وذو الثا ج شرحبيل ثم غير حجاب

تنتمي حولك الأرقام في النُق
فانثنت عنه دارم وبنو الفِر
بين كابي الجبين مُنعفر الخ
فقتلنا لك ابن أمك والمل
أصبحوا بالكلاب تعتفر الضب
فاغتيل يا ابن ذي المرار عن القض
واخترن بين ما يقول لك النا
ويصل الهجاء في النقائص إلى مداه في نهاية العصر الجاهلي، نرى ذلك في رد
حسان بن ثابت على قيس بن الخطيم، الذي يصف أم الأوس بأنها لئيمة:
فقد ذقت الأوس القتال وطردت
وأنت لدى الكنثات، كل مطرد
تناغي لدى الأنواب حوزاً نواعماً
وكحل ماقيك الحسان بأمد
نفثكم عن الغلياء أم لئيمة
وزند متى تفدح به النار يضلد
ونلمحه أيضاً عند عبدالله بن رواحة الذي جمع كل النقائص والفواحش
وجعلها من نصيب قيس بن الخطيم وقومه الأوس، فهم الأغث نسباً، وهم
الذين حالقوا الفحش والخيانة والبخل واللؤم والكذب:
يا قيس أنتم شرار قومكم
قددما وأنتم أغشهم نسباً
حالفتم الفحش والخيانة والـ
بخل جميعاً واللؤم والكذب

٢- التصح والعتاب واللوم:

لعلّه من الغريب أن نلقى نقائض تحوى نصحاً أو لوماً أو عتاباً، لكن هذا النمط من النقائض لم يكن بين عدوين في ساحة المعركة كما ألفنا في حالتي الفخر والهجاء، لكنه كان بين أفراد الأسرة الواحدة أو القبيلة الواحدة، ولم ينشأ عن قتال وإنما عن اختلاف في وجهات النظر بين الطرفين، وهذا الخلاف يكون كبيراً أو صغيراً حسب درجة القرابة بين طرفي المناقضة، فالخلاف بين الأخوين، أو الأب وابنه يختلف كثيراً عن الخلاف بين فردين من قبيلة واحدة وهو ما نطلق عليه أبناء العم، لأن القبيلة مهما كبرت فإن جميع أفرادها هم أبناء عمومة لأنهم يلتقون في النسب عند جدٍّ أعلى واحد. ولوجود هذه الفروق التي فرضتها قرابة النسب بين الطرفين سنتناول كل نمط منها على حدة.

أ- نقائض الإخوة:

تعد رابطة الإخوة من أقوى الروابط بين الناس في كل عصر وعلى وجه أخص في العصر الجاهلي، فعندما كان يرى العربي أخاه يقاتلُ يسحبُ سيفه ويقاتل إلى جواره دون أن يسأل هل يقاتل أخوه على حق أم على باطل، فهي رابطة الدّم القوية التي نُمّتها وقوتها عصبية العرب في هذا العصر، ولعل نقیضة المهلهل عدی ابن ربيعة مع أخيه كليب هي أبرز مثال لذلك، فالمهلهل يرى أن كليباً قد أسرف في العداء لابن عمّه وأن الحكمة تقتضى أن يخفض كليب جناحه لابن العم (جساس) قبل أن تتفاقم الأمور إلى موقفٍ حرجٍ بين الطرفين، فهو ينصح أخاه نصحاً أميناً فيه الحرص عليه قبل أي شيء آخر:

أخّ وحريمٌ سيّءٌ إن قطعتَه وسنةٌ عزٌّ هدمها لك هادمٌ
وقفت على ثنتينٍ إحداهما دمٌ وحربٌ بها منّا تحجرُ القلاصمُ

ومثقصة في هذه ومذلة وشمر شمر بينكم متفاقم
فما أنت إلا بين هاتين غانص وكلتاها بخر وذو الغي نادم
وكل حميم أو أخ ذي قرابة لك اليوم حتى آخر الدهر لأنم
فأخر فإن الشر يحسن أجرا وقدم فإن الحر للغيط كاظم
لكن كليباً يرى في خفض جناحه لابن العم نوعاً من التسيب الذي يمكن أن
يهدم مملكته لأنه ربما يقلد أحد آخر جساساً في التجرو عليه لذلك نراه يمضي في
تهديده ولا يابه بنصح أخيه:

سأمضي له قدماً ولو شاب في الذي

أهم به فيما صنعت المقادم

مخافة قول أن يخالف فعله

وأن يهدم العز المشيد هادم

وبالرغم من نصح المهلهل لأخيه، وطلبه منه أن يكظم غيظه ورفض كليب
لهذه النصيحة ومن ثم مقتله فإن المهلهل يحارب ثأراً له أربعين سنة ويبكيه
بقصائد تقطر أسى وحزناً، ولم يلق عليه المهلهل تبعة مقتله لأنه لم يسمع نصحه
أو يرتدع عن غيئه، فهي الإخوة العربية كما أسلفنا. وقريب من هذا ما نجده بين
قيس بن زهير ابن جذيمة وأخيه مالك بن زهير، فبعد أن أطلت الفتنة برأسها
بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء، وقام قيس بن زهير بقتل عوف بن
بدر الفزاري، وكان أخوه مالك متزوجاً من بني فزارة ومقيماً عندهم أرسل إليه
ناصحاً أن يغادرهم حتى لا يقتلوه:

أمالك لا تأمن فزارة واخشها فإئك إن تأمن فزارة هالك
أمالك إن تحسب مكانك فيهم صواباً فقد أخطأت في الرأي مالك

إلا أن العناد يتمكن من مالك، ويرى أنه في مأمن لأنه لم يقتل أحداً، ومن ثم لا يستمع إلى نصيحة أخيه:

يا قيسُ حسبك ما أتيت فخلني ويني فزارة إنني متماسك
أترى حذيفة آخذي بجريرة لم تجنّها كفى وأنت الفاتك
ويدفع مالك ثمن عناده حياته فيقتله حمل بن بدر بأخيه.

ولعلنا نلاحظ على هذا النمط من النقائض، نقائض الإخوة، أن النصيحة فيه صادقة، فالناصح في الأمرين (المهلhel وقيس) يخاف على أخيه مغبة الغدر، ويرجو له السلامة، والمنصوح (كليب ومالك) لا يستمع للنصيحة ويركب رأسه ويكون هلاكه في الإعراض عن نصيحة أخيه.

ب - نقائض الأب وابنه:

وهي نقيضة واحدة بين جساس وأبيه مرة بن دهل بعيد مقتل كليب مباشرة وعلم مرة بما صنع ابنه، واقتراحه أن يسلمه لآل كليب حقناً للدماء، لذا يرى جساس أن هذا ليس وقت اللوم، وعلى أبيه أن يستعد لمعركة لن ترحم أحداً، وأن النجاة تكمن في الاستعداد للقتال لا في الفرار منه؟ وأن كليباً بغياً وتجبراً وكان لا بد من قتله، واللوم والعتاب لن يعيدا كليباً حياً فالخطر وقع لا محالة:

تأهب عنك أهبة ذي كفاح	فإن الأمر جلّ عن التلاح
فإنني قد جنيت عليك حرباً	يغصّ الشيخ بالماء القراح
تسعر نازها وهجاً وجاءت	إذا خدت كنيران الفصاح
وما تنفك نائحة تغزى	لما ندبت وتعلن بالنواح
تعدت تغلب ظلمنا علينا	بلا جزم يغد ولا جناح
سوى كلب عوى في بطن قاع	ليمنع حمية القاع المباح
فلمّا أن رأينا واشتبنا	غقاب البغي رافعة الجناح

صرفتُ إليه نحساً يومَ سُوءٍ له كأسٌ من الموتِ الذُّباحِ
 تُتَكَلُّ دانيئاتُ البغى قوماً وتدعُو آخريين إلى الصُّلاحِ
 ذريني قد طربتُ وحنّ مني طرادُ الخيل عارضُة الرُّماحِ
 ولا لي همّةُ أرجو حساها سوى الخطي والفرس الوقاحِ
 ونلمح في رد مُرة على ابنه جسّاس أنه لا ينقض ما قال ابنه ظاهراً، وإنما
 ينقض معنى خفياً فرضته ظروف الموقف، فجسّاس لم يصرح بأن أباه يخشى
 الحرب جُبناً، ولكن أبياته تدل على هلع مرة من هذه الفعلة، وقد نجح جسّاس
 في ذلك نجاحاً كبيراً، فهو لم يصرح مباشرة بجبن أبيه، وعندما يلمح له بذلك
 بصورة مستترة، يُثار مُرة ونجده في رده يركز على نقض هذا المعنى الخفي الذي لم
 تظهره أبيات جسّاس مباشرة فيؤكد على أنه قوى وأنه فارس لا يهاب الموت أو
 يخشى الخطر، وأنه سيقا تل مع ابنه مهما كانت النتائج:

فإن تك يا بُنَيّ جنيت حرباً فلا وكلّ ولارثُ السُّلاحِ
 ولكنني على العِلات أجري إلى الموت المحيط مع الصُّباحِ
 وإنّي حين تشجّر العوالى أعيد الرُّمَح في أثر الجراحِ
 شديدُ البأس ليس بذي عياء ولكنني أبوء إلى الفلاحِ
 سائبسُ ثوبها وأدبُ عنْها بأطرافِ العوالى والصُّفاحِ
 فما يبقَى لعزّته ذليلٌ فيمنعُه من القدر المتاحِ
 وأنفى الدُّل عن قوم يقولوا طحاً نونُ المنية في الطّواحِ
 وأجزى من حياة الدُّل موتٌ وبعضُ العار ما يمحوه ماحِ

ج - نقائض أبناء العم:

وهي أكثر من النمطين السابقين لاتساع مساحتها داخل القبيلة الواحدة وليست الأسرة - كما مر بنا - ونلمح ثلاثة أنماط لهذا النوع من النقائض في ثلاث قبائل كبرى هم: عبس، وذبيان، وتميم.

أما بنو عبس فنجد نقیضة بین قیس بن زهیر بن جذیمة، والربیع بن زیاد العبسی، الذي كان مقيماً في بني بدر من ذبيان عندما بدأت حرب داحس والغبراء، ويخشى قيس بن زهير أن يبقى الربيع بن زياد على الحياد، فهو من الفرسان المعدودين في جزيرة العرب لذا نراه يثير حميته وعصبيته، ويذكره بفضل أبيه الذي لم يترك أبناء عمه مهما كانت الحوادث ومهما كانت النتائج ويذكره بأن بني بدر قد قتلوا ابن عمه مالك بن زهير:

أَبْنَجُو بَنُو بَدْرٍ بِمَقْتَلِ مَالِكٍ وَخَذَلْنَا فِي النَّائِبَاتِ رَبِيعُ
وَكَانَ زِيَادُ قَبْلَهُ يُتَّقَى بِهِ مِنَ الدَّهْرِ إِنْ يَوْمَ أَلَمٍ فَظِيْعُ
فَقُلْ لِرَبِيعٍ يَحْتَذِي فَعْلَ شَيْخِهِ وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَافِظٌ وَمُضِيْعُ
وَالَا فَمَا لِي فِي الْبِلَادِ إِقَامَةٌ وَأَمْرُ بَنِي بَدْرٍ عَلَى جَمِيعِ
ويكون ردّ الربيع بن زياد متوقعاً، فعليه أن يكمل مسيرة أبيه وأن لا يسجل نقطة سوداء تظل عالقة ببني زياد أبد الدهر، فبالرغم من أنه لم يتسبب في هذه الحرب إلا أنه لا يستطيع التخلي عن أبناء العم:

إِنْ تَكْ حَرْبُكُمْ أَمْسَتْ عَوَانَا فَلَيْتِي لَمْ أَكُنْ مِمَّنْ جَنَاهَا
وَلَكِنْ وَلَدَ سُورَةُ أَرْثُوهَا وَحَشُوا نَارَهَا لِمَنْ اصْطَلَاهَا
فَلَيْتِي غَيْرَ خَاذِلِكُمْ وَلَكِنْ سَأَسْعَى الْآنَ إِذْ بَلَغْتَ مَذَاهَا
أما في بني تميم فالأمر يختلف كثيراً لأنه يتعلق بخيانة فرع منها وهم بنو

يربوع، إذ سَهَّلُوا للعدد المرور من أرضهم ليضرب أبناء عموماتهم بني سعد،
وعندما ينتصر بنو سعد على عدوهم بني شيبان يهدد قيس بن عاصم أبناء عمه
الذين ارتكبوا سُوءَ كبرى:

جزى الله يَرْبُوعاً يَأْسُوا سَغِيها

إذا ذُكِرَتْ في النَّائباتِ أُمُورُها

ويومِ جَدُودٍ قَدْ فَضَحْتُمْ أباكُمْ

وسأَلْتُمْ والخَيْلُ تَذْمِي نُحُورُها

فأَضِخْتُمْ واللهُ يَغْلِمُ ذَاكُمْ

كمهَنُوءَةٌ جَزِياءُ أَبْرَزَ كُورُها

ستَخِزُمُ سَغْدُ والرَّيَابُ أَنْوَفُكُمْ

كما غَاطَ في أَنْفِ الظُّؤُورِ جَرِيرُها

أَفْخَرَا على المَولى إذا ما بَطِئْتُمْ

ولُؤْمًا إذا ما الحَزْبُ شَبَّ سَعِيرُها

أتَانِي وعِيدُ الخَوْفِزَانِ ودُونِهِ

مِنَ الْأَرْضِ صَخْرَاوَاتُ فَلَجٍ وَقُورُها

أَقَمَ بِسَبِيلِ الحَيِّ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً

إذا حَشَلْتَ سَغْدَ وَثَابَ نَفِيرُها

عَصَمْنَا تَمِيمًا في الحُرُوبِ فأَضْبَحْتَ

يَلُودُ بِنَا ذُو مَالِها وَقَفِيرُها

ويكون موقف بني يربوع حرجاً، فقد تخلَّوا عن رابطة الدَّم التي احترمتها

التقاليد العربية، ومن ثم نرى مالك بن نويرة اليربوعي يلجأ إلى الهجاء ردًا على ابن عمه:

سَأْسَأُ مَنْ لَاقَى فَوَارِسَ مَنَقَرٍ
رِقَابِ إِمَاءٍ كَيْفَ كَانَ نَكِيرُهَا
وَكُنْتُمْ بَغَائًا إِذْ لَقَيْتُمْ نِدَادَكُمْ
مِنَ الْقَوْمِ ضَائًا لَابِنِ كُوزِ عَشُورِهَا^(١)
فَهَذَا أَوَانُ الْقَدْعِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
كَوَادِنِ جُنْدٍ نَفَلَتْهَا أَيُورِهَا^(٢)
مُجُوسِيَّةُ كَغَبٍ بِنِ سَغْدٍ وَبِنْتِهَا

إلى بَيْتِ قَيْسٍ غَدْرُهَا وَفُجُورُهَا
ولعلنا نلاحظ أن ردَّ مالك بن نويرة قد تجنَّب الخوض في فِغلة بني يربوع، فلم يبررها وإنما لجأ إلى الهجاء تغطية لموقف العار الذي لحق ببني يربوع، ولعلَّ مالك ابن نويرة أن أى تبرير يقوله سيكون مرفوضًا ليس على مستوى قبيلة تميم ولكن على مستوى القبائل العربية كلها، لأنهم خالفوا عُرْفًا وتقليدًا تربى عليه العرب وتوارثوه جيلاً بعد جيل فأى تبرير سيكون مرفوضاً أما في بني ذبيان فالأمر يختلف، فقد نزل بنو ذبيان وادي ذي أقر، وهو حمى للنعمان بن الحارث الغساني، ملك الغساسنة، وكان النابغة الذبياني يتردد عليه مادحاً وتربطه به علاقة قوية، وعلى ذلك فإن النابغة لا يبحث عن مصلحة القبيلة العليا ويفضل عليها النفع الشخصي فيبحث قومه على ترك الوادي لأنهم لا طاقة لهم بقوة الملك الغساني:

لَقَدْ تَهَيْتُ بَنِي ذُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ وَعَنْ تَرْبُعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْفَارٍ

وقلتُ، يا قومُ إنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضُ
 لا أغرفن زُبْرِيَا حُورًا مدامعُها
 يَنْظُرُن شُرْزًا إلى مَنْ جاء عن غُرُضٍ
 خَلَفَ العَضَارِيطُ لا يُوقِنُن فاحِشَةً
 يُذَرِّبُن دُمْعًا على الأَشْفَارِ مُنْخَلِيزًا
 إِمَّا عُصِيَتْ فَإِنِّي غَيْرُ مُنْقَلِبٍ
 أو أضع البيت في سوداء مظلمة
 تُدافعُ النَّاسَ عَنَّا حين نركبُها
 ساق الرُّفَيْدَاتِ من جَوْشٍ ومن عَظَمٍ
 قَرَمِي قُضَاعَةٌ حَلَا حَوْلَ حُجْرَتِهِ
 حتى استقلَّ بِجَمْعٍ لا كِفَاءَ له
 لا يُخَفِّضُ الرُّزُّ عن أرضِ أَلَمٍ بها
 وعِزَّتُنِي بنو دُبَيَّانَ خَشِيئَتِهِ
 وهذا التصرف من النابغة يكون مرفوضاً من القبيلة أو بتعبير أدق من بعض
 بطون القبيلة، لأن النابغة يُغْلَفُ عمله لصالح الغساسنة بالحلم والعقل والخوف
 على مصير قبيلته وهو زعم زائف، لأن ذلك يتنافى مع قيم العرب في الجاهلية،
 فهم لا يعرفون الخوف ولا يخشون الخطر، ومن سوء طالع النابغة أن أحد بني
 قُضَاعَةٍ قد أغار على قوم النابغة ويستاق إبلهم فيسخر منه أبناء عمومته، وينبى
 بدر بن حذار الفزاري للرد عليه ساخرًا من دعوته للعقل والحكمة لأنها لم تثبت
 أمام فرد واحد تجرأ عليهم، فالضعف لا يمكن أن يجلب احترام الغير؛

أَبْلَغُ زِيَادًا وَحِينَ الْمَرْءِ يَدْرُكُهُ
أَضْطَرُّكَ الْحَرُّ مِنْ لَيْلَى إِلَى يَرْدٍ
حَتَّى لَقِيتَ ابْنَ كَهْفِ اللُّؤْمِ فِي جَلْبٍ
فَالآنَ فَاسْجُ بِأَقْوَامٍ غَرَزَتْهُمْ
قَدْ كَانَ وَافِدَ أَقْوَامٍ فَجَاءَ بِهِمْ
وَإِنْ تَكَيْسَ أَوْ كَانَ ابْنُ أَحْذَرٍ
تَخْتَارُهُ مُغْفَلًا عَنْ جُشٍّ أَعْيَارٍ
يُنْفِي الْعَصَافِيرَ وَالْغُرَبَانَ جَرَّارٍ
بَنَى ضَبَابٍ، وَدَعَّ عَنْكَ ابْنَ سَيَّارٍ
وَأَنْتَ تَأْشَى عَائِيهِ مِنْ أَهْلِ ذِي قَارٍ

٤- الحكمة:

نالت الحكمة حظاً وافراً في شعر الجاهليين، فكانت تدور في ثنايا شعرهم ويقدم الشاعر من خلالها خبرته بفهم الحياة وتقلباتها، ووعيه بصروف الدهر وعبر الأيام، وكان هؤلاء الشعراء يمثلون طبقة من أذكى طبقات الجاهليين، وأكثرهم ثقافة، وأدقها حساً، مما أتاح لهم النفاذ إلى إدراك غير قليل من حقائق الحياة وطبائع الأحياء، فصاغوها في شعرهم حكماً يرسلونها تعبيراً عن خبرتهم وتجاربهم الذكية الدقيقة، يفتحون بها أعين الناس لإدراك ما حولهم من شئون الحياة ونقدها، وهي تدل على صفاء أذهانهم، وصدق نظرهم في الحياة وأحوال الناس^(١)، والحكمة بهذا المفهوم تُعبر عن خطرات فلسفية تنبع من فطرة سليمة، وهي قديمة في شعر الجاهليين قدم الشعر الجاهلي ذاته^(٢)، ولكن من المستبعد أن نجد حكمة وسط قرع طبول الحرب التي أنتجت لنا هذه النقائض، لذا نراها تطل على استحياء في نقيضة واحدة بين الحارث بن عباد والمهلهل، فابن عباد يبدى رأيه في حرب البسوس ويوضح أنه نهى جساساً عن قتل كليب ونصح المهلهل أن يكف عن قتل بني بكر لكن لم يستمع أحد لنصيحته وحكمته وقد تفانى الحيان بكر وتغلب، ووسط هذه الحكمة يغلي الدم في رأس الحارث بن عباد عندما يتذكر ابنه بُجير الذي قتله المهلهل، فيفخر بصنيع جساس وقتله كليب:

وَمَهَيْتُ جَسَاسًا لِقَاءَ كُلِّبِهِمْ خَوْفَ الَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ حَدَثَانِ
وَلَقَدْ أَبَى وَالْبَغْيِ مُهْلِكُ أَهْلُهُ إِلَّا مَنِيَّتُهُ بِحَدِّ سِنَانِ
وَمَهَيْتُ بَعْدَ مُهْلَهْلٍ عَنْ حَرْبِنَا وَخَوْفِ أَقْرَانِ إِلَى أَقْرَانِ
فَأَبَى مُهْلَهْلٌ فَاسْتَبِيحَ قَرَارُهُ قَسْرًا بِكُلِّ أَخٍ بَقَى وَطَعَانِ

(١) أمراء الشعر في العصر الجاهلي، الدكتور صلاح الدين الهادي ص ٢٨٤.

(٢) العصر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف ص ٢١٨.

وَأَقْرَتِ الْفَتَيَانُ أَنْ فَتَى الْغَلَا
شَبَعَتْ نُسُورُ الْجَرِّ مِنْ قَتْلَاهُمْ
فَتَرَى النُّسُورَ عَوَاكِفًا مِنْ حَوْلِهِمْ
قَتَلَ الثَّلَاثِينَ الَّذِينَ تَعَدُّهُمْ
عَنْ كَرِّ جَسَّاسِ بْنِ مُرَّةٍ فِيكُمْ
تَرَكَ النِّسَاءَ عَلَى كُلِّيبٍ حُسْرًا
فَإِذَا بَكَيْتِ عَلَى كُلِّيبٍ فَادْكُرْنِ
وَإِذَا كَانَ ابْنُ عُبَادٍ يُعَدُّ مِنْ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ، فَإِنَّ شِمَاتِهِ فِي قَتْلِ كَلِيبٍ جَعَلَتْ
مِنَ الْمَهْلَهْلِ هُوَ الْآخِرُ حَكِيمًا، فَالْمَوْتُ لَا يَفْرَحُ بِهِ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُ قَدَرَ الْجَمِيعَ وَالْجَمِيعَ
ذَاهَبَ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ مَهْمَا طَالَ الْعُمْرُ، وَقَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ كَلِيبٌ وَكَذَلِكَ جَسَّاسٌ قَاتَلَهُ
فَلَا مَجَالَ لِلشِّمَاتَةِ عِنْدَهُ:

لَا تَفْرَحْنَ بِكَثْرَةِ الْبَهْتَانِ
إِنْ كَانَ جَسَّاسٌ أَصَابَ مَعَاشِرًا
فَكَلَاهُمَا ذَاقَ الْفَنَاءَ وَكَلَاهُمَا
وَكَلَاهُمَا ذَاقَ الْجَمَامَ وَكُلُّ مَنْ
وَبِهِ أَصَابَتْ وَائِلُ أَوْتَارِهَا
لَيْسَ الْمَرِيحُ كَمُسْتَعِيبٍ فِي الْوُغَى
إِنَّ السَّيُوفَ بِكُورِهَا وَرَوَاخِهَا
إِنْ لَمْ تَزِرْكُمْ خَيْلُنَا بِعَصَابَةٍ
فَحَزُّوا أَشْفَارَكُمْ وَحَزُّوا بَعْدَهَا
فَالْمَوْتُ مَقْدُورٌ بِكُلِّ مَكَانٍ
وَأُصِيبَ يَوْمَ تَجَالِدٍ وَطَعَانٍ
أُرْدِيَ وَتِلْكَ مِصَارِعُ الْفَتَيَانِ
يَبْقَى وَجَدُكَ فِي الْبَرِيَّةِ فَإِنْ
يَوْمَ الْهَجُولِ وَكَانَ غَيْرَ جَبَانٍ
وَالصَّدْقُ لَيْسَ كَمَنْطِقِ الْبَهْتَانِ
تَرَكَتْ مَرَّةً خَاوِيِ الْأَرْكَانِ
تَفَنَّى بِيَوْمٍ لِقَائِهَا الثَّقَلَانِ
مَنْ أَلْخَلُوقَ بِبَغْيَةٍ كُلِّ مَكَانٍ

الفصل الثالث

ملاح وقضايا فنية

ملاحق وقضايا فنية

١- أوزان النقائص:

بلغت قصائد النقائص الجاهلية التي خضعت للدرس مائة وثلاث عشرة قصيدة ومقطعة، وجاءت على تسعة أوزان من بحور الشعر، احتل البحر الطويل المرتبة الأولى ويليه البحر الوافر، وتساوى البحران الكامل والخفيف، وقريب منهما بحر الرجز، ثم البحر البسيط، وكانت بحور السريع والرمل والمتقارب أقل البحور استخدامًا. والجدول التالي يوضح ذلك:

البحر	عدد القصائد	النسبة المئوية بالنسبة لمجموع القصائد الكلية
الطويل	٣٢	٢٨,١٨
الوافر	٢٥	٢٢,١٢
الكامل	١٤	١٢,٣٩
الخفيف	١٤	١٢,٣٩
الرجز	١٣	١١,٥٠
البسيط	٩	٧,٩٦
السريع	٢	١,٧٧
الرمل	٢	١,٧٧
المتقارب	٢	١,٧٧

ولو نظرنا إلى النقائض الأموية لوجدناها استخدمت خمسة بحور فقط، هي الطويل والوافر والكامل والرجز والبسيط^(١)، ومن هنا تكون النقائض الأموية أقل استخدامًا للبحور الخليلية من نقائض العصر الجاهلي، فالبحر الخفيف الذي ورد في نقائض الجاهلية بنسبة (١٢,٣٩٪) على قدم وساق مع البحر الكامل لم يرد له ذكر في نقائض الجاهليين، كما أن النقائض الأموية خلت تمامًا من أوزان بحور السريع والرمل والمتقارب التي تواجدت بنسبة ضئيلة في نقائض الجاهليين (١,٧٧٪) لكل منها.

كما أن البحر الطويل يعد أكثر البحور الشعرية استخدامًا في نقائض الجاهليين (٢٨,١٨٪) يليه البحر الوافر (٢٢,١٢٪) والأمر في النقائض الأموية كان مختلفًا، فقد تقاربت نسبة الطويل مع نسبة الوافر مع تقدم الوافر على البحر الطويل، فقد ورد البحر الوافر في نقائض الفرزدق بنسبة (٣٩,٤٪) وفي نقائض جرير بنسبة (٣٧,٥٪) وفي نقائض الأخطل بنسبة (٢٥٪) بينما كان استخدام الفرزدق للبحر الطويل بنسبة (٣٩,٤٪) وجرير بنسبة (٣٥٪) والأخطل بنسبة (٢٥٪)^(٢).

(١) شعر النقائض في العصر الأموي، دراسة في التقاليد الفنية، عبدالفتاح أحمد أحمد يوسف، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية الآداب جامعة الرقازيق ١٩٩٩م، ص ٣٣.
ونشير هنا إلى أن هذا الكلام والنسب التي سنعتمد عليها من رسالة الباحث تعد غير دقيقة لأن الباحث اعتبر شعر النقائض في العصر الأموي محصورًا بين الثلاثة: الفرزدق وجرير والأخطل علمًا بأن شعر النقائض بين القبائل والأفراد من غير المشهورين يفوق في مجمله كماً شعر الثلاثة الكبار وعلى ذلك ربما تكون هناك أوزان بين شعر القبائل والأفراد لم يشر إليها الباحث.
(٢) السابق ص ٤٢.

٢- ملامح أوزان النقااض:

١- اختلاف الوزن واتحاد القافية:

بالنظر إلى قصائد النقااض الجاهلية نجد أن ما جاء منها يختلف الوزن مع اتحاد القافية يعد قليلاً، إذ ورد في أربع مقطعات صغيرة، وكانت الأولى عبارة عن بيتي قيس بن زهير بن جذيمة يحذر فيهما أخاه مالك، والبيتان على البحر الطويل:

أمالك لا تأمن فزارة واخشها فأئك إن تأمن فزارة هالك
أمالك إن تحسب مكانك فيهم صواباً فقد أخطأت في الرأي مالك
فيرد عليه أخوه مالك بن زهير بيتين على وزن البحر الكامل:

يا قيس حسبك ما أتيت فخلني وبني فزارة إئني متماسك
أترى حذيفة أخذي بجريرة لم تجنّها كفى وأنت الفاتك
وقد وردت المقطعتان الأخريتان بين الربيع بن زياد والنابعة الذبياني، فالربيع يقول: خمسة أبيات على وزن البحر الوافر:

لئن رحلت جمالي إن لي سعة ما مثلها سعة عرضاً ولا طولاً
بحيث لو وزنت لخم بأجمعها لم يغدّلوا ريشة من ريش سمويلاً
تزغى الروائم أحرار البقول بها لا مثل زغيتكم ملخاً وغسويلاً
فأبرق بأرضك يا نعان متكننا مع النطاسي يوماً وابن توفيلاً
فيرد عليه النعمان بن المنذر بخمسة أبيات على وزن البحر البسيط.

شرذ برحلك عني حيث شئت ولا تكثّر عليّ ودع عنك الأباطيلاً
فقد ذكرت به والركب حامله وزداً يعلل أهل الشام والنسيلاً

فما انتفاؤك منه بعد ما جزعت هوج المطى به إبراق شمليل
قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً فما اعتذارك من شئ إذا قيل
فالحق بحيث رأيت الأرض واسعة وأنشربها الطرف إن عرضاً وإن طولاً
وهذه المقطعات كانت في زمن متأخر من العصر الجاهلي، لأن النعمان بن
المنذر مات وقد بُعث النبي - صلى الله عليه وسلم.

وقيس بن زهير قد عاش إلى زمن البعثة لكن أيضاً نلاحظ أنها كانت بين
شعراء غير محترفين ونقص بذلك شاعري النقض اللذين يتحتم عليهما الرد على
مقطعتي الشاعرين الأولين باستخدام الوزن والقافية اللذين استخدمهما
الشاعران الأولان، وهما النعمان بن المنذر، ومالك بن زهير، فالأخير لم نجد له
شعراً بين أيدينا غير هذين البيتين، يكون مجموع الأبيات التي أتت مخالفة
للنظام الفني للنقائض سبعة أبيات لذلك نرى أنها لا تمثل ظاهرة في نقائض
الجاهليين. وهي تمثل نسبة (٣,٥٣٪) من عدد القصائد مع ملاحظة قلة
الأبيات.

٢- وحدة الوزن واختلاف القافية:

وهذا النمط من القصائد ورد قليلاً هو الآخر في أربع مقطعات، لأربعة شعراء هم، سلمة بن الحارث بن أكل المرار ملك تغلب، وأبو حنش عُصم بن النعمان التَّغَلبي، والحارث بن ظالم المرى، وحاجب بن زرارة التميمي، وباستثناء الحارث ابن ظالم نجد أن الشعراء الثلاثة الباقين لم يكونوا مشهورين بقول الشعر، وقد حافظ الشعراء على الوزن الخليلي في الرد لكنهم اختلفوا في القافية فلم تأت موافقة للقصيدة المنقوضة. فسلمة بن الحارث يوجه كلامه إلى أبي حنش يبدأها بقوله:

الا بَلِّغْ أَبَا حَنْشٍ رِسْولاً فَمَا لَكَ لَا تَجِيءُ إِلَى الثُّوَابِ
وَمَا لَكَ لَا تَجِيءُ إِلَى هِجَانَ مَنْصِبَةِ الْغَوَارِبِ بِالْهَضَابِ
وهي على وزن البحر الوافر وقافيتها الباء المكسورة، فيرد عليه أبو حنش عُصم ابن النعمان مستخدماً البحر نفسه (الوافر) لكن القافية جاءت تاء مكسورة:

أَحَاذِرُ أَنْ أَجِينِكَ ثُمَّ تَحِيَّو حَبَاءَ أَيْكَ يَوْمَ صَنْبِيَعَاتِ
وَكَانَتْ غَدْرَةٌ شَنْعَاءَ سَارَتْ تَقْلُدُهَا أَبُوكَ إِلَى الْمَمَاتِ
تَتَابَعُ سَبْعَةٌ كَانُوا لَأُمِّ كَأَجْرَامِ النِّعَامِ الْخَائِرَاتِ
والأمر نفسه نجده بين الحارث بن ظالم الذي يوجه قصيدة إلى حاجب بن زرارة، مستخدماً البحر الطويل والقافية كانت باء مكسورة، وقد بدأت القصيدة بقوله:

لَعَمْرِي لَقَدْ جَاوَرْتُ فِي حَيٍّ وَائِلٍ وَمَنْ وَائِلٍ جَاوَرْتُ فِي حَيٍّ تَغْلِبِ

فأصبحت في حيِّ الأراقم لم يُقلن لي القوم يا حار بن ظالم اذهب
فيرد عليها حاجب بن زرارة مستخدماً البحر نفسه والقافية جاءت لأمّا
مكسورة، وقد بدأت القصيدة بقوله:

لعمراًبيك الخيز يا حار إنني لأمنعُ جازاً من كلنب بن وائل
وقد علم الحىّ المعديُّ أننا على ذاك كُنّا في الخطوبِ الأوائِلِ
وبالرغم أن حرفي القافية لم يأتيا حال الرد مطابقين لحرفي القافية في
القصيدتين المنقوضتين إلا أننا نلاحظ أن حركة القافية كانت ثابتة، في كُلِّ
مناقضة إذ جاءت جميعها مكسورة، وهذا النمط ورد بنسبة (٣,٥٣٪) بالنسبة
لعدد النقائض الجاهلية كلها.

٢- وحدة الوزن والقافية واختلاف حركة القافية:

وهذا النمط كان عند أربعة شعراء أيضًا، وهم ليسوا ممن اشتهر بقول الشعر، وهم: كليب بن ربيعة، والتبع اليماني، وهند بن خالد بن صخر السلمي، ونُبَيْشَة ابن حبيب السلمي.

والمنافضة الأولى كانت بين التبع اليماني، وكليب بن ربيعة بعد يوم أراط، وهي تعد من أقدم النقائض في الشعر الجاهلي، بل ومن أقدم قصائد الشعر الجاهلي، لأن زمنها يعود إلى قبل حرب البسوس بفترة ليست بالقصيرة، وتأتي قصيدة التبع على وزن البحر الكامل وقافيتها الدال المضمومة، والقصيدة تبدأ بقوله:

يا ذا الكلام كأنني مؤزود من دار حمير فالفؤاد عميد
ويرد عليه كليب مستخدمًا البحر نفسه والقافية نفسها، لكن حركة القافية تختلف عن حركة القافية عند التبع فجاءت دالًا مكسورة، ورد كليب يبدأ بقوله:
يا ذا الكلام نسيت عقد جدودي فلم أنفت وأنت غير حميد
أما النقيضة الأخرى فكانت بين هند بن خالد السلمي ونُبَيْشَة بن حبيب السلمي أيضًا، وبدأت هند بن خالد الذي يفخر بانتصاره يوم الكديد مستخدمًا البحر الوافر وقافية الدال المكسورة وبدأ مقطعته بقوله:

قتلتُ بمالكٍ غمراً وحصناً وجلئتُ القتامَ على الخدود
وكُززا قد أبأت به شريحاً على أنس الفوارس بالكديد
فردَّ عليه نُبَيْشَة مستخدمًا البحر نفسه والقافية نفسها مع اختلاف حركة القافية، إذ جاءت دالًا مضمومة، وقد رد عليه بثلاثة أبيات فقط هي قوله:
تبخلُ صنَعنا في كلِّ يومٍ كمخضوب البنان ولا تصيدُ
وتأكلُ ما يعافُ الكلبُ منه وتزعمُ أن والدك الشريدُ
أبى لي أن أقرَّ الضيمَ قيسَ وصاحبُه المزورُ به الكديد
وهذا الملمح ورد بنسبة (٣,٥٣٪) من جملة عدد النقائض الجاهلية.

٤- اختلاف الوزن والقافية:

وهذا النمط وجدناه في مقطعتين وقصيدتين، أما المقطعتان فهما لقيس بن زهير العبسي والربيع بن زياد العبسي، وبدأت المناقضة بمقطعة قيس بن زهير وهي أربعة أبيات على وزن البحر الطويل وقافيتها العين المضمومة:

أينجو بنو بدر بمقتل مالكٍ ويجذلنا في النانبات ربيعُ
وكان زياد قبله يُتقى به من الدهر إن يومُ ألمٍ فظيغُ
فقل لربيع يجتذي فعل شيخه وما الناس إلا حافظٌ ومضيعُ
وإلا فما لي في البلاد إقامةُ وأمر بني بدر على جميع
ورد عليه الربيع بن زياد بثلاثة أبيات على وزن البحر الوافر وبقافية الهاء المفتوحة:

فإن تك حريكم أمست عوانا فإني لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سورة أرثوها وحشوا نازها لمن اصطافها
فإني غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها
أما المناقضة الثانية فكانت بين امرئ القيس بن حجر، وعبيد بن الأبرص بعد مقتل حجر بن الحارث أبي امرئ القيس، وقد بدأها امرؤ القيس بأرجوزة وصلت أحد عشر بيتاً رجزياً وقافيتها اللام المفتوحة:

يا لهف هندي إذ خطئنا كاهلاً
ثالله لا يذهب شيعي باطلا
حتى أبيض مالكا وكاهلاً
ألقاثنين الملك الخلاطلا
خير معد حسباً ونائلاً

وخيّرهم قد علموا شمانلا
نحن جليتنا القرح القوافلا
يخمننا والأسل الثواهلا
وحي صعب والوشيح الذابلا
مستفترات بالخصى خوافلا
يستشرف الأواخر الأوانل

فرد عليه عبيد بن الأبرص ناقضاً قوله في قصيدة طويلة، منها عشرة أبيات خاصة بالرد على امرئ القيس، والقصيدة على وزن مجزوء الكامل وقافيتها النون المفتوحة.

يا ذا المخوفنا بقث	ل أبيه إذلاً وحيننا
أزعمت أنك قد قتل	ت سراتنا كذباً ومينا
هلاً على حجير بن أم	قطام تيكبي لا علينا
إننا إذا غض الثقا	ف برأس صعدتنا لويثنا
نحمي حقيقةتنا وبغ	ض القوم يسقط بين بيننا
هلاً سألت جوع كن	دة يوم ولوا أين أيننا
أيام نضرب هامهم	بيواتر حتى انحنينا
وجوع غسان الملو	ك أتيناهم وقد انطويننا
نحن الألى فاجمع جو	عك ثم وجههم إلينا
واعلم بأن جاذنا	آلين لا يقضين ديننا
ولقد أبخنا ما حميت	ولا مبيع لما حمينا

وهذه المناقضة من وجهة نظري، أدت إلى خطأ في تأريخ فن النقائض الجاهلية، فالذين تكلموا عن هذا الفن من أساتذتنا اعتبروا هذه المناقضة هي الأولى في الشعر الجاهلي ومن ثم حكم عليها الجميع بأنها مناقضة في طور الميلاد ثم تطورت بعد ذلك، غير أن النقائض الجاهلية سبقت هذه النقيضة بحوالى نصف قرن تقريباً منذ ما قبل حرب البسوس، وأن هذه النقيضة لا تدل على ميلاد فن النقائض. لكنها أتت غير مكتملة - مثل غيرها - لأسباب تعود إلى الشاعر الناقض الذي لم يشأ أن يرد على الشاعر المنقوض مستخدماً البحر الذي استخدمه والقافية التي استخدمها أيضاً، وفي ظنّي أن هذه تعود إلى عدم قدرة الشاعر الناقض الفنية في الرد مستخدماً البحر والقافية اللذين فرضا عليه من الشاعر الأول. قد يقول قائل كيف تحكم على شاعر كبير مثل عبيد بن الأبرص بأنه لم يستطع الرد على امرئ القيس مستخدماً بحر الرجز الذي هو أيسر البحور في الشعر العربي، نقول الرد على ذلك ديوان عبيد بن الأبرص نفسه الذي وردت فيه قصائد وأبيات كثيرة مختلفة الوزن^(١)، ولا يتسع المجال لذكر أمثلة عديدة هنا، وهي في ديوانه واضحة لا تخطئها العين والأذن.

كما أننى أظن أن الذين اعتبروا هذه النقيضة هي الأولى في الشعر الجاهلي ساقهم إلى ذلك الظن الخاطئ اعتبار شعر امرئ القيس هو أول شعر يصل إلينا، وقد نص ابن رشيقي على أن امرأ القيس ليس أول الشعراء في قوله: «وقال العلماء بالشعر أن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها لأنه قيل أول من لطف المعاني، واستوقف على الطلول ووصف النساء بالطّباء والمها»^(٢) والظاهر من

(١) انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق الدكتور حسين نصار، ومصطفى الباي الحلبي، الطبعة الأولى.

مصر ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

(٢) العمدة لابن رشيقي (٧٢/١).

النص تقدم امرئ القيس في ألوان وصور من الشعر ريمًا لم يسبقه إليها أحد حسب رأى ابن رشيق وإن كُنَّا لا نُسلمُ به كليةً، إلا أن من أَرخُو للنقائض اعتبروا أن امرأ القيس هو أول الشعراء الذين وصل شعرهم إلينا، وأعتقد أن هذا وهم لأن ما بين أيدينا يعود إلى ما قبل امرئ القيس بنصف قرن تقريبًا. كما أن ابن رشيق نفسه يقرُّ في موضع آخر صراحة أن أوَّل من قصة القصائد هو المهلهل عدي بن ربيعة^(١) وقد سبقه إلى ذلك الرأى محمد بن سلام الجمحي^(٢)، ونحن نرى أن شاعرًا آخر قد عاصره وكان له قصائد طوال أيضًا وكان أسنَّ من المهلهل ولم يذكره أحد وهو الحارث بن عباد البكري، مما يجعلنا نعيد النظر في هذه المسألة برمتها.

وعلى كل حال فإنه من وجهة نظرنا فإن الشعر أقدم من المهلهل والحارث بن عباد، وإن لم يصل إلينا في قصائد فقد وصل في مقطعات يعود تاريخها - كما قلنا - إلى ما قبل امرئ القيس بزمن ليس بالقصير.

بقى أن نشير إلى أن هذا الملمح ورد بنسبة (٢.٥٣٪) من جملة عدد قصائد النقائض في العصر الجاهلي، والجدول التالى يوضح كل هذه النسب السابقة:

(١) العمدة لابن رشيق (٦٧/١).

(٢) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة دار المدني، جدة ١٩٧٤م (٣٩/١).

نوع النقائص	عدد القصائد	النسبة المئوية
نقائص كاملة وزن وقافية وحركة قافية	٩٧ قصيدة	٪٨٥,٨٤
نقائص مختلفة في الوزن ومتحدة في القافية	٤	٪٣,٥٣
نقائص متحدة الوزن مختلفة القافية	٤	٪٣,٥٣
نقائص مختلفة الوزن والقافية	٤	٪٣,٥٣
نقائص متحدة الوزن والقافية مختلفة في حركة القافية فقط	٤	٪٣,٥٣

٢- التكرار:

من المعلوم أن الشعر الجاهلي كان يعتمد على المشافهة - القول والسمع - ولم ينتشر بين القبائل عن طريق نصوص مكتوبة بل عن طريق رواة لهذا الشعر، ينقلونه عن الشاعر مباشرة، وينشرونه بين الناس ومن هنا ندرك أن التكرار «ليس ترفاً أسلوبياً يُمكن الاستغناء عنه، بل هو ظاهرة تعبيرية لا غنى عنها في المواضع التي ورد فيها»^(١)، ويأتي التكرار في الشعر الجاهلي انعكاساً لحالة شعورية ما في نفس الشاعر، هذه الحالة تلح على الشاعر إلحاحاً، فلا يجد مناصاً من التعبير عنها بالتكرار لكي يجعل «الأمر المكرر حاضرًا غير غائب، ويلح في إظهاره بالصيغة نفسها أو مع شئ من التعبير حسب ما يتطلب المعنى أو السياق»^(٢) ومن ثمَّ يتضح لنا أن مستوى الإبداع في التكرار لا يكمن في توالي الألفاظ والعبارات المتشابهة وإنما يكمن في الإيجاء الدلالي لتوالي هذه الألفاظ وتلك العبارات.

وقد اعتمدت النقائص الجاهلية على التكرار اعتماداً كبيراً، ولأن الشعراء الجاهليين لم يقتنعوا بنقض المعاني فقط وإنما كانوا يعمدون إلى استخدام الألفاظ والعبارات التي وردت في القصيدة التي يريدون نقضها، وكأنهم ينقضون المعنى واللفظ والدلالة معاً، وقد لاحظنا أن التكرار في النقائص الجاهلية أخذ ثلاثة ملامح، تكرار العبارة، وتكرار شطر من البيت، وتكرار بيت بأكمله مع تغيير بسيط.

(١) ظاهرة التكرار بين النجاة والبلاغين، الدكتور السيد خضر، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب،

جامعة طنطا ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ص ٩٣.

(٢) السابق ص ٩٧.

١- تكرار العبارة:

وهو نمط ألفناه يكثر عند التهديد والوعيد، ولم يأت منفصلاً عن الإطار العام للمناقضة بل كان صميمها، وهذا النمط التكراري لم يكن من قبل كل شاعر على حدة، بل كان الشاعر الأول يقول قصيدته فيختار الشاعر الناقض عبارة من كلامه يعيدها كما هي، فهي تكرار من الشاعر الناقض على نموذج فرض عليه من الشاعر الأول. نرى ذلك في قول التبع اليماني موجهًا كلامه إلى كليب بن ربيعة:

يا ذا الكلام كأنني مؤزود من دار حمير فالفؤاد عميد
فالتبع بدأ البيت بعبارة «يا ذا الكلام» ثم يتبعها بالفخر بآبائه من حمير، وعلى ذلك يعتمد كليب إلى المقابلة الناقضة لقوله نقضًا شاملاً، فيتخذ عبارة التبع نفسها كأساس للمناقضة «يا ذا الكلام» ويفخر بجدوده بعدها مباشرة في مقابل فخر التبع بأجداده.

يا ذا الكلام نسيت عقد جدودي فلم أنفت وأنت غير حميد
لم أسر بالغمرات ان لم ألقكم شهباء مثل صرائم الأخدود
ونلمح نوعاً آخر من هذا التكرار، وهو تكرار القسم عندما يشدد الأمر بين كليب وجساس يبدأ كليب شعره بالقسم:

إنني ورب القمر المنير
والحجر الأسود ذي الستور
لئن رعت في البلد المحجور
وأفزعني جاري من الطيور
نائية في وكرها المخدور
لا تهكن الضرع بالمطرزور

ويرد عليه جساس مستخدماً القسم أيضاً مع اختلاف يسير في الألفاظ مع ثبات المعنى وهو دلالة القسم عند الشعراء.

إني وربّ الشّاعِرِ الفُرُورِ
وباعثِ الموتى من القُبُورِ
وعالمِ المكنونِ في الضّميرِ
إن رُميت منها مغفَرُ الجُرُورِ
لأثبِنَ وثبينةَ المَغِيرِ
الذّيبِ أو ذي اللَّبْدَةِ الهُصُورِ
بصارمِ ذي فننٍ مشهُورِ

ويتكرر هذا الملمح بين كليب وجساس، فعندما يفخر كليب بقوته وسطوته وأنه حمى الناس جميعاً في بقعة عريضة من الأرض حين يقول:

لقد حمّيتُ من جميعِ الناسِ
من بينِ أفرادِ إلى أفساسِ
أمنّعه فكيف من جسّاسِ
يحيطه اللّيثُ أبى الفراسِ
جهمُ المُخَيّا سابك الأضراسِ
قضاقص أهبطُ في المراسِ

فيكون رد جساس باستخدام ألفاظ كليب نفسها «جانيبي أفساس» بل ويزيد عليها «إلى أبانين إلى أوطاس» مؤكداً معنى العز والسودد، ولكي تؤتى المناقضة أكلها فإنه ينسب هذا الفخر لبني بكر وليس لكليب أو لبني تغلب.

بنا حمّيتُ جانيبي أفساس

إلى أبانين إلى أوطاس
بحي بكر دون باقي الناس
فإن تغد بنا إلى المراس
علمت أن العز فوق الراس

وثمة ملاحظة هي أن كليلاً كان يتحدث بضمير المتكلم المفرد «حيث» ورد
جساس كان بضمير الجمع «بنا» ثم يوضح جساس المقصود من هذا الجمع
«بحي بكر دون باقي الناس» فجساس يرى عزته وعزة كليب في بني بكر بينما
كليب يرى عزته في نفسه بمعزل عن بكر وتغلب على السواء، وعلى ذلك تكون
المناقضة هنا دلالة على نفسية طرفيها وعلى دواعي إبراز الذات عندهما. وتأتي
العبارة المكررة أحياناً للتأكيد والإقرار من الطرف الناقض، وهذا ما نراه عندما
يقول جساس مخاطباً أباه بعدما قتل كليلاً:

تأهب عنك أهبة ذى كفاح فإن الأمر جل عن التلاح
فإنني قد جنيت عليك حرباً يغص الشيخ بالماء القراح
فجساس يعترف بأنه جنى حرباً على أبيه ومن ثم يكون رد أبيه مستخدماً
العبارة نفسها:

فإن تك يا بُني جنيت حرباً فلا وكل ولا رث السلاح
ولكنني على العلات أجرى إلى الموت المحيط مع الضباح
ولعلنا نلمح كلمة «يا بُني» في البيت الأول، فهي مفعمة بالأبوة والعاطفة،
ثم يتبعها مرة بـ «جنيت حرباً» التي قالها جساس، وهو غير راضٍ عن تصرفه،
لكن العاطفة تتغلب هنا فإنه لهذه الحرب لأنه حسمها منذ البداية بقوله «يا
بُني».

ومن أنماط تكرار العبارة التي تختلف قليلاً في اللفظ مع ثبات الدلالة ما كان بين الحارث بن ظالم وحاجب بن زرارة وعامر بن مالك ملاعب الأسنة، وتبدأ العبارة في قول الحارث بن ظالم موجهاً كلامه لحاجب بن زرارة عندما امتنع عن إجارتها:

لَعْمَرِي لَقَدْ جَاوَرْتُ فِي حَيٍّ وَائِلٍ وَمِنْ وَائِلٍ جَاوَرْتُ فِي حَيٍّ تَغْلِبِ
فَأَصْبَحْتُ فِي حَيٍّ الْأَرَاقِمِ لَمْ يَقُلْ لِي الْقَوْمُ يَا حَارِبُ بِنِ ظَالِمٍ أَذْهَبِ
فالحارث يريد من عبارته «حي وائل» التلميح إلى العزة العربية المتمثلة في وائل ابن ربيعة (كليب) ومن هنا يرد عليه حاجب بن زرارة مستخدماً دلالة العبارة وليست العبرة بلفظها في قوله:

لَعْمَرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا حَارِبُ إِنِّي لَأَمْنَعُ جَارًا مِنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ
وَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْمَعْدِيُّ أَنَّنَا عَلَى ذَاكَ كُنَّا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
لكن هذا القول لا يروق لشاعر ثالث يدخل في المناقضة وهو أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة الذي يطلب ثأر ابن عمه خالد بن جعفر الذي قتله الحارث ابن ظالم، فهو لا يريد أن يحميه أحد من الناس، فلذلك نراه يرد ناقضاً قول حاجب ابن زرارة مستخدماً دلالة العبارة عند حاجب:

لَعْمَرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا حَارِبُ إِنِّي لَأَمْنَعُ جَارًا مِنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ
وَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْمَعْدِيُّ أَنَّنَا عَلَى ذَاكَ كُنَّا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
فأبو براء يستخدم العبارة هنا في مجال النقض والنصح معاً، لأنه لا توجد مقارنة بين حاجب بن زرارة وبين أبناء وائل، ولا يفوت أبو براء أن يعلن أن أبناء وائل بن ربيعة أنفسهم - وليس من يتشبه بهم - لو أنهم حموا قاتل ابن عمه ما تركهم.

٢- أنماط أخرى من التكرار:

١- تكرار معظم البيت:

وتقصد به تكرار البيت عدا كلمة أو كلمتين لقلب المعنى، ولم نلمح ذلك في شعر النقائض إلا مرة واحدة بدأت بالمهلل عدى بن ربيعة، الذي يتمنى أن يُنشر القبرُ عن أخيه كليب ليعلم أنه فعل ببني بكر ما يريد أخوه منه وفاءً لثأره:

وَلَوْ نُشِرَ الْمَقَابِرُ عَنْ كُلِّبٍ لِأَخْبِرَ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زِيرٍ
ويمسك الحارث بن عباد بالبيت ويعيده مع تغيير طفيف من حيث اللفظ وقلب كبير للمعنى، فقد غير «أي» التي تفيد التعجب والزهو^(١) بكلمة «شر»، وكلمة «لأخير» بكلمة «لأبصر»:

فَلَوْ نُشِرَ الْمَقَابِرُ عَنْ كُلِّبٍ لِأَبْصَرَ بِالذَّنَائِبِ شَرُّ زِيرٍ
ومع أن التغيير حدث في كلمتين فقط إلا أنه قلب المعنى على المهلل فالحارث يتمنى هو الآخر أن يُنشر القبرُ عن كليب ليرى أن أخاه شر زير على الأرض. أضف إلى ذلك أن المهلل استخدم لفظ «لأخير» والحارث بدله بما هو أقوى في اليقينية «لأبصر» فالرؤية أقوى دلالة من السمع.

(١) انظر في معناها: اللسان «أيا» (٢٨٠/١).

٢- تكرار الشطر أو معظمه:

ونقصد به تكرار شطر من البيت كاملاً أو تكراره مع تغيير كلمة واحدة فيه
لقلب المعنى. أما عن تكرار الشطر كاملاً فنجدّه عندما يقول قيس بن
الخطيم:

وَيُثَرِّبُ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ — تَرَأْسَ يَثْرِبُ مِيزَانُهَا
 فيرد عليه حسان بن ثابت بقوله:

وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّهَا	إِذَا أَلْبَسَ الْحَقُّ مِيزَانَهَا
وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّهَا	إِذَا قَحَطَ الْقَطْرُ، نَوَّاتَهَا
وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّهَا	إِذَا خَافَتِ الْأَوْسُ، جِيرَانَهَا
وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ إِذْ حَارَبَتْ	بَأْنَا لَدَى الْحَزْبِ فُرْسَانَهَا
وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّتَ	عِنْدَ الْهَزَاهِرِ ذُلَّاتَهَا
نَبَتْ بِالنَّبِيَّتِ وَأَشْيَاعَهَا	مَنْ إِنْ أَوْعَدَتْ قَطُّ أَوْطَانَهَا
فَكَيْفَ إِذَا نَازَلَتْهَا لُيُؤُ	ثُ غَرِيْفٍ وَشِبْلَانَهَا
مَتَى تَرْنَا الْأَوْسَ فِي بَيْضِنَا	نَهْرُ الْقَنَا تَخْبُ نِيرَانَهَا
وَتُعْطِ الْمَقَادَ عَلَى رَغْمِهَا	وَيَنْزِلُ مِنَ الْهَامِ عَضِيَانَهَا
وَيُثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّتَ	لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَأَعْوَانَهَا
فَلَا تَفْخَرْنَ وَالتَّمَسْنَ مَلْجَأً	فَقَدْ عَادَ لِلأَوْسِ أَذْيَانَهَا
وَنَحْنُ إِذَا حَارَبَتْ غَامِرُ	أَمَامَ الْكِتَابَةِ أَعْيَانَهَا
وَنَحْنُ إِذَا نَزَلَتْ مُفْضِلَاتُ	تُحَسُّ الْقِبَائِلَ، إِخْوَانَهَا

ونلاحظ أن قيس أراد أن يخبر بأن يثرب تعلم قوة وحكمة بنى النبيت قومه

وأَنهم ميزانها وقت المحن، في بيت واحد من الشعر، إلا أن حسان بن ثابت يكرر الشطر نفسه مرتين، ويكرر (ويثرب تعلم أنا بها) خمس مرات لنفي قول قيس بن الخطيم السابق، فلم يقابل حسان البيت ببيت إنما قابله بسبعة أبيات يمثل التكرار فيها أساساً لنقض المعنى الذي أراده قيس بن الخطيم، وكأن حسان بن ثابت يريد أن يخرس قيس بن الخطيم، فلم يقابله بالمثل وإنما بسبعة أمثال ما قال.

ومن هذا النمط ما نجده بين الحارث بن عباد والمهلهل، فبعد أن يقتل المهلهل يُجير بن الحارث بن عباد يقول الحارث متوعداً:

قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لَقَحْتُ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ جِيَالٍ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لَيْسَ قَوْلِي يُرَادُ لَكِنْ فَعَالِي
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	جَدُّ نَوُحِ النِّسَاءِ بِالْأَعْوَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	شَابَ رَأْسِي وَأَنْكَرْتُ نِي الْقَوَالِي
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لِلشُّرَى وَالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	طَالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَالِي الطُّوَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لَاغْتِنَاقِ الْأَيْطَالِ بِالْأَيْطَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	وَاعْدِلَا عَنْ مَقَالَةِ الْجُهَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لَيْسَ قَلْبِي عَنْ الْقَتَالِ بِسَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	كُلَّمَا هَبَّ رِيحٌ ذَيْلُ الشُّمَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لِيُجِيرَ مُفَكِّكَ الْأَغْلَالِ
قَرُبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مَنِّي	لِكَرِيمٍ مُتَوَجِّجٍ بِالْجَمَالِ

قَرَبَا مَرْبُطَ الثَّغَامَةِ مَنِّي لَا نَبِيْعُ الرِّجَالِ بَيْنَ الثُّغَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الثَّغَامَةِ مَنِّي لِبَجِيْرِ فِدَاهِ عُمِّي وَخَالِي
قَرَبَاهَا لِحِي تَغْلِبُ شُوشَا لَاغْتِنَاقِ الْكُمَاةِ يَوْمَ الْقِتَالِ
قَرَبَاهَا وَقَرَبَا لَأَمَّتِي دِرْ غَا دِلَاصَا تَرُدُّ حَدَّ النَّبَالِ
قَرَبَاهَا بِمَرْهَفَاتِ حِدَادِ لِقُرَاعِ الْأَنْبَطَالِ يَوْمَ النُّزَالِ
فَإِذَا عَلَيْهِ الْمَهْلَهْلُ نَاقِضًا مَا قَالَ مَكْرَرًا الشَّطْرَ الْأَوَّلَ الَّذِي كَرَّرَهُ الْمَهْلَهْلُ مَعَ

تَغْيِيرِ «النَّعَامَةِ» فَرَسِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ بِـ «الْمَشْهَرِ» فَرَسِ الْمَهْلَهْلِ :

قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي لِكَلْبِي أَشَابَ قَذَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي وَاشْأَلَانِي وَلَا تُطِيلَا سُؤَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي سَوْفَ تَبْدُو لَنَا ذَوَاتُ الْحِجَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي إِنَّ قَوْلِي مُطَابِقٌ لِفِعَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي لِكَلْبِي فِدَاهِ عُمِّي وَخَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي لَاغْتِنَاقِ الْكُمَاةِ وَالْأَنْبَطَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي سَوْفَ أَضِلِّي نِيرَانَ آلِ بِلَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي إِنْ تَلَاقَتِ رِجَالُهُمْ وَرِجَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي طَالَ لَيْلِي وَأَقْصُرَتْ غَدَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي يَا لَيْكِرٍ وَأَيْنَ مِنْكُمْ وَضَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي لِيَنْضَالَ إِذَا أَرَادُوا نَضَالِي
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي لِقَتِيلِ سَفْتُهُ رِيحُ الشَّمَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي مَعَ رُمُوحٍ مُثْقَفٍ عَسَالِ
قَرَبَا مَرْبُطَ الْمَشْهَرِ مَنِّي قَرَبَاهُ وَقَرَبَا سِرْبَالِي

ولعلنا نلاحظ أن التكرار في الشطر الأول عند كل من الشاعرين يمثل ركيزة بني عليها كل منهما قصيدته، فالحارث بن عباد عندما يكرر «قربا مربط النعامة منى» يوشك أن يكون تكراره بقصره وحدته بلاغا حربيًا يعلن النفير العام^(١) فيقابل المهلهل هو الآخر ببلاغ حربي مماثل «قربا مربط المشهر منى»، ويتخذها هو الآخر ركيزة لقصيدته الناقضة لقصيدة الحارث بن عباد، وقد حرص المهلهل على أن يقابل المعنى والدلالة معًا في قصيدة ابن عباد ويمكن أن نتبين دلالات المقابلة وهي:

الشطر المكرر الثابت الدلالة	أسبابه عند الحارث	أسبابه عند المهلهل
إعلان الحرب	- بسبب قتل بجير الذي بفديه بعمه وخاله. - للانتقام من القاتل. - لأن قوله ليس المراد لكن فعله. - لأن قتل ابنه قد أشاب رأسه - طال ليله حزنا على ابنه.	- بسبب قتل كليب الذي بفديه بعمه وخاله. - للانتقام من القاتلين. - لأن قوله مطابق لفعله. - لأن قتل كليب قد أشاب رأسه. - طال ليله حزنا على أخيه.

ولعلنا لاحظنا ثبات التكرار «قربا مربط النعامة منى»، «وقربا مربط المشهر منى» من حيث التكرار اللغوي الذي نتج عنه أيضًا ثبات التكرار الصوتي^(٢) والإيقاعي للشطر ككل إلا أن الأمر يختلف عند النظر إلى دلالة التكرار فالدلالة ليست ثابتة لأن «تصاعد التكرير يقود إلى تصاعد التنوع الدلالي لا إلى تماثل

(١) انظر شعرا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، ص ٢٢٩.

(٢) انظر التكرار الصوتي في: الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية، الدكتور إبراهيم عبد الرحمن، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٢٣١.

النص، فكلما تكاثر التشابه تكاثر الاختلاف»^(١) فكلما كرّر الحارث بن عُباد «قرباً مربط النعامة منى» يضاف إليها مع التكرار معنى جديداً يضاف إلى المعنى السابق حتى نصل في النهاية إلى كم تراكمي من المعاني. ومن ثمّ تصبح آخر مرة كرّرت فيها تشمل جميع المعاني السابقة وكذلك الحال مع المهلهل، فالشطر المُكرّر إذن يحمل في كل مرة تكثيفاً دلاليّاً يختلف عن المرة السابقة حتى وإن ثبت الشطر من حيث الألفاظ الواردة فيه، وهنا تكمن بلاغة التكرار، وقد تنبّه القدماء إلى هذا، فالشريف المرتضى في أماليه عندما يتحدث عن تكرار قوله تعالى: ﴿فَبَاقِيَ إِذْ رُكِبَ نُكُذِّبَانٌ﴾ في سورة الرحمن يؤكد على أن التكرار يُحسن لاختلاف ما يقرره به^(٢)، أي أنها في كل مرة كرّرت فيها في السورة القرآنية تحمل دلالات تختلف عن دلالاتها السابقة في تصاعد تراكمي. وقد ربط المرتضى بين ذلك وما نحن بصدده بقوله: «وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم، قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً (أبيات للمهلهل كرر فيها على أن ليس عدلاً من كليب) فخرجت هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني التي عدّناها على ما ذكرناه. وقال الحارث بن عُباد:

قَرَّبَا مَرْبُطَ النُّعَامَةِ مِنْى لَقَحَثَ حَزْبُ وَائِلٍ عَنْ جِيَالٍ
ثم كرر قوله: «قرباً مربط النعامة» في أبيات كثيرة من القصيدة للمعنى الذي ذكرناه»^(٣).

(١) من النقد المعيارى إلى التحليل اللساني، الشعرية البنيوية نموذجاً، الدكتور خالد سبيكي، مجلة عالم الفكر، العددان (٢٠١)، الكويت ١٩٩٤م، ص ٤١١.

(٢) أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م (١/١٢٣).

(٣) انظر السابق (١/١٢٣-١٢٦).

٢- تكرار القسم «لعمري»:

ويراد به التأكيد على أمر ما والإصرار عليه، فالخارث بن ظالم يستخدمه للدلالة على أنه جاور أفضل قبائل العرب شأنًا تعريضًا بحاجب بن زرارة وذلك في قوله:

لعمري لقد جاورت في حى وائل ومن وائل جاورت في حى تغلب
فأصبحت في حى الأراقم لم يقلن لي القوم يا حار بن ظالم أذهب
فيرد عليه حاجب بن زرارة مستخدمًا القسم نفسه مع تغيير طفيف، فهو لا يقسم بعمره هو وإنما بعمر أبي الخارث بن ظالم، ويستخدمه حاجب بن زرارة لتأكيد معنى العزة والسؤدد الذي يفوق عز وائل بن ربيعة وسؤدده:

لعمري أبيتك الخير يا حار إننى لأمنح جازا من كلئيب بن وائل
وقد علم الحى المعدي أننا على ذاك كنا في الخطوب الأوائل
وفي المناقضة نفسها يدخل أبو براء عامر بن مالك. ويرد على حاجب بن زرارة مستخدمًا القسم «لعمري» ليؤكد هو الآخر قوة بني عامر التي قهرت حاجب بن زرارة وقومه، وبعد أن كان يتعنى بالعز والفخر أصبح ذليلاً بعد هزيمته:

وفارسها في كل يوم كربة وخير ثميم بين حاف وناعل
لعمري لقد دافعت عن حى مالك شأبيب من حزب تلقح حائل
على كل جزداء السراة طمرة وأجرذ خوارج العنان مناقل

ونرى القسم «لعمري» يتبادل بين يزيد بن عمرو الكلبي، وعبدالله بن جدل الطعان لكنه يختلف من حيث الدلالة عند كل من الشعراء، فيزيد يستخدمه

حين أرسل قصيدة إلى عباس بن الأصم يحرضه على الثار لمقتل مالك بن خالد
من قاتليه بني كنانة:

لعمري وما عمري على بهين
لقد خبر الركب اليماني فأوجعا
نعوا مالكا فقلت ليس بمالك

ولم أستطع عن مالك ثم مذفعا
فالقسم هنا للدلالة على الفجعية الكبرى التي حلت عليهم عندما علموا
بمقتل مالك، ولم يكن يزيد بن عمرو يوجه كلامه إلى ابن جذل الطعان وأظن
أنه لم يكن ينتظر منه ردًا على قوله، لكن ابن جذل الطعان يرد عليه مستخدمًا
القسم نفسه الذي يعطى دلالة السخرية والاستهزاء من يزيد بن عمرو:
لعمري لقد سحنت دموعك ضلة

تبكى على قتلى سليم وأشجعا
فهلأ شتيرا أو مصاد بن خالد
بكيت ولم تترك لها الدهر مجزعا
تبكى على قتلى سليم سفاهة
وتترك من أمضى مقيما بضلعا
كمزوعة أولاد أخرى وضيعت

بنيها فلم ترقع لذلك مرقعا
ولعل تشبيه ابن جدال الطعان يزيد بن عمرو الكلبي، وهو الفارس، بأنه
مثل المرضعة ما هو إلا استكمال لصورة السخرية التي يرد ابن جذل الطعان
أن يثبتها ليزيد بن عمرو.

٤- تكرار العلم:

وهذا النمط من التكرار يكون مُصاحِبًا لحالة الرثاء عندما يفقد الإنسان عزيزًا عليه فإنه يكرر اسمه في القصيدة التي يرثيه بها مرات متتالية، نلاحظ ذلك في شعر المهلهل الذي دخل هذه الدراسة وشعره الذي خرج عن إطار النقائض، فقد كرر «على أن ليس عدلاً من كليب» إحدى عشرة مرة في قصيدة له^(١)، وفي العصر الأموي كُثرت ليلي الأخيلية هي الأخرى اسم «توبة» عندما قُتل تسع مرات عدا الضمير الذي يعود عليه^(٢)، وهذه الظاهرة لم تكن بعيداً عن شعراء العصر الحديث، فقد كرّر نزار قباني اسم زوجته «بلقيس» أكثر من خمسين مرة في قصيدة تحمل الاسم نفسه عندما رثاها بعدما قُتِلت هي الأخرى^(٣)، وطبيعة التجربة هنا هي التي تفرض الاسم المكرر، ونفرضه على الشاعر فرضاً فيلجأ إليه، ليس لإقناع أحد - كما هي مهمة التكرار - لأنَّ الشاعر يتحدث إلى نفسه المفجوعة، ويعود سر جمال اللفظ المكرر في هذه الحالة إلى كثافة الحالة النفسية التي تقترن بها اللفظة حتَّى أن اللفظة بمرور تكرارها تتخلَّى عن لفظيتها إلى ما وراءها من إحياءات حتى تجسد لنا المأساة التي يمر بها الشاعر.

وهذا النمط نجده عند المهلهل وهو يرثي أخاه كليباً في قوله:

أهـاج قـذاء غـينـي الإذـكار هـدوا، فالـدُموعُ لها انـخـدارُ
وصار الـليلُ مشـتملاً علينا كأنَّ الـليلَ لـيسَ له نـهارُ

(١) شعراء النصرانية (١٦٩/٢)، (١٧٠).

(٢) انظر: أمالي المرتضى (١/١٢٤)، (١٢٥).

(٣) انظر: نزار قباني شاعراً سياسياً، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، دار الفكر الحديث، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٢م ص ٢٢٩.

دعوتك يا كليب فلم تُجِنني وكيف يجيئني البلد القفار
أجِنني يا كليب خلاك دم لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إنك كنت غيثا ويسرا حين يلتمس اليسار
أبت عيناى بعدك أن تكفأ كأن قنا القناد لها شفار
أتغدو يا كليب معى إذا ما جبان القوم أنجاء الفزار
أتغدو يا كليب معى إذا ما فسيل القوم شط به المزار
خذ العهد الأكيد علي غمري بتركى كلما حوت الديار
وهجر الغانيات وشرب كأس ولبسى جبنة لا تستعار
ولست بخالغ درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبيد سرة بكر فلا يبقى لها أبدا آثار

فقد كرر اسم أخيه «كليب» أربع مرات وعبر عنه بالضمير الظاهر ست مرات وبالضمير المستتر ثلاث مرات، وقد استطاع الشاعر من خلال التكرار أن يصور لنا هول المأساة التي حلت به شخصيًا عندما قُتل كليب، فكليب واضح ومائل أمامنا في كل بيت، ومن هنا تتجدد مأساة فقده عند التكرار وتجعلنا برغم مرور أكثر من ألف وسبعمائة عام عن الوقعة نشاركه هذه المحنة عندما نقرأ هذه الأبيات، والذي جعل هذا الشعر حيًا حتى اليوم هو الصدق في المشاعر الكامنة خلف تصوير المأساة ونجاح الشاعر في إبراز هذه المشاعر بالفاظ تعبر عنها تمامًا، والمشاعر الإنسانية أعتقد أنها ثابتة في كل عصر، فمهما اختلفت البيئات والعصور يظل الموت والموت المفاجئ المأ يعترى النفس البشرية. وزاد من جمال التكرار هنا هو أن الاسم المكرر كأن مسبوقًا بأداة النداء «يا» لتزيد الدلالة بالحسرة والألم والتوجع، وفي قصيدة أخرى للمهلهل نجده

يكرر «كليب» ولا يخرج التكرار عن دلالة الحسرة والألم التي عبّرنا عنها آنفاً:

الذّارُ قفرُ عفاها بعد ساكنها	بالريّح بعد ارتحال الحي بما فيها
وغالها الدهرُ إن الدهرُ ذو غيلٍ	فأصبحتُ بلقى قفراً مغانيها
كليبُ لا خير في الدينا ومن فيها	إن أتت خلّيتها فيمن يُخلّيها
كليبُ أي فتى عزٍّ ومكرمةٍ	تحت السّفايف إذ يعلوك سافيتها
نعى النّعاة كليباً لي فقلّت لهم	مادتُ بنا الأرضُ أم مادتُ رواسيها
ليت السّماء على من تحتها وقعت	وحالت الأرضُ فانجابت بمن فيها
والخيلُ قد أثبتت قومي حوافرها	واستوجبت بعد أنصال دواميها
نرمي الرماح بأيدينا فنوردها	بيضا ونصدرها حمراً أعاليها
لا أصلح الله منّا من يُصالحكم	ما لاحت الشمسُ في أعلى مجاريها

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جساس بن مرة وهو يرد على كليب قد كرر هو الآخر اسم «كليب» في قوله:

بلّغ مهلهل عن بكرٍ مغلغلةً	مثثك نفسك من غيٍّ أمانيتها
تبكي كليباً وقد شالت نعامته	حقاً وتضمّرُ أشياء تُرجّيتها
فاضرٌ لبكرٍ فإن الحرب قد لقحت	وعزّ نفسك عمّن لا يو اليها
فقد قتلنا كليباً لم نبال به	بناب جارٍ ودون القتل يكفيها
نحمي الدّمار ونحمي كلَّ أرملةٍ	حقاً وندفعُ عنها من يُعاديها
والجارُ نُؤمّنه إن حلّ ساحتنا	والعارُ تمنعه الأشرافُ واليهيها

وشتان بين تكرار كلٍّ منهما للاسم، فالتكرار عند المهلهل أتى مُحملاً بكم من الحسرة والمرارة والأسى، كما دلّل على علاقة الإخوة الوثيقة التي كانت تجمع المهلهل وكليباً، أو على الأقل من جهة المهلهل، فقد دلّل التكرار على مدى

تعلقه بأخيه، أما التكرار عند جسّاس فكان يعلوه الفخر والاستهزاء بالقتيل، فهو الذي قتله، وهو من وجهة نظر جسّاس بطولة تحسب له، ومن ثم نرانا أمام مشاعر متناقضة عند كل من الشاعرين، لأن الأمر هنا فاق مسألة نقض المعاني كما هو متعارف عليه في شعر النقائض.

وثمة إشارة هنا وهي أن معظم شعر المهلهل به هذه الظاهرة فلم يغيب عنه كليب شعراً وفعلاً أثناء الحرب^(١).

ونلمح تكرار العلم في موضع آخر في شعر النقائض، نراه عند يزيد بن عمرو الكلبي وهو يرثي مالك بن خالد بن صخر بن الشريد السلمي في قوله:

لعمري وما عمري على بهين

لقد خبر الزكبي اليماني فأوجعا

نعوا مالكا فقلت ليس بمالك

ولم أستطع عن مالك ثم مذبعا

فأبلغ سليما أن مقتل مالك

أذل سهول الأرض والحزن أجمع

فلله عيننا من رأى مثل مالك

فتيلا بحزن أو قتيلا بأجرعا

فلا تشربن خمرا ولا تأت حاصنا

أبا أنس حتى يزوك مقتعا

فلو مالك ينبغي الثرات لقد رأوا

نواصي خيل تنفض السم منقعا

(١) انظر شعر المهلهل في شعراء النصرانية (٢/ ١٦٠-١٨١).

أنازلة غدوا فراسن بفخرها

عكاظ ولم تجزيء لها الضاع متزعا

فقد كثر اسم «مالك» ست مرات منها ثلاث مرات في بيت واحد عدا الضمير الدال عليه، ولعل الذي يلفت النظر أن شعر تكرار العلم في شعر الرثاء في جميع العصور كان من قبل الأخ مثل المهلهل أو الحبيبة مثل ليلى الأخيلية أو الحبيب مثل نزار قباني في العصر الحديث. أما قصيدة يزيد بن عمرو الكلبي فكانت نوعاً مختلفاً، فهو ليس بأخ للقتيل وليس القاتل من قبيلته، فيزيد بن عمرو الكلبي من عامر بن صعصعة ومالك بن خالد من بني سليم، فرابطة الدم متنفية تماماً، وهذا يؤكد لنا أن رابطة الصداقة التي نشأت بين الشاعر والقتيل كانت مثل رابطة الدم أو تزيد لأن بني سليم أنفسهم لم يرثوا مالك بن خالد مثل هذا الرثاء المُر.

٤- أسلوب التبليغ:

وهو أسلوب يكثر استخدامه عند الفخر أو إعلان الندية للخصم، ومن ثم فهو من الأساليب التي تأتي بكثرة في شعر النقائض لأنها تقوم على الندية والفخر بين طرفين كل طرف يريد أن ينتصر لنفسه ويحيط من قدر خصمه، وكان أسلوب التبليغ أحد الأساليب التي استخدمت في نقائض الجاهليين، نلمح ذلك في رد جساس بن مرة الذي تصله قصيدة تهديد من المهلهل فيرد عليه مستخدماً «أبلغ» بصيغة الأمر:

بَلِّغْ مهلهل عن بكرٍ مُغلغلة مَثُكْ نفسُك من غيٍّ أمانيهما
وعندما يزداد تهديد المهلهل يقابله جساس أيضاً بتهديد مماثل مستخدماً أسلوب التبليغ «ألا أبلغ» مُعلنًا تحديه لقوة المهلهل مهما كانت:

ألا أبلغ مهلهل ما لدينا فأذمُّعنا كأذمُّعه غِرَّارُ
وقد استخدم كليب بن ربيعة أسلوب التبليغ أيضاً وهو يرد على تهديدات التبع اليماني، مستخدماً صيغة الأمر «أبلغ» وهي تدل على الحزم والعزيمة وثبات الجأش:

أبلغ التبع اليماني أنا فوق جُرْدٍ مسومات عتاق
نضربُ الهام بالمهْنَدِ ضرباً وسنومُ العدا وطول السِياق
رُبَّ ملكٍ مُتَوَجِّحٍ قَدْ قَتَلْنَا كان ذا عِزَّةٍ عَظِيمِ الرواق
فسلبناه مُلكَهُ واشتَبَخْنَا مُلكَهُ لا يقيهِ مِنْ ذاكِ واق

والمهلهل هو الآخر يستخدم الصيغة نفسها في تهديد بني حنيفة البكرين:
أبلغ حنيفة لا تغدُ ديارهم لم يُنْجِهم عِدَّةٌ مِنَّا ولا عِدَّةُ
والصيغة نفسها يستخدمها عمرو بن الإطنابة وهو يهدد الحارث بن ظالم المري

بعدما قتل الأخير خالد بن جعفر ببطن عاقل وهو نائم، ويصحب استخدام ابن الإطنابة لأسلوب التبليغ الهجاء وليس كما ألفنا التهديد من قبل:

أَبْلَغُ الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمِ الرُّعَى سَيْدِ وَالنَّاذِرِ الثُّدُورِ عَلِيًّا
أَنْمَا يَفْثُلُ الثِّيَامَ وَلَا يَقْ تَلْ يَقْظَانِ ذَا سَلَاكِ كَمِيًّا
ويأتي أسلوب التبليغ للاستدراج، أي خداع الخصم حتى يقع في المحذور، وهذا ما نلمحه عندما يستخدمه سلمة بن الحارث بن أكل المزار الكندي وهو يحاول استدراج قاتل أخيه شريحيل:

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا حَنْشٍ رُسُولًا فَمَا لَكَ لَا تَجِيءُ إِلَى الثُّوَابِ
وَمَا لَكَ لَا تَجِيءُ إِلَى هِجَانٍ مَنْصُوبَةِ الْغَوَارِبِ بِالْهَضَابِ
وقد استخدم عباس بن مرداس السلمى هذا الأسلوب أيضًا ولكن بصيغة الأمر للمثنى وهو يرد على ابن جذل الطعان.

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي ابْنَ جَذَلٍ وَرَهْطُهُ

فَكَيْفَ طَلَبْنَاكُمْ بِكَزْزٍ وَمَالِكٍ

وبصيغة الأمر للمثنى يستخدم قيس بن الخطيم هذا الأسلوب للرد على أنس ابن العلاء الخزرجي، والذي يلفت النظر أن قيس بن الخطيم لم يُسمَّ أنس بن العلاء باسمه ولكن قرن أسلوب التبليغ بالاستهزاء، فقال «ذا الخزرجي» لأنه من وجهة نظر قيس بن الخطيم لا يستحق الذكر:

أَلَا أَبْلَغَا ذَا الْخَزْرَجِيِّ رِسَالَةً رِسَالَةً حَقٌّ لَسْتُ فِيهَا مُقْنَدًا
وقد استخدم الأسلوب للتحريض للأخذ بالثأر من طرف لا يمتُّ للقتيل بصلة وهذا ما نلمحه في قول يزيد بن عمرو الكلابي وهو يحرض عباساً الأصم

للاخذ بثأر مالك بن خالد والغريب أن الشاعر ومن يحرضه لا يمتان بصلة للقتيل:

فأبلغ سليماً أن مقتل مالك

أذل سهول الأرض والحزن أجمعاً

ونرى استخداماً آخر لأسلوب التبليغ عند عامر بن الطفيل وهو يفخر على النابغة الذبياني:

ألا من مبلغ غني زياداً غداة القاع إذ أرف الضراب
والصيغة نفسها يستخدمها النابغة وهو يرد على بدر بن حذار في قوله:

ألا من مبلغ غني حزيناً وزبان الذي لم ينزع صهري
فإياكم وغوراً داميات كأن صلاءهن صلاء جحر
وهذه الصيغ جميعها وإن اختلفت في بعض المواضع لفظاً فهي تتفق من حيث الغاية، فالأمر لا يقف عند تبليغ الآخر لكن يتعداه، فهي قبل ذلك تعبر عن صلابة نفس القائل وقوته وحزمه، ومن ثم فهي إبلاغ وتحذير للخصم، حتى يرعوى.

ولعلنا نلاحظ أنها كثرت في مجال الدفاع عن النفس والرد على الخصم وقلت في القصائد المنقوضة، مما يؤكد أنها وسيلة دفاعية استخدمها الشعراء الفرسان على وجه التحديد.

الخاتمة

بعد رحلة طويلة، شاقة وممتعة في آنٍ واحد انتهينا من رصد وتحليل النقائض في الشعر الجاهلي، واستخرجنا ملامح تلك النقائض، موضوعية وفنية، وقد تطلب منا إنجاز هذا العمل أن نبحث في كل مصادر الأدب الجاهلي علّها تعيننا بنقيضة أو تصحيح لنا خطأ، أو تضيف معلومة تفيد البحث، ورغم ذلك لا نستطيع أن ندعي أننا قمنا بحصر نقائض العصر الجاهلي حصراً تاماً، وأنه لم يفت منا نقيضة واحدة، فهذا زعم لا أدعيه، لكن في الوقت نفسه لم أقصر في البحث عن هذه النقائض ولم أترك كتاباً في الأدب الجاهلي أعلمه إلا وقرأته كي أفاد منه.

وقد بدأت برصد النقائض ورتبتها ترتيباً تاريخياً، الأقدم فالأحدث وقد بدأتها بنقائض ما قبل حرب البسوس في نهاية القرن الخامس الميلادي، وأنهيتها بنقيضة في بني بكر قبلت وقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن بني بكر لم يدخلوا الإسلام آنذاك، وقد تحريت الدقة التامة في هذا الرصد التاريخي إلا أنني لا أستطيع أيضاً أن أزعم أنه دقيق ولم يشبه الخطأ، فالحقبة الجاهلية لم تدرس من قبل حسب الترتيب التاريخي الدقيق، ومن ثم كان اعتمادي في ذلك على ترتيب الوقعات التاريخية، فمرحلة ما قبل حرب البسوس هي أقدم المراحل ثم تلتها مرحلة حرب البسوس ثم امرئ القيس وهكذا، ولأن الجزيرة العربية واسعة الأطراف كان يمكن للأحداث والوقعات أن تتوافق في وقت واحد لاسيما في نهاية العصر الجاهلي لذلك الجزم بدقة هذا الترتيب أيضاً أمر لا ندعيه.

وكانت محاولتي في ترتيب النقائض ترتيبًا تاريخيًا تهدف إلى رصد الظواهر الموضوعية والفنية وتطورها في العصر الجاهلي، إلا أننا لم نظفر بأي تطور في فنيات النقائض، فقد بدأت مكتملة العناصر، الوزن والقافية ونقض المعنى، أما عن النقائض التي وصلت إلينا وهي غير مكتملة فكانت في الحقة الوسطى من العصر الجاهلي، وأشهر هذه النقائض ما كان بين امرئ القيس، وعبيد بن الأبرص، وأعتقد أن اعتقاد النقاد بأن هذه أقدم نقيضة وهي غير مكتملة جعلهم يتوهمون أن هذه هي طفولة فن النقائض وأخذوا يتتبعون هذا الفن بعد ذلك متوهمين نضجه في نهاية العصر الجاهلي، ونحن نجزم بأن نقيضة امرئ القيس، وعبيد بن الأبرص نقيضة عادية لا علامة لها بتطور هذا الفن ولم تكن الأولى فيه أيضًا، وربما الذي جعل عبيد بن الأبرص لا يلتزم الوزن والقافية في تلك النقيضة الموقف - الذي لا نعلمه ولسنا على يقين منه - فربما فُرض عليه الرد فرضًا، كأن تكون قصيدة امرئ القيس قد وصلتته وهو في نادى قومه وتلّيت عليهم فما كان من عبيد إلا الرد الفوري الارتجالي الذي جاء متسرعًا وهذا ظنُّ منا. أما من ناحية الموضوعات فقد رصدنا أهم الملامح الموضوعية لهذا الفن وتبين لنا أن الهجاء تطور على يد حسان ابن ثابت، وعبدالله بن رواحة في نهاية العصر الجاهلي وبدأ يأخذ مأخذًا يختلف بعض الشيء عن نظيره قبلهما، فقد وجدنا شيئًا من السباب في الهجاء وهذا لم نألفه عند الشعراء السابقين لهم.

بقى أن نشير إلى أن تحديد المصطلح والملاح لم يخضعا لنقائض العصر الجاهلي ولا حتى نقائض صدر الإسلام التي كثرت بين مكة والمدينة بعد هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها، وإنما خضعا إلى نقائض العصر الأموي وخاصة ما كان بين فحول هذا الفن - جرير، والفرزدق، والأخطل - وقد

سمي القدماء هذا الهجاء المتبادل بين هؤلاء نقائض، وعلى ذلك كُلمنا ذكر هذا المصطلح تبادر إلى الذهن هذه المعارك اليومية بين هؤلاء الشعراء. ومن وجهة نظرنا الخاصة لا نختلف على المصطلح الذي ارتضاه القدماء والمحدثون معاً، وإنما نختلف على حصره على نقائض هؤلاء الفحول دون غيرهم في عصرهم، لأن النقائض التي نشأت بين الشعراء والقبائل في العصر الأموي أكبر من حيث الحجم من شعر الفحول كما أن النقائض في العصر الأموي عدا نقائض هؤلاء الفحول لم تكن وقفاً على الهجاء فقط مثلما هو الحال عندهم وإنما كانت امتداداً طبيعياً لنقائض العصر الجاهلي، إذ تناولت ملامح شتى وأفكار متعددة تبعد كثيراً عن الهجاء المتبادل بين المتناقضين. وعلى ذلك يُعَدُّ التحديد الصارم للملامح النقائض تحديداً يبعد قليلاً عن الدقة العلمية لأنه لم يشمل كل نقائض العصر الأموي كما أنه أغفل نقائض العصر الجاهلي وهي البذور الأولى لهذا الفن إغفالاً كلياً.

والأخرى بالتنظير للمصطلح والملاح في هذه الحالة أن ينبثق عن نقائض العصر الجاهلي وينظر إلى نقائض العصرين الإسلامي والأموي على أنهما مرحلة لا نقول متطورة للعصر الجاهلي وإنما مرحلة تالية له. لأننا نعتقد أن النقائض لم تتطور عند فحول شعراء العصر الأموي على الإطلاق، وإنما تحولت إلى هجاء مقذع، فإن كان التطور قد حدث فقد تم في الهجاء الأموي لا النقائض الأموية، لأن السبب الذي تم بين الفحول الثلاثة لم يعرفه المتناقضون في الجاهلية والأخرى أن يرتبط شعر هؤلاء الفحول بتطور فن الهجاء مستقلاً لأن هذا اللون من الهجاء له جذور في الشعر الجاهلي وإن كانت أخف بكثير من هذا السبب المباشر أضف إلى ذلك أمراً آخر وهو أن هذا الهجاء المقذع لم يكن وليد عداوة أو خصومة حقيقية بقدر ما كان وسيلة من وسائل التسلية وقطع الفراغ ولأن

«العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاء منظماً، يستمر يومياً استمراً متصلاً، على نحو ما يستمر في عصرنا إخراج الصحف اليومية، إنما عرفوا هجاء متقطعاً، يظهر من حين إلى حين، تبعاً لنشوب حروب وأيام بينهم. فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبية جَذَعَةً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المَزْبَد وفي الكُنَاسَة حول الشعراء، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء، وكانهم وجدوا في ذلك لَهُوَ لهم وتسلية.

حينئذ يتحول فن الهجاء من فن وقتي متقطع إلى فن دائم مستمر، فالقبائل مصفوفة في البلدتين، والشعراء متراضون في المَزْبَد والكُنَاسَة، والناس يتحلّقون حولهم لاستماع ما يأتون به، بعضهم من قبائلهم، وبعضهم من قبائل أخرى، جاءوا للفرجة والتسلية وقطع الفراغ الهائل الذي لم يكن يعرفه العربي في الجاهلية إلا قليلاً، إذ كان مشغولاً بالبحث عما يُقيم به أوده. أما اليوم فقد كَفَتَه الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مثونة ذلك، فذهب يبحث عن شئ يلهو به، ويقطع أوقات فراغه، وقام له شعراء البلدتين بما ابتغى، إذ حوّل المَزْبَد والكُنَاسَة إلى ما يُشبه مسرحين كبيرين، يظهر عليهما يومياً شعراء مختلفون يلعبون لغبة الهجاء اللطيفة التي كانت ترزع العرب في جاهليتهم قديماً، ولا تزال ترزعهم حديثاً»^(١).

لذلك نقول بأن ملامح النقائض التي رسخت في أذهان القراء والباحثين على أنها قوالب ثابتة للنقائض تحتاج إلى إعادة نظر، لأن النقائض في العصر الجاهلي كانت أشمل وأعم من نقائض فحول العصر الأموي الذين ركّزوا - كما ذكرنا - على الهجاء المصطنع الذي نعدّه ملمحاً من ملامح النقائض المتأخرة زمنياً،

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، ص ١٦٣، ١٦٤.

ويُحكم عليه في إطار عصره فقط، لكن لا نستطيع أن نسلم بأنه الملمح الأشمل والأعم للنقائض ككل. لذلك نؤكد على أن فن النقائض ككل في حاجة ماسة إلى دراسة ملاحمه وتطوره من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي وأن تكون النقائض الجاهلية هي الأساس الأول لهذه الدراسة.

وبعد....

فقد كانت تسيطر عليّ غايةً منذ البدء، وهي تحليل ورصد النقائض الجاهلية وإظهار ملاحمها الموضوعية والفنية، دون أحكام مُسبَّقة، وأن تعطينا النقائض ما تريد هي أن تعطيه، فلا نفرض عليها شيئاً ولا نتعسف معها أو ضدها، وأدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا، فهو من وراء القصد.

﴿ وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾

المصادر والمراجع

- الأدب الأموي، الدكتور صلاح رزق، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٥م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية (د.ت).
- الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسين بن ذرید، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة (د.ت).
- أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- أمراء الشعر في العصر الجاهلي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٩م.
- الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي، تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف، وزارة الإعلام الكويتية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
- أيام العرب، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عادل جاسم البياتي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- بكر وتغلب ابني وائل، مؤلف مجهول، كتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٧١ أدب، (د.ت).
- بلاد العرب، للحسن بن عبدالله الأصفهاني، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطبع والنشر (د.ت).
- تاريخ النقائض، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٥٤م.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.
- جهرة أشعار العرب، للقرشي، تحقيق خليل شرف الدين، الطبعة الثانية، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م.
- جهرة النسب، لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، برواية السكري، تحقيق الدكتور ناجي حسن، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة العربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ديوان عامر بن الطفيل، تحقيق الدكتور أنور أبو سويلم، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- شرح ديوان امرئ القيس ويليهِ أخبار المراقسة وأشعارهم، وأخبار النوايع وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، تحقيق حسن السنددي، الطبعة الأولى، دار إحياء العلوم، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- شعراء النصرانية، جمع الأب لويس شيخو، مكتبة الآداب، القاهرة (د.ت).
- الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبدالقادر القط، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م.
- شعر بني عامر بن صعصعة من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق ودراسة، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، الطبعة الأولى، نادي المدينة المنورة الأدبي، السعودية ١٤١٥هـ/١٩٩٦م.
- الشعر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثالثة عشرة، دار المعارف القاهرة ١٩٩٠م.
- الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية، الدكتور إبراهيم عبدالرحمن، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة ٢٠٠٠م.
- شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٠٧)، الكويت، مارس ١٩٩٦م.
- شعر النقائض في العصر الأموي، الدكتور عبدالفتاح أحمد يوسف، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب جامعة الزقازيق ١٩٩٩م.
- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجُمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة (د.ت).
- ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين، الدكتور السيد خضر، رسالة دكتوراة مخطوطة، كلية الآداب، جامعة طنطا ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- العقد الفريد، لابن عبدربه، تحقيق وشرح الدكتور مُفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق وشرح الدكتور مفيد محمد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- الفروسية في الشعر الجاهلي، الدكتور نوري حمودي القيسى، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- في تاريخ الأدب الجاهلي، الدكتور علي الجندي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨م.
- لسان العرب، لابن منظور، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.
- مجمع الأمثال، للميداني، عناية نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- المُحبر لابن حبيب، محمد بن حبيب الهاشمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت).
- معجم البلدان، لياقوت الحموي، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.
- معجم ما استعجم، للبكري، تحقيق مصطفى السقاء، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- من النقد المعيارى إلى التحليل اللساني، الشعرية البنيوية نموذجاً، الدكتور خالد سليكي، مجلة عالم الفكر، العددان (٢،١)، الكويت ١٩٩٤م.
- نزار قباني شاعرًا سياسيًا، الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، الطبعة الثالثة، دار الفكر الحديث، القاهرة ٢٠٠٢م.
- نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى، طبعة ليدن، ١٩٠٥م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، للنوري، طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (د.ت).

الفهرس

٥	مقدمة
٩	تمهيد: حول مفهوم النقائض
١٠	حول نشأة النقائض
١٣	الفصل الأول: عرض وتحليل النقائض
١٥	النقائض قبل حرب البسوس
٢٢	النقائض قبيل مقتل كليب ٤٩٤م
٢٨	النقائض في مقتل كليب وحرب البسوس
٥٠	النقائض في مقتل خالد بن جعفر
٦٠	النقائض في يوم الكلاب الأول
٦٦	نقائض داحس والغبراء
٧١	نقائض يوم برزة
٧٧	النقائض في يوم جدود
٨٠	يوم ذي نجب
٨١	يوم ذي أضاح
٨٣	يوما الجفار وذات الشقوق
٨٦	النابعة الذبياني والنقائض
٨٦	النابعة الذبياني وعامر بن الطفيل

٩٠	 النابغة وبدر بن حذار الفزاري
٩٥	 النابغة ويزيد بن عمرو الكلبي
٩٧	 نقائض الاوس والخزرج
٩٨	 نقائض قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت
١٠٣	 نقائض قيس بن الخطيم وعبدالله بن رواحة
١١٠	 نقائض قيس بن الخطيم وأنس بن العلاء الخزرجي
١١٢	 ☆ آخر نقائض العصر الجاهلي
١١٢	 يوم الشَّيطِين
١١٥	 الفصل الثاني: الملامح الموضوعية للنقائض
١١٧	 أسباب النقائض
١١٩	 القيمة الموضوعية للنقائض
١٢٠	 شعراء النقائض
١٢٢	 أغراض النقائض
١٢٢	 الفخر
١٣٤	 تطور الهجاء في النقائض
١٤١	 النصيح والعتاب واللوم
١٤١	 نقائض الإخوة
١٤٣	 نقائض الأب وابنه
١٤٥	 نقائض أبناء العم
١٥٠	 الحكمة
١٥٣	 الفصل الثالث: ملامح وقضايا فنية
١٥٥	 أوزان النقائض

١٥٧	 ملامح أوزان النقائص
١٥٧	 اختلاف الوزن واتحاد القافية
١٥٩	 وحدة الوزن واختلاف القافية
١٦١	 وحدة الوزن والقافية واختلاف حركة القافية
١٦٢	 اختلاف الوزن والقافية
١٦٧	 التكرار
١٦٨	 تكرار العبارة
١٧٢	 أنماط أخرى من التكرار
١٧٢	 تكرار معظم البيت
١٧٣	 تكرار الشطر أو معظمه
١٧٨	 تكرار القسم «لعمري»
١٨٠	 تكرار العلم
١٨٥	 أسلوب التبليغ
١٨٨	 الخاتمة
١٩٣	 المصادر والمراجع
١٩٧	 الفهرس

رقم الإيداع ٣٤٩٨ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي 4 - 469 - 241 - 477 I.S.B.N.
